لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

مرجريت

أو

غادة الكاميليا

LA DAME AUX CAMELIAS

نقلها عن الفرنسية
الدكتور أحمد زكي

الطبعة الثانية — الحقوق محفوظة

الثمن ١٥٠ مليم

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر
١٣٤٧ — ١٩٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم الفيلسوف الأديب الدكتور منصور فهمي

ان كبار الكتاب تطوف بخواطرهم نوادر الأفكار ، وتلوذ بقلوبهم شوارد العواطف ، حتى اذا صحت عزيمتهم على جمع شتيت فكرهم ، ولم ما تفرق من عواطفهم ، نزلت بصدورهم ضيقة لارتيابهم فى قيمة ما يخرجون ، فاما أن يكون ما يقدمه الكاتب ظاهراً فى زى المتداول المألوف ، فيحز عليه ألا يكون ما تنتجه قريحته أجل وأسمى مما تنتجه سائر القرائح ، واما أن تتزيا له بنات فكره فى زى طريف ، فيخشى أن تقع فى النفوس موقع مالم تألفه النفوس ، ويترجح عنده أن الناس أدنى الى أن تميل عن الجديد ، لا أن تميل اليه . وقد ينبغى له أن يخشى ذلك اذا هو قدم للجمهور قصة طريفة ، والطريف لا يلقى من الناس كرامة ، ولا يجد من الدهر معيناً ، فان بنى على أساس متين فان الناس تتعشقه وتعتنقه ، بعد أن تضطهده وتطارده

* * *

جاءنا الرسل بشرائع جديدة ، رغب الناس عن تلك الشرائع وما لبثوا أن رغبوا فيها ، لأنها جاءت بخير واصلاح

ولقد جاء دوماس بقصة تبعث تلاوتها فى النفس رحمة بالبغى ، ولم تكن الناس تنظر للبغايا الا بعين المقت والغضب ، فجبهم برأى لم يخفضوا له جناحا ، ولكن خلدت تلك القصة وأقبل الناس عليها لاعتمادها على رأى حق ، وهو وجوب أن تسمع أقوال تلك الضحايا قبل أن يقضى عليها

عزز الكاتب قصته بقضية عادلة ، وأمد الله قلمه بسر من الأسرار التى تصل الى النفوس من وراء تعابير من السحر ، وألفاظ من البلور ، لا تحجب العواطف ،

فتهل انفعالات الكاتب الى فؤاد القارىء فيعيش فى جو من الشعر ، وعالم من النور

تجددت أساليب الكتابة ، وتعددت سبل البحث فى المظاهر العمرانية ، وتدُووِلت فى الاجيال من بعد الاسكندر دوماس قصص وروايات ، ولكن قصة غادة الكميليا تخلد كما تخلد نفائس الكتب ، ذلك لأنها حسرات تخلص يتحرق فؤاده عطفاً وأسفاً على خطيئة البغاء

* * *

ربما يدور بخلد القارىء أن يسأل نفسه عن فائدة تلك القصة التى ألفها المؤلف العبقرى ، وسهر الليالى الطوال فى تأليفها ، وعربها المعرب النابغ ، وسهر الليالى الطوال فى تعريبها :

العبرة عظيمة والحكمة بالغة

فان أحاديث البؤس والشقاء ، وأقاصيص الظلم والجور ، وأنباء الوله والهوى وأخبار الشهوات القاتلة ، كلها تذكرنا أن الانسانية الدائبة فى سبيل الكمال ، ما فتئت بعيدة عن غايتها من الكمال ، وكأن فى تلك الأنباء دعوة الى أصحاب العزائم والعقول والقلوب لاقالة الانسانية من عثراتها واعانتها على مقصدها النبيل ، وما أولى قصة البغى البائسة ، أن تفعم قلوبنا أسفاً ورحمة

* * *

السعادة عمل الفكر الانسانى ، وغاية كل انسان ، والمال اتخذه المجتمع البشرى وسيلة للسعادة ، فمن أجله سرق اللص ، ومن أجله ضُيع الشرف ، ومن أجله امتُهنت الاخلاق ، ومن أجله انتهكت الاعراض ، والعرض أعز شىء يقتنى ، فهل يحق للذى يعبد المال أن ينعم بعذاب من زل من أجل المال ؟

من البغى ؟ أليست هى تلك التى قد تفر من ألم الجوع فتبيع عرضها ؟ أليست هى التى غرها الغرور فاستزلها بمال ظنت أنها تسعد به وتهنأ ؟ أليست هى تلك

التى تعرض فى سوق المجتمع الفاسد سلعة فتشرى فى سوق هـذا المجتمع ؟ إنك لا تلوم الجماعة التى خلقت الفقر بنظمها القاسية ، ولكنك تلوم من يفر من هـذا الفقر ! انك لا تلوم الجماعة التى تصبت للمال انصاباً ، واستعبدت به قلوباً ورقاباً ، وتلوم من يريد هذا المال ! إنك لا تلوم من يشترى ذلك العرض المعروض وتلوم الذى يبيعه ، ألا ما أقساك وما أظلمك !

* * *

يجعل البغاء من النساء أشباه العقرب الثائرة يهيجها الألم فتلسع من تمسه وقد يجعل منهن من تسلب حياة الرذيلة رشادها فيكسحها تيار جارف من الهوى والغى ، فلا تجد مناصاً ولا تطيق خلاصاً ، ومنهن من يطهر فؤادها الالم فيمحو كل ما فيه من شر ، ويثبت كل ما فيه من خير ، وتلك شبيهة بالراهبة ، كلتاهما يصل الى الله ، انما تصل اليه الاولى من طريق وعرة قادها اليها الشيطان ، وتصل اليه الاخرى من طريق معبدة هداها اليها الرحمن ، وكلتاهما حقيق بالاكرام . وقد كانت مرجريت بطلة هذه الرواية رمزاً للتضحية فى سبيل الخير ، ونموذجا للوفاء فى الحب الأليم القاسى ، ومثلا لتقدير نعيم الحب السعيد ، ومثالا لشرف النفس وطهر الفؤاد ، وما الأنسان الا فؤاده

* * *

التاجر امرؤ يبادل بضاعته بمال ، والبغى تاجرة تبادل عرضاً بمال ، فما أشبه الحالتين ، ولكن ما أبعد أثر صناعتيهما فى النفس . التاجر يخادع ويساوم ويبسم ويمكر حتى اذا وجد الصفقة رابحة باعك البيعة وقبض الثمن ، والربح يملأ نفسه فرحاً . والمومس تخادع وتساوم وتبتسم وتمكر حتى اذا تسلمت الثمن وسلمت ما تبيع فهناك الحسرة اللاذعة والندامة الواقعة والفزع الأليم لأنها تبيع بالمال سلعة لا ثمن لها . فاذا رأيت البغى تمر بك فارفق بها وغض الطرف حياء وخجلا ، ولتمتلىء رأسك بالدماء من الرحمة والغيظ ، فأما الرحمة فلضحية من ضحايا البشر ، وأما الغيظ فمن تلك النظم الفاسدة التى تجعل من المال ربا ، وتقيم أسواقا تباع فيها الأعراض وتشرى

الفصل الأول

أرى أن المرء لا يستطيع أن يبتدع أشخاصاً لقصة خيالية حتى يكون قد خبرَ الناس والحياة خبراً طويلا ، كما أنه لا يقدر أن يجيد الكلام بلغة ما حتى يكون قد مارسها مراساً طويلا

ولما لم أكن فى السن التى تؤهلنى للابتداع فسأكتفى بأن أكون راوياً ، وانى ألتمس من القارئ أن يؤمن بصدق ما أروى عن أشخاص لا يزالون جميعاً على قيد الحياة سوى « البطلة »

وعندى لمن لا يطمئن الى قولى شهود عدةٌ فى باريس على أكثر الحوادث التى أنا ذاكرها فى هذا الكتاب . وما كان لامرئ لم يحظ بمثل موقفى لدى هذه الحوادث ولم يعرض له عارض خاص كالذى عرض لى أن يجمع ما جمعت منها . فاننى وحدى علمت سر تفصيلاتها الاخيرة التى ما كانت لتتم قصة شائقة إلا بها . واليك كيف بلغتنى :

قرأت فى الثانى عشر من مارس عام سنة ١٨٤٧ فى شارع « لافيت »(١) اعلاناً أصفر كبيراً عن بيع أثاث وطُرَف ثمينة شيقة تُوُفى عنها صاحبها . ولم يكن بالاعلان اسم الفقيد . وانما كان فيه أن البيع سيقع فى شارع « أنتين » فى المنزل رقم ٩ فى السادس عشر من الشهر نفسه من الظهر الى الساعة الخامسة بعده

وذكر الاعلان فوق ذلك أن من شاء زار الشقة التى بها الاثاث

(١) شارع بباريس

ليستعرضه ، وذلك فى اليومين الثالث عشر والرابع عشر من الشهر نفسه

وقد كنت شغوفاً باستعراض طرف الاثاث فعزمت أن أغنم إحدى الفرصتين ، فرصة الرؤية ان لم تكن فرصة الشراء

وفى غد ذلك اليوم ذهبت الى ذلك المنزل وكان الوقت باكراً ومع هذا وجدت زائرين وزائرات تظهر عليهن دلائل النعمى يرتدين المخامل وملاحف الكشمير الغالية ، ولهن عربات فاخرة كانت تنتظرهن لدى الباب ، إلا أنهن مع هذه السعة كن ينظرن بعين ملؤها الدهش والاعجاب لما يُعرض للبيع من أداة رفاهية بالغة

لم أدر سر هـذا الدهش حتى فحصت من المعروض ما فحصن ، فتبينتُ سريعاً أنى فى دار خطيئة ، فى دار امرأة من اللأى يتكفل بنفقتهن وحمايتهن رجل أو عدة رجال ليسوا بالأزواج ولا الآباء ولا الاخوة

لا شىء يشغل المرأة المُحْصَنَة من الكبراء — وهؤلاء كن منهم — كرؤية دخائل أولئك النسوة اللاتى يزْحمنهن كل يوم فى الطرقات بعرباتهن ، ويتخذن ألواجاً مثلهن فى المسارح لصقهن ، ولا يتحرجن أن يبرزن على أعين الملأ فى باريس يعرضن وافر جمالهن وباهر حليهن ومخزيات فضائحهن

ماتت ربة الدار التى نحن بها فأصبحت أكثر الغانيات حصانة لا تحجم عن الدخول حتى الى غرفة نومها ، فقد طهر الموت من تلك الدار دار الفجور الفاخر جواً ظل ردحاً من الزمن وبيئاً . على أن العذر عن زيارتهن هذه الدار ميسور لهن لو أردنه ، فهن انما أتين لبيع عام فى دار

(١) العفيفة والمتزوجة من النساء

لم يعلمن من ربها . انهن قرأن اعلانات عن بيع أشياء فأردن الفرجة والخيار قبل الشراء ، وهل علة أيسر من هذه وأقرب الى التصديق ! الا أنها علة لم تمنعهن من اطالة البحث بين قطع الاثاث الطريف عسى أن يعثرن على بعض من حياة العهر التى لا شك سمعن عنها الغرائب . غير أنهن لسوء الطالع لم يعثرن على شيء فان الأثر قضى بفناء ربته ، وبالرغم من تشوفهن لم يرين سوى ما بقى للبيع بعد الوفاة ، وما رأين شيئاً مما حسبنه يزين العش قبل أن يفارقه طائره . على أن الدار كانت لا تزال بها أشياء كثيرة حقيقة بالشراء : أثاث من خشب الورد وزهريات سفرية[1] وصينية وتماثيل سكسونية ومخامل ودنتلات ، وقصارى القول أن كان فيها كل شيء

سرت فى الشقة خلف طائفة من نبيلات متشوفات تقدمنني فدخلن غرفة مكسوة حوائطها بالبسط الفارسية فأردت دخولها على أثرهن ، ولم أكد أخطو اليها حتى اندفعن خارجات منها مسرعات باسمات كأنهن خجلن من جديد ما استعرضن ، فلم يزدنى خروجهن على هذه الصورة الا شوقاً للدخول الى هذه الغرفة ، فوجدتها متزيناً[2] تام الأداة ينطق عن أقصى ما بلغت اليه المتوفاة من السرف

وجدت فى هذا المتزين منضدة مسندة الى الجدار عرضها ثلاث أقدام وطولها ست تضيء عليها كنوز « أوكوك وأديوت »[3] . مجموعة من أداة الزينة فاخرة . الف قطعة لا بد منها لمن تعاطى صناعة المتوفاة ،

---

(١) « سفر » ضاحية لباريس معروفة بصناعة الاوانى الصينية القيمة

(٢) الحجرة تزين المرأة فيها نفسها

(٣) اسماء متاجر معروفة

كلها من فضة أو ذهب . مجموعة لم تكن لتتم إلا على الزمن الطويل ، وما كان حب واحد ليضطلع بتكوينها

ولم أكن ممن يتأثرون من رؤية متزين عاهرة ، فسليت نفسى بفحص كل الاداة كبيرها والصغير كائنة ما كانت . فأخذت عينى عليها صور تيجان مختلفة (١) والحروف الأولى من عديد من أسماء متفرقة ، فقرأت فى كل من ذلك معنى للرذيلة ، وقلت فى نفسى ان الله رحمها اذ عجل بها فأماتها فى عزها وجمالها ولم يمهلها حتى يؤدى الزمن بها الى الغاية المنتظرة ، الى سن الشيخوخة ، تلك الموتة الأولى لعاهرة

أى والله لا شىء أفعل فى النفس من رؤية شيخوخة فى رذيلة ، لاسيما فى امرأة . شيخوخة لا توجب حرمة ، وتبعث رغبة . بل ما أشد تألم النفس اذ ترى ندامة لا تنقضى ، لا على سوء مسلك سلك فحسب ، بل على خطأ فى حساب ومال أنفق جزافاً بغير تقدير . عرفت عجوزاً من أهل الظرف لم يبق لها من ذكر ماضيها سوى ابنة لهـا من الجمال كثير مما كان لأمها وهى صبية — كذلك قال من كان رآها . وكانت تلك الابنة «لويزة» لا تسمع أمها تقول لها : أنت ابنتى ، الا حين تريد أن تظهر عليها بالسلطان لتقوت بالمهر شيخوختها كما قاتت هى طفولتها . وأمرت الأم ابنتها أن تسير على خطاها فلم يكن للمسكينة الصغيرة الا الطاعة . فاندفعت دون أن تنبس ببنت شفة ، دون أية رغبة ، دون ارادة ما ، وعالجت تلك الصناعة كما تعالج أية صناعة أخرى لو أنهم علموها اياها . ثم اعتادت مظهر الرذيلة التى درجت فيهـا على سذاجة وصغر ،

---

(١) شارات الأشراف لكل شارة تميزه

وكانت سقيمة الحال ، فتعاون السقم وحالة السوء فأماتا فيها حساً تميز به الخير من الشر لا شك أنْ وهبها الله اياه يوماً ما فلم يجد من يتعهده بالنماء فاضمحل

لن أنسى هذه الابنة تمر كل يوم فى الطرقات العامرة فى ساعة لا تختلف ، تصحبها أمها بلا انقطاع صُحبة الأم الصادقة ابنتهـا الصادقة . لقد كنت حدَثاً عندئذ سهل التقبل لما كان فى خلق العصر من تسامح ولين ، ومع هذا لم أستطع إلاّ أن أنبو بذوق عن هذه الدعارة الأليمة وأن أحتقر تلك الأمومة الكاذبة

وارحمتاه لها من فتاة لم يبد قط على وجه عذراء من الطهارة والكآبة والالم ما كان يبدو على محياها ! ألا لو تجسّد تسليم العاجز وتوكل المتوكل ما كان إلا إياها

أشرق وجه هذه الفتاة بالفرح يوماً ، وذلك أن الخاطئة استبانت — وقد ضاق بها الخناق وشد عليها البؤس تحت قيادة امها — أن الله بعث اليها بعزاء ، وكيف يدعها جل شأنه ترزح تحت أعباء حياة كلها شقاء ، وهو هو الذى حرمها العُدّة والقوة . وجدت الابنة أنهـا حملت فتحرك فيها ما لم ينطفئ بعد من عواطف الأمومة فجرت الى أمهـا تُهدى اليها بشرى تسرها — حكاية مخجلة ، ولكنا لا نحكى الرذائل لنسر القارئ وانما لنروى حادث صدق ما كان أولانا بكتمانه لولم نر وجوب رفع الستار عن حقيقة هذه الضحايا التى تقضى عليها دون أن نسمع منهـا قولا ، ونوسعها ازدراء قبل أن نحكم لها أو عليها

فما كان جواب أمها ؟ قالت لها انه ليس لديهما ما يسد رمق اثنين ،

فكيف بثالث ، وانه لا فائدة من وراء طفل ولا عائدة ، وأن الحمل وقت ضائع . وفى غد ذلك اليوم الذى أحست « لويزة » فيه بالحمل بعثت أمها العجوز اليها بقابلة من صواحبها فأجهضتها ، فلزمت المسكينة عقب الاجهاض فراشها أياماً ، وقامت عنه أشد اصفراراً وأضعف بنية . وبعد ثلاثة أشهر بعثت العناية اليها من رَحِمها فتكفل بشفاء جسمها وتطهير روحها . ولكن الضربة الأخيرة كانت قاضية فماتت الفتاة على أثرها

أما الأم فلا تزال على قيد الحياة . ومن أين رزقها ؟ لا يعلم الا الله

استرجعتْ ذكراى هـذا الحادث بينما كنت أنعم النظر وأجيل الفكر فى أدوات التزين الفضية وكأنى استغرقت فى ذلك طويلا ، فانى انتبهت فلم أجد فى الغرفة سواى وسوى حارس قائم على الباب يلاحظنى حتى لا أسرق شيئاً . فقلت له

— أتتكرم بأن تخبرنى مَن ساكن هذه الدار ؟

— هى الآنسة مرجريت جوتيه

وكنت أعرف هذه الفتاة اسماً ومرأى

— عجباً ! أماتت مرجريت جوتيه ؟

— نعم يا سيدى

— ومتى ؟

— منذ ثلاثة أسابيع على ما أعلم

— وما الداعى الى زيارة الناس لدارها هكذا ؟

— يرى الدائنون أن زيارة القوم تزيد فى تقديرهم ثمن الأثاث عند البيع فان قطعه مجموعةً تؤلف للعين منظراً أتم رونقاً وأغرى بالشراء

— فهل كانت مدينة ؟

— أثقلَ الدين

— وهل يقوم ثمن البيع بأدائه ؟

— ويزيد بعض شيء

— فمن يتقاضاه ؟

— أسرتها

— ألها أسرة

— نعم يقولون ذلك

— أشكرك

فأشار الحارس الىّ بالسلام لما تبيّن منى حُسن المقصد وتولى لشأنه وعدت الى دارى فحادثت نفسى :

— يا للشقية المسكينة ! لا شك أنها ماتت ميتة سوء محزنة فان المرأة فى مثل عالمها لا يعرفها صحبها الا سايمة متعافية .

لشد ما حزنت لما قُدّر لمرجريت جوتيه ! أقول ذلك وأعلم أن كثيراً من الناس يستسخفنى ، الا أنى أجد صدرى مفعماً عطفاً على أمثالها من البغايا وما اهتممت يوماً فباحثت نفسى سر ذلك

ذهبت يوماً أستحصل جواز سفر من ادارة الضبط فصادفت فى شارع قريب من هذه الناحية شُرطيين يقودان فتاة لم أدر ما جنت : وانما رأيتها تبكى بكاء مراً وهى تُقبّل طفلا لها ابن بضعة أشهر قضى القبض عليها بالتفرقة بينها وبينه ، فمن ذلك الحين تعلمت ألا أحتقر امرأة لأول وهلة أبداً

الفصل الثانى

كان موعد البيع فى السادس عشر من الشهر، لأنهم تركوا بين العرض والبيع يوماً يتمكن فيه النجادون من نزع الأسجاف ورفع البراقع وتجهيز بعض أمور واجبة أخرى

وصادف ذلك عودتى من رحلة الى باريس فلم أسمع وقد بلغتها بوفاة مرجريت . ولا عجب أن لم يؤد أحد من أصدقائى الىّ خبر وفاتها فيما يؤدى عادة من الأخبار الى من يؤوب الى سوقها الكبرى ، وما ذلك لأن مرجريت كان بها نقص فى جمال ، فقد كانت غاية فى الحسن ، ولكن لأن هؤلاء النسوة أمثالها على ما لهن من الذكر فى حياتهن لا يكاد يسمع أحد بموتهن، فهن كالشموس لا يحس شروقها أو غروبها، وانما الاحساس كل الاحساس بها وهى فى أوج سمائها تجذب البصر فيعشى بنورها ، حتى اذا اهتصرت المنون غصنهن فى الشباب رطيباً فوصل نعيهن فى ساعة واحدة الى آذان أخلائهن فلا يكون من وراء ذلك الا أن يتذاكروا طرفاً من أمورها ، ثم يأخذون فى سبيل حياتهم العادية لا تكدر صفاءها عليهم دمعة تبعثها ذكرى الفتاة التعسة

وفى هذا الزمان اذا بلغ المرء الخامسة والعشرين من عمره جمدت عواطفه وشحت بالدمع عينه فعز عليه انفاقه لكل سانحة ، حتى آباؤه وذو قرباه لا يصيبهم من مدمعه حظ عادل وان كانوا يورثونه لكل دمعة يرسلها عليهم ثمناً

هذا عن القوم . أما عن نفسى فانى وإن لم يكن اسمى على أية أداة من متزينها فقد حملنى ماجبلت عليه من تسامح ورحمة على التفكير فى موتها مدة طويلة ربما زادت على ما ينبغى أن يكون منى لمثلها

ذكرت انى لقيت مرجريت مرات كثيرة فى الشنزيليزيه وهو مُتَرَدَّدُها الذى لم تنقطع عنه يوماً ، كانت تأتيه فى مركبة زرقاء يجرها كُمَيْتان مطهمان ، وذكرت أنى كنت أستبين فيها عزة عزّتْ أن تكون لامرأة ممن على شاكلتها قد زانت منها جمالا يقصر عنه كل جمال

يصحب هؤلاء التعسات عند بروزهن نساء لا يعرفهن الناس ، يصحبهن خشية الوحدة ، وليكن وسائط بينهن وبين الراغبين فيهن ممن يحتشمون من الجهر أمام الملأ بما عندهم . وهؤلاء اما مثلهن ممن هن أقل حظاً فليس لديهن من عربة يركبنها ، أو من اللائى استرد الدهر منهن عاريته فلم يعد فيهن مظنّة منافسة فى جمال . والى هؤلاء يتقدم الرجال دون حرج يستفسرون عن كل دقيقة مهما كانت من شئون الحسناوات الصغيرات اللائى صحبن

أما مرجريت فلم تجر على هذه السنّة قط ، فقد كانت تأتى الى الشنزيليزيه وحدها فى عربتها ، ولم تكن تبدى فيها زينتها للناس سوى القليل من ذلك الذى لا سبيل الى اطراحه ، وكانت تبرز فى الشتاء فى ملحفة من الكشمير وفى الصيف فى أبسط لباس ، وكانت تلقى فى ذلك المتردَّد كثيراً ممن تعرف من الرجال ، الا أنها كانت اذا ألقت بابتسامة الى أحدهم لم تَعْدُه ابتسامتُها ، وكانت كابتسامة تُلقى بها أشرف

العقيلات [١] ولم تكن مرجريت تتردد بركبتها بين « روندبوان » [٢] ومدخل الشنزيليزيه كما يفعل أمثالها ، بل كان جواداها يحملانها عدواً الى «غابة بولونيا» [٣] حيث تنزل فتطوف على قدميها زُهاء ساعة ثم تركب فتعود الى منزلها بأسرع ما يطيق الاعجمان الفاخران

هكذا كانت تمر بي ذكرى تلك الفتاة وقد برعت براعة نادرة فى الجمال فآسف أسفى على تحطم قطعة لا تُبارَى من صنعة الفنون

كانت طويلة غاية فى النحافة ، الا أنها مهرت جد المهارة فى اخفاء ذلك بما أوتيت من الحذق فى تنسيق لباسها ، وكانت ملحفتها تضرب باطرافها الى الأرض وتكشف من جانبيها عن إطارٍ مِطرَّف من الحرير الغالى ، وكانت تسند يديها فى فروتها الى صدرها وتحوطهما بطيات من ثوبها ، فلا تأخذ العين الماهرة على قوامها مأخذا

ورأسها كان بدعة البدع ، بالغت فى تنسيقه ، وتدللت فى تأنيقه ، وكان بالغ الصغر فلو أن « دى موسيه » [٤] وصفه لقال ان أمها قصدت الى أن يكون صغيراً لتصنعه بدقة وعناية

واذا أردت نموذجا من هذا الرأس الفاتن الرشيق فارسم فى صحيفة خيالك شكلا بيضياً ذا ظرافة ولطافة لا أدرى كيف أعبر لك عنهما ،

---

(١) الابتسامة شارة التحية من النساء عند الافرنج كما أن رفع القبعة شارة التحية من الرجال (٢) ميدان فى نحو منتصف شارع الشانزيلزيه

(٣) غابة باريس الشهيرة وتبلغ مساحتها فوق الألفى فدان وهى متنزه للناس عامة

(٤) الفريد دى موسيه شاعر فرنسى معروف ولد بباريس عام ١٨١٠ ومات عام ١٨٥٧

وضع فيه عينين سوداوين يعلوهما قوسان من الحواجب كأنما عملت فيهما ريشة رسام ، وأثبت في الجفنين هدبين كبيرين يطولان عند ارخائهما فيلقيان بظلهما على ورد خدين ، وخط أنفاً دقيقاً مسحوباً ينم عن حدة بال وذكاء خاطر ، له فتحتان زادهما بعض السعة انفاس حارة يبعثها صدر تتقد فيه الشهوات وتضطرم الاهواء ، وخط تحت هذا الانف فما تفتر شفتاه قليلا عن أسنان بيضاء كاللبن ، ثم اكتسى هذا المحيا وبرة ملساء كتلك التي تكسو الخوخة الناضجة لم تدنسها بعد يد الانسان

أما شعرها فكان فاحماً أثيثاً متموجاً ، لا أدري أموجته الصناعة أم الطبيعة ، ينشق على جبينها شقين كبيرين يمتدان جزلين حتى يختفيا خلف رأسها وينجابان عن شحمتي أذنين صغيرتين بهما قرطان تبرق فيهما ماستان تقوم الواحدة بأربعة آلاف أو خمسة من الفرنكات

إني لأعجب كيف حفظ وجهها ملامح العذراء ، بل سذاجة الطفل ، مع حياتها المضطربة النارية ؟ تلك حقيقة اذكرها ولا استطيع تعليلها

وكانت لدى مرجريت صورة رائعة من نفسها من صنع «ڤيدال»(١) وهو الرسام الوحيد الذي كان لريشته دون غيرها أن تصور هذا المحيا البارع . وقد حبست هذه الصورة عندي بضعة أيام بعد موتها . ولتمام الشبه بينها وبين مرجريت كانت عوناً لذاكرتي على استرجاع ما كنت نسيت من أوصافها

إن من التفصيلات التي أذكرها في هذا الفصل ما وصلني علمه أخيراً ولكني ذاكره الآن لكيلا أعود اليه اذا أنا بدأت أقص قصة هذه الفتاة

(١) فنان فرنسي ولد في نيم عام سنة ١٨٣٢ ومات عام سنة ١٨٩٢

كانت مرجريت تقضى مساءها فى المسارح والمراقص وكان لا يفوتها حضورُ الليلة الأولى من كل جديد يعرضه المسرح من الروايات ، وكان لا بد لها فى كل غدوة وروحة من ثلاثة أشياء : منظار وكيس مُلبّس وطاقة من زهر الكمليا ، واعتاد الناس أن يروها بهذه الثلاثة جميعاً لكل جلسة تجلسها فى لوجها بالطبقة الأولى من المسرح . ومن أعاجيبها أنها كانت تحمل من هذا الزهر أبيضه خمسة وعشرين يوماً وأحمره خمسة أيام ولم يهتد أحدٌ الى تفسير ذلك ، فأنا أذكره دون تعليل كما كان يذكره أصدقاؤها ومن كانوا يترددون الى المسارح التى كثر تردد مرجريت اليها . ولم ير أحد مرجريت بزهر غير الكمليا ، فكان من ذلك أن لقبها بائع الزهور الذى كانت منه تشترى بغادة الكمليا فجرى اللقب عليها

وعلمت فوق ذلك أن مرجريت كانت خليلة أوسم شبان العصر وأكثرهم وجاهة ، وأنها كانت تجهر بذلك ، وأنهم كانوا يرون فيه مفخراً كبيراً مما دل على رضاء عاشق ومعشوق ، غير أنى سمعت أن مرجريت بعد عودتها من رحلة الى « بنيير »[1] منذ زهاء ثلاثة اعوام ما عايشت أحدا سوى دوق هرم بالغ الثراء حاول ما أطاق أن ينزع بها عن ماضى حياتها فظهر أنها أطاعته من ذات نفسها

واليك ما بلغنى فى هذا الصدد :

فى ربيع عام ١٨٤٢ ألحّ الضعف على مرجريت وتعلق بها الشحوب الضنى فوصف لها الأطباء مياه « بنيير » فذهبت اليها وكانت هناك

---

(١) بلدة فرنسية فى جبال البيرينيز الواقعة ما بين فرنسا والاندلس وتعلو ٨٤٦ مترا عن سطح البحر وهى مصح يرده الناس وبه منابع كبريتية

بين المرضى ابنةُ دوق هرم ، فتاة أشبهت مرجريت لا فى دائها فحسب بل فى ملامح وجهها كذلك ، فلم تأخذ العين منهما غير أختين لا فارق بينهما الا أن الدوقة الصغيرة كانت فى طور السل الأخير فلفظت روحها بعد قدوم مرجريت بأيام . ولزم الدوق بعد وفاتهـا البلدة لزوم المرء أرضاً دفن بها قطعة من قلبه . وفى صبيحة يوم أبصر الدوق مرجريت فى منعطف الطريق فخال أنه رأى طيف فقيدته من أمام عينيه ، فمشى اليهـا وأخذ بين يديه كلتى يديها وقبّل منها الجبين وعيناه تفيضان بالدمع الهامى ، وسألها دون أن يعلم من هى أن تأذن له فى زيارتها وفى أن يحب فيها طيف ابنته الراحلة

وكانت مرجريت فى « بنيير » وحيدة مع وصيفتها ولم تخش خطراً مما سألها الدوق فأذنت له فيه . وكان فى « بنيير » قوم يعرفونها فذهبوا الى الدوق يُخطرونه بأمرها ، فكان إخطارهم اياه ضربة قاسية عليه ، اذ هنا انقطع الشبه بين مرجريت وبين ابنته . غير ان تحذير القوم جاء وقد فات أوان التحذير ، فرجريت الشابة أصبحت ضرورة لازمة للقلب الشيخ لكى يخفق بالحيـاة ، هى وحدها أصبحت عون الهرِم على حمل أيام باقية ثقيلة

فلم يعتب عليها ، وما كان له أن يعتب ، وإنما سألها تغيير نمط حياتها اذا هى آنست من نفسها القدرة على ذلك وعوّضها عنه ما تتمنى . فأجابته الى ما طلب

لابد هنا أن نذكر أن مرجريت كانت عندئذ مريضة ، وكانت حادة المزاج بطبعها ، فتراءى لها ماضيها انه سبب دائها فتفاءلت وخالت

ان الله يحفظ عليها صحتها وجمالها اذا هى أنابت اليه . وفى الحق ان الاستجمام والرياضة والحركة الجثمانية والنوم الهادىء كل ذلك تعاون على شفائها فتم أو كاد فى أواخر الصيف

فصحبها الدوق الى باريس حيث واصل زيارتها كما كان يفعل بـ « بنيير » فكثر اللغط فى باريس فى شأن العلاقة التى بين الدوق ومرجريت ، ولم يفهم أحد كنهها ولا حقيقة الدافع اليها . وزاد فى لغط القوم ما شاع من سرف الدوق عندئذ وهو المعروف من قبل بغناه الواسع ، وتحدثوا عنه أنه شيخ غنىٌّ فَسَق وفجر جرياً على عادة أمثاله من شيوخ الأغنياء

رجّم الناس فوقعوا على كل أمر غير الحق . والحقَّ أقول أن عاطفة الشيخ لمرجريت كانت من القداسة والطهارة بحيث أنه لو سمع ما رجّم الناس فيها لاقشعر جزعا من سوء ما رجموا ، ولوقع عنده ما توهموه عنه وهو الوالد الكبير موقع فاحشة فى ابنة له صغيرة تأباها الطبيعة قبل أن تأباها الشريعة . هذا والشيخ لم يفُهْ قط بكلمة لمرجريت كان يتحرج أن يقولها لابنته الفقيدة

لا يظن القارىء أنى أريد أن أنسب الى بطلة روايتى أمراً لم يكن لها ، أو أن أقدرها فوق قدرها ، فانى أبعد ما أكون من ذلك . لذا أسرع فأقول إن مرجريت حفظت عهد الدوق عهد الانابة والتوبة مدة اقامتها فى « بنيير » فى ذلك الجو الهادىء أيام اهونُ شىء عليها حِفْظُه . ولكنها لم تعد الى باريس حتى بدأ يتراءى لها ، وهى التى اعتادت طروق المسارح والمراقص والقِيادَ لأهوائها أعواماً ، أن السأم

لا بد قاتلها اذا هي قنعت في وحدتها واعتكافها بزيارات الدوق لها . ثم أخذت أنفاس حارة قديمة تملأ صدرها حينًا بعد حين فتهيج في فؤادها عواطف تنزع بها الى رغائب . أضف الى هذا أن مرجريت عادت من مترو ضها أزهى مما كانت ، وأنها لم تكن بعد قد عدت سن العشرين ، وأن داءها لم يكن استؤصل منها وانما هدأ ولم يزل يحرك فيها مطالب فاحشة يفزع الى مثلها المحموم في نوبته وكل ذي آفة في صدره إذ يتوهم فيها التفريج عن نفسه

فحدث أن نزل ذات يوم بالدوق أمر فدحه ، فأجمع أصدقاؤه أمرهم فأتوه وقد كانوا يتربصون بمرجريت حتى يوقعوا بها ، فأخبروه وأعدوا البيّنة أنها تستقبل زائرين في ساعات تستيقن فيهـا من غيابه ، وأن بعض هؤلاء قد يقيم عندها حتى الصباح

وما سأل الدوق مرجريت في ذلك حتى صدقته الأمر كله ونصحت له بلهجة خالصة أن يتناساها فانها لم تعد تطيق حياة العزلة والضجر التي عاهدته عليها ، وأنها لن تتقبل بعدئذ عوارف رجل بارٍّ ترى أنها تكذبه . فتولى عنها الدوق ، ولكنه لم يطق مغاضبتها غير اسبوع واحد ، وفي اليوم الثامن أتى يسألها أن تتقبله مرة أخرى راضيًا بما رضيته لنفسها ما ظل يراها ، وحلف ألا يلومها في أمر ولو كان قاتله

على هذا كانت الحال بعد ثلاثة أشهر من عودة مرجريت من « بنيير » أي في نوفمبر من عام ١٨٤٢

الفصل الثالث

فى الساعة الأولى بعد ظهر اليوم السادس عشر ذهبت الى شارع «داتين» وكان صوت الدلال يقرع الأذن على بعد، والمنزل غاصا بالمتشوفين وضائقاً بربات البغاء ونابهات الرذيلة، يتوسمهن خفية بعضُ العقائل اللاتى اتخذن من البيع ذريعة ليرين اولئك عن كثب، فقد لا يتسنى لهن الوجود معهن فى غير هذا المكان، وربما كن يشتهين سرا هذا السرور الهين

فالدوقة ف . . . كانت تلامس بمرفقها الآنسة أ . . وهى انموذج محزن من بغايا نانا، والمركيزة ت . . . كانت تتردد فى ابتياع قطعة من الأثاث تزايدها عليها السيدة د . . آنق بغايا المصر وأشهرهن . والدوق ى . . . ذلك الذى يظنه أهل باريس قد أفلس فى مدريد، ويظنه أهل مدريد قد أفلس فى باريس، وهو مع ذلك لا تستغرق نفقاته كل دخله، كان يتحدث الى السيدة م . . . تلك الكاتبة الفكهة اللبقة بينما يتسرق النظرات الى السيدة ن . . . احدى غوانى الشنزيليزيه . ثم الآنسة ر . . . التى أصابت بتبريزها فى البغاء ضعفى ما أصابه كبريات السيدات بمهورهن وثلاثة أضعاف ما أحرزه الأخريات بعشقهن، جاءت على مرغمة البرد تساهم فى الشراء، وليست من اللواتى يزهد البصر فى النظر اليهن

نستطيع أن نسرد مبادىء كثيرة من أسماء هذا الجمع المحتشد فى البهو لولا إشفاقنا على القارىء أن يمل . وبحسبنا أن نقول أن هذا الجمع كان فى سرور وجذل، وأن فيمن حضر من السيدات كثيرات كن يعرفن المتوفاة ولكن لا يلوح لذكراها أثر فى نفوسهن

أغرب القوم في الضحك ، وأجهر الدلالون في النداء ، وحاول التجار الذين تبوأوا المقاعد الدنيا الى مناضد البيع أن يُخفتوا هذه الضوضاء حتى ينجزوا أعمالهم آمنين مطمئنين فلم يفلحوا ، لأن هذا الجمع كان أشد ما رأيت تنوعاً وجلبه

تسربت الى بُهرة هذا الضجيج المحزن في أدب وحشمة ، وقد آلم نفسي وأحزنها أن هذا الصخب كان على مقربة من الحجرة التي فاضت فيها روح هذه البائسة ، وقد أقبل غرماؤها يبيعون أثاثها ورياشها اقتضاء لديونها

كان أكثرهم في الاستطلاع لا في الابتياع ، فكنت أرى وجوه البائعين تُشرق ، وأساريرهم تبرق كلما وصلت قطعة الى قيمة ما كانوا يؤملونها

ما أشرف هؤلاء القوم الذين ضاربوا في بغاء هذه المرأة حتى ربحت مائتهم مائة أخرى ، وطاردوها بالأوراق المختومة الى باب القبر ، وأقبلوا بعد موتها يجنون ثمار حسابهم الشريف ويجبون أرباح نسيئتهم المخجلة !

لشد ما أصاب القدماء اذ جعلوا للتجار واللصوص الها واحداً !

بيعت المطارف والملاحف والحلى بسرعة خارقة وما راقني من كل ذلك شيء ، على أني ما برحت منتظرا ، فوقع في أذني فجأة صوت الدلال يقول :

— كتاب متقن التجليد مذهب الأطراف عنوانه «مانون ليسكو»(١)

(١) هي أشهر قصص الكاتب الفرنسي القس بريڤوست (١٦٩٧ — ١٧٦٣) وهي تشبه القصة الحاضرة فانون ليسكو تشبه مرجريت جوتيه غوت ثم أثامت ونفيت من فرنسا الى أمريكا حيث قضت نحبها في صحراء هناك

وعلى الصفحة الأولى منه كلمات مخطوطة . نبدأ بعشرة فرنكات !

فسمعنا بعد سكوت طويل صائتا يقول

— اثنا عشر . فقلت

— خمسة عشر

لماذا قلتُ هذا ولا أعلم عن الكتاب شيئاً ؟ لا ريب أن ذلك لتلك « الكلمات المخطوطة »

ردّد الدلال قولي وقفّى على أثره المزايد الاول قائلا :

— ثلاثون !

لفظها بصوت يَهيج السامع الى المقاواة ويجعل المزايدة أشبه بالمجالدة فأجبته بلهجته

— خمسة وثلاثون

— أربعون

— خمسون

— ستون

— مائة

أعترفُ أني لو كنت قصدت التأثير في الحضور لنجحت ، فقد خشعت الأصوات لهذه الزيادة ، وأقبل الناس يطّلعون طِلْع الرجل الذي يُصرّ على اقتناء هذا الكتاب

أما خَصمي فقد استبان من لهجتي الاخيرة الاصرار والعناد ، فآثر أن ينسل من معركة لا يصيب منها الا اقتوائي الكتاب بعشرة أضعاف ثمنه وانحنى الى قائلا بظرافة لم تأت في حينها

— لقد تخليت أيها السيد

وأمسك الحاضرون فاقتويت الكتاب . ثم قيّدت اسمي وخرجت
نشية أن يحدث عناد جديد ربما أجد من إبائي دافعاً اليه ، ولا أجد من
كيسي مساعداً عليه

لا جرَم أن الذين شهدوا هذا الحادث أخذتهم الدهشة وتساءلوا
ا حداني الى دفع مائة فرنك في كتاب أجده في كل مكان بعشرة
رنكات أو خمسة عشر على الاكثر

وجيء بالكتاب الي بعد ساعة ففتحته فاذا كلمات مسطورة بخط
نيق على صفحته الأولى هي اهداء الكتاب ولا تزيد على ما يأتي :

تتقدم مانون الى مرجريت

بالخضوع

وقد وُقع عليها بهذا التوقيع : أرمان دوفال

ما الذي تفيده كلمة «الخضوع» هنا ؟ وأي سمو كانت تعتقده مانون
ـ مرجريت على رأى السيد أرمان ؟ أسمو في الرذيلة أم سمو في الاخلاص
لنادر والتضحية البالغة ؟ أن التفسير الثاني أوجه لان الأول ليس الا
سراحة بذيئة تترفع مرجريت عن قبولها بالرغم من سوء رأيها في نفسها

علت ثم خرجت ولم أفرغ لهذا الكتاب إلا مساء حينما أويت الى
ضجعي

ان « مانون ليسكو » قصة تملأ القلوب رحمة وحناناً . وقد أحطت

بتفصيلها علماً ، على أن يدى لا تقع عليها حتى يجذبنى الميل اليها فأفتحها وهأنذا أعيش بقراءتها للمرة المائة مع « بطلة » القس بريفوست . ان حوادث هذه المرأة أشبه ما تكون بالحقائق الواقعة حتى ليخيل الىّ أنى عرفتها فى الحياة . وقد تركتنى الموازنة بينها و بين مرجريت فى هذه الظروف الجديدة أكثر شغفاً بقراءة تلك القصة . وانقلبت مسامحتى لهذه الفتاة التى ابتعث من تراثها هذا الكتاب الى رأفة بها وحب لها . أسلمت الروح « مانون » فى جوف صحراء قاحلة ولكنها قضت بين ذراعى حبيبها المعمود يزوّدها بقبلاته ، ويعزّيها بكاياته ، وهو الذى خط جدثها وروّاه بمدمعه وأودع فيه قلبه مع جسمها . ولكن مرجريت ، وقد غويت غوايتها ، ولعلها أنابت إنابتها ، لفظت نفسها فى نعيم الحياة وزهو الترف ، اذا صدق الفؤاد ما رأى ، ولكن على سرير ماضيها ، فى صحراء القلب الجديبة ، وهى أشد إمحالا وأكثر أهوالا وأبعد أطرافاً من تلك التى ضمت عظام « مانون »

ألقى إلىّ صديق من الواقفين على حياة مرجريت الاخيرة أنها لم تسمع كلمة عزاء خالصة وهى على فراش المرض شهرين كاملين تعالج سكرات الموت فى ألم و بطء

انتقل فكرى من مرجريت ومانون الى أمثالهما ممن كنت أعرفهن وأراهن يسعين شاديات فى طريق واحد الى موت واحد لا يكاد يختلف

وابؤس هؤلاء المخلوقات ! اذا كان من الخطأ أن نحبهن أفلا يكون من الصواب أن نرحمهن ؟ انكم ترحمون الاعمى لانه لا يمتع بصره بأشعة الشمس ، وترثون للاصم لانه لا يشنف سمعه بنغمات الطبيعة ،

تعطفون على الابكم لأنه يعجز عن ترجيع أصوات النفس ، فما بالكم تخذتم من العفاف حجة باطلة لاستخفافكم بعمى القلب وصمم النفس بكم الضمير وقد ذهبت بعقول البائسات المعذبات فجعلتهن على رغمهن ير جديرات بأن يبصرن الخير ويسمعن الله وينطقن بلسان الايمان الحب ؟

أظهر الشعراء والمفكرون حدبهم على البغايا ، وقدموا اليهن قرابين لحنان والرحمة ، فكتب هوجو « ماريون دى لورم » وموسيه « برندت » اسكندر دوماس « فرناند » ولم يعدمن أحياناً من يقوم من العظماء برأب صدعهن ، ويسترد شرفهن بحبه وباسمه (١)

انى اذا لج قلمى فى تقرير هذه الفكرة فذلك لان كثيراً من الذين سيقرأون هذه الرواية سينبذونها وراءهم ظهرياً خشية أن يجدوا بها إطراء لرذيلة وإغواء بالفجور ، ويتخذون من شباب الكاتب مبرراً لهذا لخوف. ليكشف هؤلاء المخدوعون عن بصائرهم ويواصلوا القراءة اذا كان هذا الخوف وحده هو الذى يحبسهم عنها

أنا جد مقتنع بالمبدأ القائل : ان الله مهد للمرأة اذا لم تثقفها التربية طريقين يوصلانها الى الخير : طريق الالم وطريق الحب . وهما طريقان عران يدميان قدميها ، ويمزقان يديها ، ولكنها تدع فى سيرها على عوسج الطريق زينة الرذيلة ، وتقدم الى الله عارية لا تخجل أمامه

فيجب على الذين يقابلون هؤلاء السائحات الجريئات أن يأخذوا بضبعهن ، ويشدوا أزرهن ، ويعلنوا الى الملأ أنهم قابلوهن، فان اعلان

---

(١) أى بتزوجهن

هذا الشقاء إبانةً للطريق السويّ ودلالة عليها

لا ينبغي أن نَنْصب على مدخل الحياة لوحتين نكتب في الاولى « طريق الخير » وفي الثانية « طريق الشر » ثم نقول لمن يتقدم اليهما : تخيّرْ ، ثم نكتفي بهذا ، بل الواجب أن نفعل فوق هذا ما فعل المسيح : نرشد الضالين الى طرائق سهلة البداية قريبة الغاية تَحيد بهم عن الثانية وتؤديهم الى الأولى .

كان المسيح فائض القلب بالمودة والحب لتلك النفوس الكسيرة التي عبثت بها أهواء الانسان . وكان يؤْثر أن يَطبّ لجروحها بالمرهم الناجع الذي يخرجه من الجروح نفسها . وهو الذي قال لمادلين (١) . « أغفر لك كثيراً لأنك أحببت كثيراً » . مغفرة سامية تبعث في النفوس ايماناً سامياً !

لا أدري لِمَ نكون أقسى من المسيح ؟ ولِمَ نتشبث بآراء الناس في هذه الأوزار — وهي ظالمة قاسية — فننبذ وايامَ تلك القلوب الدامية التي تنزف خبائث الماضي كما ينزف الجُرح بجيمه الفاسد ، ولا ترجو إلا يد محب تضمّد جروحها وتتكفل لها البرء والشفاء

انما أسوق الحديث الى معاصريّ الذين زالت من بينهم والحمد لله نظريات ڤلتير (٢) ويعلمون كما أعلم أن الانسانية منذ خمس عشرة سنة في نهضة من نهضاتها العظمى . لقد حصّل علم الخير والشر ، و بنيت قواعد

(١) هي القديسة ماري مادلين وكانت خاطئة ضالة فردها المسيح الى الهداية

(٢) هو الشاعر الكاتب الفرنسي المعروف ولد عام ١٦٩٤ ومات عام ١٧٧٨ كان كبير الأثر في حياة فرنسا الأدبية والاجتماعية وكان نقداً سليطاً كثير السخرية لم يبال أن ينقد الدين القائم والرب المعبود

لايمان من جديد ، وعاد الى قلوبنا إعظام الاشياء المقدسة ، واذا لم يكن العالم خيراً كله فقد يتدرج فى طريق الخير شيئاً فشيئاً . أن جهود ذوى الألباب مُوفية الى قصد واحد ، وأرباب الارادة القوية يعملون لمبدأ واحد : ذلك أن نكون أخياراً أبراراً مخلصين ، وان نطهر قلوبنا من علَق الشر وخُيلائه ، ونعمرها بعزة الخير وكبريائه ، وألا نجعل للقنوط اليها سبيلا . لا ينبغى أن تزدرى عيوننا المرأة اذا لم تكن أماً ولا أختاً ولا بنتاً ولا زوجة ، فان من الجور أن نقصر التوقير على أسرتنا ، وأن لا نتسامح ونصفح الا على أنفسنا . واذا كان الله يسرُّ بواحد من العصاة المتيبين أكثر مما يسرُّ بمائة من الطائعين الأوّابين فلِمَ لا نزيد فى سرور الله وهو قادر على أن يرده الينا أضعافا مضاعفة ؟ ان العفو عن الجانى صدقة . فلنتصدق على أولئك الذين أكبتهم شهواتهم على وجوههم ، وسينتاشهم رجاؤهم فى الله من سوء ما هم فيه . ونقول كما تقول البارّات من عجائز الحى اذا وصفت دواءً من تلقاء أنفسهن : اذا لم ينفع فانه لن يضر

ان من الجرأة أن أُقدم على استنباط هذه النتائج العظمى من موضوع ضئيل كهذا . ولكنى من الألى يعتقدون أن الكثير فى القليل ، فالطفل الصغير يتضمن الرجل الكبير ، والمخ على ضيقه يحوى الفكر على سعته ، والعين تُحدق بالأمكنة القاصية وهى أضيق من سَمّ الخياط

الفصل الرابع

بلغ البيع تمامه بعد يومين ، وكانت قيم البياعات خمسين ومائة ألف فرنك ، ذهب الغرماء بثلثيها ، وذهب الثلث الأخير ميراثاً لاختها وطفل لهذه الأخت

بُهتت هذه الفتاة الوارثة وبرق بصرها من الدهش حينما أنبأها أولو الأمر بوراثتها خمسين ألف فرنك ، فقد استخفت أختها منذ ست سنين أو سبع وانقطع علمُ ما بينهما فلم يعلم أحد لها مفراً ولا مقراً

أقبلت الى باريس لا تلوى على شيء ، فلما أبصرها معارف مرجريت عجبوا أن تكون وارثتها الوحيدة هذه القروية الغليظة الحسناء التى لم تغادر القرية قبل هذه المرة

وضعت يدها على ثروة فجأتها على يأس دون أن تعرف لها مصدراً ، وعادت الى الريف وتلهى من الوجد على فقد أختها ، فلم ينفس عنها إلا قرض أقرضته أفادها فى كل مائة أربعة ونصفاً

وأخذ النسيان يعفى على هذه الحوادث الذائعة فى باريس أم الفضائح ، وكدت أنا نفسى أنسى الاسباب التى شركتنى فيها لولا حادث جديد كشف لى عن حياة مرجريت كلها وأفضى الىّ بجملتها المؤثرة ، فقام فى نفسى أن أكتب هذه القصة وهأنذا أكتبها

لما صفر منزل الفتاة من المتاع عُرض للاستئجار ، ولم يكد يمضى على ذلك ثلاثة أيام حتى قرع بابى قارعٌ مبكر . فذهب الخادم ففتح

ماب ثم حمل الى بطاقة وهو يقول ان صاحبها يريد أن يلقانى ، فألقيت
لى البطاقة نظرة فاذا مكتوب فيها هاتان الكلمتان :

ارمان دوفال

قطفقت أبحث عن عهدى بهذا الاسم فتذكرت الصفحة الاولى
ن كتاب « مانون ليسكو » . فأمرت الخادم أن يُدخل القادم ، وقلت
، نفسى ماذا عسى أن يريد منى ذلك الرجل الذى قدّم الى مرجريت ذلك
كتاب ، وما هى الا رجْعة الطرف حتى دخل علىّ شاب أشقر الشعر
متقع اللون عظيم البَسطة ، على جسمه حُلة لم تفارقه اياما ، وقد غشتها
بقة من الغبار لم يكلف نفسه عناء حسها لدى وصوله باريس

ثم أخذ السيد دوفال يقول وهو مضطرب القلب مغرورق العين
تهدج الصوت :

— معذرة أيها السيد لزيارتى اياك فى هذا اللباس ، فانما يعنى الى
ك علمى أن الشباب لا كلفة بينهم ، وحرصى على أن القاك قبل أن
سير الى الفندق الذى بعثتُ بحقائبى اليه خشية ألا أصيبك حاضراً ،
رأن الوقت لا يزال باكراً

فرجوت السيد دوفال أن يدنو من النار فيصطليها . فدنا ساتراً
جهه بمنديله اذ لم يستطع لمدمعه حبساً . ثم تنفس الصُّعَداء وقال

— لا داعى الى أن تعلم ما يقصد اليه هذا المجهول الذى زارك فى
ت ضيق وهيئة زرية وعبرة ما يكاد يُمسكها . انما جئتك التمس منك
، تصطنع الىّ معروفاً فحسب

— قل سيدى فانى طوع يدك وعند أمرك

— هل كنت فيمن شهد بيع أثاث مرجريت جوتيه ؟

ولم يكد يلفظ هذه الجملة حتى رهقه من الجزع ما عيل به صبره ، وضاق عنه طوقه ، فاستكان للعبرة واضطر الى أن يستر عينيه بكلتا يديه ثم قال :

— ان حالى بين يديك تدعو الى الهزؤ والضحك فأعتذر اليك عن هذا أيضاً . وثق أنى ما حييت لن أنسى لك هذا الصبر على الرغبة فى الاستماع الىّ . فقلت له

— أيها السيد ، اذا كانت الصنيعة التى حسبتنى قادراً على اصطناعها عندك تخفف من لوعتك ، وتكفكف من عبرتك ، فاذكرها سريعاً . وستجد منى رجلا سعيداً بخدمتك

كان حزن هذا الشاب يعطف القلوب عليه ، وقد حملنى على الرغم منى أن أكون عند رضائه . قال لى بعد ذلك

— هل اشتريت شيئاً من تراث مرجريت ؟

— نعم يا سيدى ، اشتريت كتاباً

— « مانون ليسكو » ؟

— هو بعينه

— ألا يزال عندك هذا الكتاب ؟

— انه فى حجرة نومى

فسرّى عنه هذا الخبر كأنما حط عن كاهله حملا ثقيلا ، وشكر لى كأنى ما احتفظت بهذا الكتاب إلا لاسدى اليه صنيعاً

فقمت الى غرفتى فأتيت بالكتاب وقدّمته اليه فتناوله ثم نظر الى كلمة الاهداء فى الصفحة الأولى وأخذ يقلّبه وهو يقول :

— نعم انه هو ، نعم انه هو

وذرفت من عينيه عبرتان على صفحاته ، ثم رفع رأسه الىّ غير محاول خفاء دموعه وقال :

— بكم تبيعنى هذا الكتاب ياسيدى ؟

— ولماذا ؟

— لأنى سألتك أن تتخلى لى عنه . فقلت له :

— لا تؤاخذنى بفضولى اذا سألتك هل أنت ذلك الذى أهدى الى مرجريت هذا الكتاب . فقال :

— نعم أنا هو . فقلت :

— إذن هذا الكتاب لك فخذه ، وأنا سعيد الجدّ اذا استطعت أن أرده اليك . فقال :

— أما اذا أبيت المساومة فلا أقلّ من أن أردّ اليك ما دفعته فيه . قلت :

— اسمح لى أن أقدمه اليك : فان قيمة مجلد واحد فى بيع كهذا أحقر من أن تُذْكَر ، ولستُ على ذُكْر من القدر الذى دفعته

— لقد دفعت فيه مائة فرنك

— هذا حق ، وأنَّى لك العلم بهذا ؟

— الأمر واضح ، لقد كنت أرجو أن أصل الى باريس يوم البيع ، لكنى لم أصل إلا هذا الصباح ، فحرصت أن أقتنى من متاع مرجريت

شيئاً فذهبت الى الدلاّل أستميحه النظر الى جدول البياعات والمبتاعين فوجدت هذا الكتاب قد آل بالشراء اليك ، فوطّنت نفسى على أن ألتمس منك النزول عنه الىّ ، ولو أن الثمن الذى دفعته فيه قد بعث فى قلبي الخوف أن تكون قد اقتنيته تذكاراً

قال ذلك أرمان وهو يخشي أن تكون صلتى بمرجريت كصلته بها ، فسارعت الى طمأنته قائلا :

— لقد عرفت الآنسة مرجريت بالعين لا بالقلب . وقد نال منى موتها كما ينال الجمال الذابل من شاب كانت تثلج برؤيته نفسه ، وينشرح بروعته صدره . فأردت أن أقتنى شيئاً من متاعها ، فدفعنى العناد الى التزايد فى هذا الكتاب تفكهة لنفسى باحفاظ رجل قد اشتد كلبه على اقتنائه ، ودعانى بشدة لهجته الى اقتوائه . فأنا أعيد عليك القول ، وأكرر لك الرجاء أن تقبل منى هذا الكتاب قبول الهدية لا قبول السلعة ليكون ذلك عهداً بيننا على صلة دائمة وألفة خالصة

فمد أرمان يده الىّ مصافحاً وقال :

— نعمّا فعلت ، وسأتقبله منك شاكراً لك هذه اليد ما حييت

لقد كانت النفس تتوق الى سؤال أرمان عن مرجريت ، فان كلمة الاهداء ورحلة الفتى وحرصه على أخذ الكتاب ، كل ذلك هاج فى نفسى هذا الفضول ، ولكنى خشيت أن يسبق الى وهمه أنى ما رفضت نقوده إلا تذرّعا بذلك الى الدخول فى أمره

وكأنما حدَس ما كان يختلج فى صدرى فقال :

— هل قرأت هذا الكتاب ؟

— قرأته بأجمعه

— ما رأيك اذن فى السطرين اللذين كتبتهما ؟

— علمت منهما أن هذه الفتاة البائسة التى قدمت اليها هذا الكتاب خارجة فى رأيك عن هذه الطبقة المألوفة ، ولم أرد ان أفهم منهما الا تحية عادية

— لقد أصبت فى فهمك ، وعدلت فى حكمك ، فما كانت تلك الفتاة الا ملاكا ، وهذه الرسالة حجة على ما أقول

ثم قدم الىّ ورقة قد أذبلتها القراءة المتكررة ، ففتحتها فاذا فيها :

« عزيزى أرمان

قرأت كتابك وانى أحمد الله على أنك ما زلت براً . نعم أيها الصديق لقد أصابتنى علة فادحة من تلك العلل التى لا تعفو ولا ترحم ، ولكن ما بقى فى قلبك من العطف علىّ ، والميل الىّ ، يقصر عنى الألم ، ويخفف علىّ الوصب . لا ريب أنى لن أعيش حتى أصافح السعادة فى تلك اليد التى خطت هذا الكتاب الكريم ، ذلك الكتاب الذى كان خليقاً أن يمسح ما بى ويجلّى عنى ، لوكان شفائى فى مقدور مخلوق . هيهات أن أراك يا أرمان فانى مشفية على الموت ، وان مئات من الفراسخ تفصل بينى وبينك . مسكين أيها الصديق ! لشد ما تغيرت مرجريت عما عهدت . لقد أثبتها المرض ، وتخونها السقم ، حتى أصبح البعد عنها ، خيراً لك من القرب منها على حالها تلك . تسألنى هل أصفح عنك ، وهل تشك فى ذلك يا صديقى ؟ ان الضرر الذى أردت أن تمسنى به لم يكن الا برهانا على ما كنت تبطن لى من الحب . أنا لم أبرح الفراش منذ شهر ، وقد

أخذتُ على نفسي اكراماً لك أن أكتب مذكرة حياتي منذ افترقنا الى الساعة التي لا أستطيع أن أخط فيها حرفاً . فاذا كان حقاً ما تُحس من العطف عليّ يا أرمان ، فاذهب الى « جوليت دوبرا »[1] فانها ستدفع اليك هذه المذكرة ، وستجدني أعذرت اليك فيها مما حدث بيننا . ان جوليت بارة بي ، وطالما تحدثنا عنك معاً ، وقد كانت شاهدة أمري حينما ألقيَ اليّ كتابك ، فأسعدتْني على البكاء عند قراءته ، وأخذتَ عليها موثقاً في الحالة التي تنقطع عني أخبارك أن تدفع اليك هذه الأوراق لدى وصولك فرنسا

لا تشكر لي هذا الصنيع ، فان ذكراى كل يوم لتلك اللحظات السعيدة من حياتي تقصّر عني عناءً طويلا ، واذا صح أنك واجد في هذه المذكرات عذراً لي عن الماضي ، فاني أنا واجدة فيها مسرّياً لعنائي ، ومسلياً لدائي

لقد كان في أملي أن أدع لك شيئاً يُخطرني ببالك لولا أن متاعي محجوز ، وأن ما أملك أصبح فوْت يدي

هل تفهم يا صديقي اني أجود بنفسي على سرير الموت وأنا أسمع في البهو خطوات الحارس الذي أقامه الغرماء على متاعي حتى لا ينقل أحد منه شيئاً ، ولست أرجو من الله الا أن ينتظروا بالبيع ريثما أموت

آه ! ما أغلظ أكباد الرجال ! ولكن أولى بي أن أقول : ان الله عادلٌ جبّار

خيرٌ لك يا صديقي أن تحضر البيع وتشتري منه ما أحببت ، فاني لو

---

(١) خادمة مرجريت

احتجزت لك شيئاً وعُمِيَ الى الدائنين خبره كانوا خُلقاء أن يصادروك لاختلاسك شيئاً محجوزاً

ما أمض الحيـاة التى أفارقها ! وما أكرم الله وأرحمه اذا أظفرنى برؤيتك قبل أن أموت ! انى استودعك الله على أية حال يا صديقى ، وأرجو أن تغفرلى اذا لم أكتب اليك طويلا ، فان الذين يعِدُوننى البرء وعنُّونى الشفاء قد استنزفوا دمى ، وأوهنوا جلَدَى فلم تعـد يدى قادرة على الـكتابة كثيراً   .   مرجريت جوتيه »

وفى الحق أن الـكلمات الأخيرة كانت سقيمة فلا تُقرأ إلا بعـد لأْى .

فأعدت الـكتاب الى ارمان وقد كان يقرأه بقلبـه كما كنت اقرأه بعينى لأنه قال لى وهو يأخذه :

— من كان يصدق أن هذا الـكتاب تخطه يد بغىّ ؟

ثم نظر الى خط الـكتاب مليّاً وهو مستطار الفؤاد من الذكرى ، ثم رفعه الى شفتيه وعاد الى الحديث فقال :

— كلما فكّرت أنها تُوفّيتْ دون أن أراها ، وانى لا أراها ، واذكر أنها بذلت لى ما لم تبذله أُخت لأخيها ، استوبلت عاقبة أمرى ، وقطعت باللاَّعة نفسى على تركها تموت هذا الموت الاليم . قضت نحبها وهى تفكر فىّ ، وتكتب الىّ ، وتلهج باسمى ، مسكينة يا مرجريت !

ثم أطلق أرمان فكره ، وأرسل الىّ عينيه ؛ ومد الىّ يده وقال :

— سيعدُّنى الناس طفلا اذا رأونى مسبل العبرات على فتاة كمرجريت لأنهم يجهلون ما رَزَأتهـا به من الآلام والاسقام ، آه ما كان أظلمنى

وأقسانى وما كان أخيرها وأصبرها ! لقد كنت أظن انى أملك العفو عنها ، فأصبحت اعتقد انى غير أهل لذلك العفو الذى منحتنى اياه . آه ! لو أن الله أبدلنى بعشر سنين من عمرى ساعة واحدة أقضيها بين يديها ، لأغسل بمدامعى قدميها ، لطبتُ بذلك نفسا ونعمت به عينًا

يصعب على المرء دائما أن يُرفّه عن شجىٍّ لا يعرف شجوه ، أو ينفّس عن مصدور لا يعلم همه ، فقد استشعرت لهذا الشاب الحنان والرحمة ، وآنس منى ذلك فأفضى الىّ بذات صدره ، ودخيلة أمره ، بصراحة تركتنى أعتقد أن لكلامى موقعاً من نفسه ، واثراً فى قلبه ، ومع ذلك لم اجدنى قادراً على ترويح قلبه وتفريج كربه ، فقلت له :

— أليس لك اقرباء ولا أصدقاء فتذهب اليهم . انهم أقدر على عزائك ، وأجدر بشفائك ، أما أنا فلا أملك الا الرثاء اليك ، والاشفاق عليك .

فما كان جوابه الا أن قال وقد نهض قائمًا يتمشى فى الغرفة جيئة رجعة

— لقد صدقت فانى أبرمتك وأضجرتك بما يُهمك ولا يَهمك ، وما كان يدور فى خَلَدى أن آلامى لا تعنيك إلا قليلا ، فقلت له

— لقد جانبت القصد ، وأخطأت الفهم ، فانى أسرع ما أكون الى رضاك ، وانما أسف لقلة غنائى فى اطفاء حزنك ، واخماد شجوك ، فاذا كنت تسلو بمحضرى ومنظرى ، وتأنس بصحبتى ، أو كانت فى نفسك حاجة أستطيع قضاءها ، فثق أنى أكون اسعد الناس باسعادك وامدادك . فقال

— عفواً سيدى وصفحاً . ان الجوى يهيج المشاعر ، ويهز العواطف فدعنى امكث قليلا ريثما أنهنه دموعى حتى لا يحدُجنى طغام المارة بنظرات

الدهش والسُّخف اذا رأوا هذا الطفل الكبير يبكي . لقد وصلتَ بيني وبين السعادة بنزولك لي عن هذا الكتاب ، وما أدري كيف أجزيك عن هذه اليد ، فقلت :

— لا أطلب جزاءً عليها الا القليل من حبك ، والوقوف على سبب كربك ، فان عميد القلب يجد في بث اشجانه لاخوانه تعزية وتسلية فقال

— صدقت واصبت ، ولكني اليوم في حاجة الى البكاء ، فاذا بدأت الحديث لا أستطيع أن أتمه ، وسأفتح لك قلبي ذات يوم فتقرأ فيه تلك المأساة ، لتعلم اني كنت محقاً في الأسى على هذه الفتاة . ثم مَرَّس عينيه بيديه مرة اخرى مطَّلعاً في المرآة وقال :

— أما الآن فأسألك أن تربأ بي عن البله والخرق ، وان تسمح لي بالعودة لأراك

كانت نظرات الفتى ترسل الاخلاص والوداعة ، حتى لقد هممت بتقبيله ، وأخذت مقلتاه تَهْمِيان بالدمع ، فلما ابصرني ألاحظه اشاح بوجهه عني ، فقلت له

— أبقِ على نفسك من الأسى وتجلدْ ، فقال

— أستودعك الله إذن

ثم أمسك عينيه على الجَهد حذرَ البكاء بين يديَّ ، وانطلق خارجا أشبه بمن أفلت من بائقة

فبَصَرتُ سُجُفَ النافذة فرأيته يصعد مركبة كانت في انتظاره، وما كاد يأخذ منها مجلسه حتى استخرط في البكاء واستسلم للوجد، وستر محياه عنديله

الفصل الخامس

مرّ زمن طويل لم اسمع فيه احداً يتحدث عن أرمان ، ولكنى سمعت عوضاً من ذلك الكثير عن مرجريت

لا أدرى لعلك أيها القارئ لاحظت فى بعض الاحيان ان شخصاً يظهر لك انك لم تعرفه قط ، أو على الاقل لم يشتغل به بالك ، لا يلبث أن يُذكر اسمه مرة أمامك حتى تتجمع حول هذا الاسم تفصيلات عدة فى رأسك ، وحتى تجد اصدقاءك يحدثونك منه عن شخص لم تره قط عينك ، فتستكشف عندئذ ان الشخص لاقاك فى سبيل الحياة كثيراً ، وأنه دخل فى أمور حياتك مراراً دون أن تنتبه لدخوله ، وتجد فما يُحكى لك من حوادثه حوادث ذات علاقة ببعض حوادثك ، بل ذات اتصال شديد القرب بها

لم يكن هذا حالى مع مرجريت يقيناً ، فانى رأيتها قبل ان اسمع بها ، ولقيتها وعرفت طرفاً كبيراً من عاداتها ، وأنماط حياتها ، ومع ذلك منذ يوم البيع عاد اسمها يقرع أذنى أكثر من قبل ، واتصلت به عندى بعد المشهد الفائت بينى وبين أرمان صور من آلام بالغة ، فزاد دهشى ، وتطاول تشوّقى ، فكان من ذلك أنى ما دنوت من صديق لم أكن حادثته قط فى أمر من أمور مرجريت حتى ابتدرته بسؤالى

— هل عرفت فتاة تُدعى مرجريت جوتيه ؟

— غادة الكمليا ؟

— هى هى

— عرفتها كل المعرفة

وعندئذ كانت ترسم الشفاه ابتسامة لا يخفى مغزاها على أحد

— فما كانت هذه الفتاة؟

— كما تهوى العين ويلذ الناظر

— أهذا كل ما عندك عنها؟

— نعم، وبعض لَبابة وحساسة قلب لم تكن لأترابها

— وليس لديك شيء من دقائق أخبارها؟

— انها أفلست بارون ج . . .

— ثم ماذا؟

— وكانت خليلة دوق ب . . . الهَرِم

— أكانت خليلته حقاً؟

— يقولون ذلك، وعلى كل حال كان ينفق عليها مالاً كثيراً

وما سألت حتى وقعت على أخبار واحدة، وتفصيلات واحدة تلك فحواها، فلم أجد فى شيء منها ما يَشفى غليلى، أو ينتقص من تشوف، فقد كان أكثر همى عِلْمَ صلةٍ ما بين مرجريت وأرمان

وحدث أن قابلت يوماً رجلا خبيراً بمشهورات النساء فسألته

— هل عرفت مرجريت جوتيه

فأجابنى بما عُوّدتُ من نَعَم

— فأى فتاة كانت مرجريت؟

— فتاة جميلة الروعة، طيبة القلب، آلمنى موتها ألماً كبيراً

— أكان لها حبيب يدعى أرمان دوفال ؟

— فتى أشقر الشعر طويل ؟

— نعم

— هذا حق

— فما كان أرمان هذا ؟

— أظنه فتى أنفق معها قليل ماله ، فاضطرّ أخيراً الى فراقهـا ، ويقول الناس انه جنّ بها جنوناً

— وهي ، فما كان له عندها ؟

— لا أفتأ أسمع أنها أحبته حباً جماً ، ولكن بالطبع كما يحب هؤلاء النساء ، وان من العبث أن تتوقع منهن أمراً ليس في جبلتهن

— فماذا كان من أرمان ؟

— لا أدري ، فانّا لم نعرفه الا قليلا ، لانه عاش مع مرجريت خمسة أشهر أو ستة في الريف ، وما عادت الى باريس حتى فارقها

— ألم تره أنت قط بعد ذلك ؟

— لم أره قط

وأنا أيضاً لم أره قط منـذ ذهب على أن يعود ، فسألت نفسي أيكون زارني على حداثة علم بوفاة مرجريت ، فأكبر حبـه الماضي ، فأكبر ألمه في حبه ، ثم لما توالت الايام بعد موتها نسيها ونسي معها وعدَ زيارة وعَدَنيها

زعمٌ جاز على كل أحد غير أرمان ، فقد كان في حديثـه وبكائه ويأسـه نبرات اخلاص رنّت في أعماق قلبي ذكرتُها فانتقلتُ من طرف

الى نقيضه ، فزعمت أن أرمان أمضّه الهم ، واقعده الداء فعجز عن زيارتى أو لعله مات

همّنى أمر أرمان على الرغم منى ، ولعل ذلك كان لحاجة فى نفسى ، أو لعلى رأيت فى حزنه مأساة غرام تُقْت الى استطلاعها

وانقطع رجائى من زيارته اياى ، فقلت أزوره أنا ، وما كانت لتُعْوزنى علة أذهب بها اليه ، وانما أعوزنى عُنوانه ، فقد سألت كثيراً من الناس فلم أجد من بينهم من عرفه

فذهبت الى شارع « انتين » الى دار مرجريت ، علّ بوابها يعرف أين يسكن ارمان ، ولكنى وجدت بواباً جديداً لا يعلم من دار ارمان أكثر مما علمت. فسألت بعد ذلك عن المقبرة التى دفنت فيها مرجريت ، فقيل لى انها مقبرة « مُنْتمارت »

وكان ابريل قد عاد ، فاعتـدل الهواء ، وصفت السماء ، وخلعت المقابر عن نفسها ما كان ألبسها الشتاء من لباس يبعث الحزن والوحشة فى القلوب . وبلغ دفْء الطبيعة مبلغاً يأذن للاحياء ان يذكروا الاموات ويزوروهم ، فذهبت الى الجبّانة ، وقلت فى نفسى انى سأعلم من أول نظرة ألقيها على قبر مرجريت أزال ألم أرمان أم لا يزال ، وارتجيت ان أدرى ما كان من امره بعدى

فدخلت الى أمين المقبرة ، وسألته أدُفِنت امرأة تدعى مرجريت جوتيه فى الثـانى والعشرين من فبراير فى مقبرة « منتمارت » . فتصفح الرجل سجلا ضخما كُتبت فيه ورُقمت اسماء من تبوأوا المسكن الاخير من دنياهم ، وقال لى إن امرأة ذاك اسمها دُفنت فى الثانى والعشرين من

فبراير فى تمام الظهر فى هذه المقبرة . فسألته هدايتى الى قبرها ، اذ لا بد من هاد فى مدينة الاموات ، فان بها من مشتبكات الطرق ، ومشتبهات المسالك ما بعدائن الاحياء . فنادى جنّانًا وبدأ يصف له موقع القبر ، فقاطعه بأن لا حاجة الى وصفه فانه بيّن ، واتجه البستانى نحوى فسألته لِمَ كان بيّنًا

— لان عليه زهرًا يختلف عن ازهار القبور

— فأنت تتعهده ؟

— نعم يا سيدى ، وبودى لو عُنيَ اقارب الموتى بقبورهم عناية الشاب الذى عهد الىّ هذا القبر بصاحبته

وبعد انعطاف واياه فى منعطفات عدة استوقفنى وقال : وصلنا وها هو القبر

فوقعت عينى من الارض على مربع من الزهر ما كانت لتظنّه قبرًا لولا نصاب قائم فيه من الرخام الابيض عليه اسم أنبأنى انه قبر

وكان عريش من الحديد يحدّ القبر ، وقطعة من الارض حوله اشتُريت له خاصة ، خفيت كلها تحت بساط من زهر الكمليا الأبيض . فقال لى الجنّان :

— كيف تجد هذا ؟

— غاية فى الحسن

— انى أُمرت أن أستبدل بالزهرة حين تذبل أخرى ناضرة

— ومَن أمرك ؟

— شاب بكى مرّ البكاء لأول مرّة أتى هنا ، وهو لا شك عاشق

قديم للفقيدة ، فانى أسمع انها كانت من طالبات البهجة ورائدات السرور ، وانها كانت ذات رُواء وجمال . أيعرفها سيدى ؟

— نعم

— أبمقدار ما يعرفها سيدى الآخر ؟ وابتسم ابتسامة خبيثة

— لا . انى ما شاهدتها قط

— وتأتى لتزورها ! ما أبرك ! ان زوّارها لا يزحمون المقبرة

— ألا يأتى أحد ؟

— لم يأت سوى ذلك الشاب ، أتى مرة

— مرة واحدة ؟

— نعم يا سيدى

— ألم يأت بعدها ؟

— لم يأت ، ولكنه سيجىء بعد عودته

— أهو على سفر ؟

— نعم

— وتعلم أين هو ؟

— أظنه ذهب الى شقيقة مرجريت جوتيه

— وما يصنع عندها ؟

— يسألها الأذن فى نبش القبر وتحويل الجثة الى غير هذا المكان

— ولِمَ لا يدعها هنا ؟

— تعلم يا سيدى ان للناس آراء غريبة فى الموتى . إنّا نشاهد ذلك هنا ، هنا نشهده كل يوم . ان هذا القبر لم يستأجر الا لخمس سنين ، وذلك

السيد الشاب يريد استئجاره لغير أجل ، ويريد قطعة أرض له أفسح من هذه ؛ ولعله يجد طَلِبته في المحَلّة الجديدة

— أي محلّة جديدة ؟

— تلك الأراضي التي يبيعونها هنالك على اليسار . ألا لوعُنِي بهذه المقبرة من قبل كما تُعنَى بها الآن لما كان لها مثيل في العالم ولكنها ينقصها كثير نسعى الآن في تمامه حتى تكون كما نود ، وبعدُ فكم في الناس من عَجب عجاب !

— ماذا تعني ؟

— أعني أن الناس يتشبثون بعُجبهم ، ويتعلقون بغرورهم حتى هنا . عاشت الآنسة مرجريت جونيه على ما يظهر عيشة استهتار ، والآن ماتت المسكينة فلم يبق من رميمها إلا كما بقي من رميم سواها ممن نروي قبورهن كل يوم ولا نعرف من ماضيهن شيئاً . فاذا علم ذوو الموتى بجارتهم فهل خلت قط أو تخال أبداً أنهم يعترضون دفنها بجوارهم ، وأنهم يقولون بتخصيص مقابر لهذا الصّنف كالتي تخصص للفقراء والصعاليك ، أسمعت حياتك بمثل هذا ؟ أولئك الأغنياء السّمان الغلاظ الذين لا يزورون موتاهم في العام أربع مرات ، ويجلبون أزهارهم معهم[1] ، وانظرْ أيّ أزهار خسيسة ، أولئك الذين يستكثرون ساعة يقفونها على قبر من يدّعون بكاءه ، ويزعمون فيما يكتبون على قبره أنهم سكبوا دموعاً ما سكبوها من قبل ، ثم يأتون من بعد ذلك يثورون ويصخبون من أجل ميت حلّ في جوارهم . صدّقني يا سيدي أو كذّبْ ما شئت ، اني ما عرفت

---

(١) أي فلا يشترونها منه

الفتاة ولا عرفت ماصنعت ، ولكني أحبها ، وأرثى لهذه البُنَيّة المسكينة ، وأُعنَى بها ، وأجلب لها زهر الكمليا بالثمن الذى أُعطاه كله . انها حبيبتى من بين أهل القبور ، ولا عجب فانا نستنفد أعمارنا بين المقابر ، فلا يجد حبنا فى غيرها مَغْدًى ومراحًا

فنظرت الى الجنَّان الساذج الأمين أتأمله بانعام ، ولعل من قرأنى من لا يجد حاجة الى أن أصف مشاعرى عند استماعى له ، وكأنه تبين منى ما كنت أجد ، فاسترسل فى حديثه :

— يقولون ان كثيرين أفلسوا من أجلها ، وان منهم من عبدها . أجل ، ولكنى كلما ذكرت انه لم يأت واحد من هؤلاء يشترى لها ولو زهرة واحدة راعنى الدهش ، وملأنى الحزن ، على أنهـا فى غَناء عن كل انسان ، فنها قبرها ، وان فاتها أن يذكرها سوى واحد ، فقد كفاها هذا الواحد ما كان يكفيها اياه الكثيرون . وأين من حظها حظ فتيات لدينة من صِنفها ولِدَتها يقْذَف بهن قذفًا فى قبور الصدقة ، فينقطع نياط قلبى عند وقع أجسامهن على الثرى . وما هو إلا انهيال التُّرب ، وامتلاء حفرة القبر ، حتى لا تذرف عين دمعة لهن ، ولا يشتغل قلب بخاطرة منهن . صناعتنا يا سيدى لا تدعو الى فرحة ، ولا تسوق الى سرور ، لا سيما ان استبقت قلوبنا بعض حسها الذاهب . ماذاتتوقع منى غير ذلك يا سيدى . انه أمر جَلَل ، يفتّت الأكباد ، ويهد القُوى . ان لى ابنة فى العشرين من عمرها لا تتمالك ماطفتى أن تهيج اذا جىء الينا بفقيدة فى مثل سنها من بنات الشوارع أو بنات القصور . عذراً ياسيدى فقد أسأمتك بأحاديث عن نفسى ما جئتَ لاستماعها . لقد طلبتَ الىّ هدايتك الى قبر الآنسة جوتيه ،

فهذا هو ، فهل من حاجة أخرى ؟

فسألته عن عنوان السيد ارمان دوفال

— انه يسكن فى شارع . . . أو لا أقل من أن يكون هـذا هو المكان الذى منه استنفد ثمن كل هذا الزهر

— شكراً لك يا صديق

ونظرت آخر نظرة الى ذلك القبر فى أناقة من دثاره ، ونضرة من أزهاره، ووددت لو شف أديم أرضه ، أو سبرت عمق ثراه ، فرأيت ما كان من غصن رطب تضمنه ، وجمال غض حواه . ثم توليت يوجنى الحزن ، وتطرق رأسى الكآبة ، فسألنى البستانى وهو الى جانبى

— أيود سيدى أن يرى السيد دوفال ؟

— نعم

— انى موقن انه لما يعد ، اذ لو كان عاد لرأيته بلا شك هنا

— فوقن أنت انه لم ينس مرجريت ؟

— بل أراهن أنه انما أراد تغيير القبر رجاء أن يراها مرة أخرى

— وكيف جاءك هذا ؟

— ان أول ما فاه به وقد جاء المقبرة للمرة الأولى قوله « كيف أصنع لأراها . لا يكون هذا إلا بتغيير القبر » . وقد أريته المراسم التى لابد منها لتغييره ، فانه لا ينقل عندنا ميت من قبر الى قبر الا بعد تحقيق شخصه ، ولا يؤذن فى ذلك لغير أسرة الدفين أو من ينوب عنها ، ولا يقع ذلك الا فى حضرة مندوب الشرطة . ومن أجل الاذن فى هذا ذهب السيد دوفال الى أخت الآنسة جوتيه ، ولا شك أن وجهته الأولى ستكون الينا بعد عودته

وكنا وصلنا الى باب المقبرة ، فشكرت البستانى ثانية ونقدته مالا وذهبت الى بيت أرمان أستهدى بالعنوان الذى أخذته

لم يعد أرمان . فتركت له أن يأتينى اذا عاد ، أو يخبرنى فآتيه

وفى غد ذلك اليوم فى الصباح جاءنى منه كتاب يؤذننى بعودته ، ويسألنى أن أذهب اليه لأن التعب أنهكه فاستحال عليه الخروج من داره

الفصل السادس

وجدت أرمان فى فراشه ، فمد لى يداً أحسست منها ناراً . فقلت له:

— انك محموم

— عارض غير ذى بال يزول سريعاً . ان هو الا فرط جهد من سفرة جاءت عاجلة

— أجئت من عند أخت مرجريت ؟

— نعم ، فمن أخبرك هذا ؟

— علمته . فهل حصلت ما قصدت اليه ؟

— نعم مرة أخرى ، ولكن من أعلمك بأنى سافرت وأنى قصدت الى شىء ؟

— بستانى المقبرة

— أزرت القبر ؟

فما أطقت أن أجيبه ، لأن رنة سؤاله أرتنى أنه لا يزال فريسة تلك العاطفة التى شهدت سلطانها عليه يوماً مضى ، وأن فكرته أو حديثاً من

غيره لا يكاد يرجع به الى هذه الذكرى الاليمة حتى تذلله وتعبده ، فتفنى ارادته، وتذهب باختياره، لذلك أكتفيت بهزة رأسي عن نعم . فعقب يقول:

— هل اعتنى به خير عناية ؟

وهنا انحدرت دمعتان كبيرتان ، فأشاح عني بوجهه يحاول سترهما ، فتظهرتُ بأني لم أرهما ، وحولت مجرى الحديث فسألته

— أظنك استغرقت ثلاثة أسابيع في سفرك

فرس بيده كلتا عينيه وأجابني

— نعم منذ ثلاثة تامة

— انها سفرة طويلة

— لم تكن كلها سفراً ، فقد مرضت منها أسبوعين ، ولولا حمى انتابتني حين حططت حيث قصدت فألزمتني غرفتي لعدت من أمد بعيد

— وكأنك عدت ولما يتم شفاءك

— لو كنت بقيت أسبوعاً واحداً فوق ما بقيت في تلك الانحاء لمت لا محالة

— والآن اذ عدت ، وجب أن تلزم بيتك ، وتعني بأمر نفسك ، أما الصحاب فيسمون اليك وأنا أولهم ان أذنت

— لن تمضي ساعتان حتى أنهض

— أية خفة وأي نزق !

— لا بد من ذلك

— أي جليل وراءك يدعو الى النجاز بهذه العجلة ؟

— يجب أن أذهب الى مندوب الشرطة

— ولِمَ لا تدفع هذه المهامَ الىَّ ، وهى انما تزيدك مرضاً على مرضك ؟

— انها وحدها شفائى . لابد أن أراها . انى لا أنام منذ نموها الىّ لا سيما بعد أن رأيت قبرها بعينى رأسى . لا أستطيع أن أتصوّر أن الفتاة التى غادرتها فى ذاك الجمال وذاك الصبا قد ماتت ، فلابد أن أقنع نفسى بنفسى ، لابد أن أنظر ماذا صنع الله بشخص فتىّ شدّ ما أحببته ، ولعل بشاعة منظر كريه أراه تنزل من نفسى مكان يأس قاتل تهيجه الذكرى ، فهل أنت صاحبى اليها ، ألست بفاعل ؟ إفعل بالله اذا لم تؤذك صحبتى فوق ما تطيق

— ولكن ماذا قالت أختها لك ؟

— لا شيء ، وانما دهشت لغريب يريد شراء أرض يقيم فيها قبراً لمرجريت ، وسرعان ما وقّعت بالاذن

— إتبعنى وأجِّلْ نقل الجثة الى أن يتم شفاءك

— هوّنْ عليك فستجدنى ان شاء الله جَلْداً صابراً . ومهما يكن منى فلا مندوحة لى عن الجنون إلا بانفاذ هذا العزم ، وقد أصبح ضرورة يتحتم قضاؤها لتسكين آلامى . وربك لن أهدأ حتى أرى مرجريت . لعله هوى من أهواء الحمى التى تحرقنى ، أو لعلها رغبة أثارها اختبالى ، واضطراب حالى ، وقلة نومى . لن أُحجم عن رؤية مرجريت ولوكان من ورائها الموت . فأجبته :

— فهمت ، فأنا طوعك على كل ما ترى ، فهل رأيت جوليت دوپرا ؟

— نعم رأيتها فى يوم عودتى

— فهل دفعت اليك الصحائف التى أودعتها مرجريت لك عندها؟

— نعم ها هى ذى

وابرز لفافة ورق تحت وسادته ، ولم يلبث أن أعادها حيث كانت وقال :

— انى أستظهر الآن ما تحتويه ، فقد قضيت ثلاثة أسابيع أقرؤها فى كل يوم عشر مرات ، وستقرؤها ان شاء الله بعد حين عند ما تهدأ ثائرتى فأستطيع أن أنهى اليك سر ما تُكنّه هذه الاعترافات من خبايا حب ، ودفائن قلب . أما الآن فلى حاجة اليك

— وهى ؟

— أتراك جئت بمركبة لدى الباب ؟

— نعم

— أتحسن الىّ فتأخذ جواز سفرى هذا فتسأل فى مكتب البريد عن كتب لى . ان أبى وأختى لابد قد كتبا الىّ هنا من باريس من زمن بعيد ، غير أنى غادرت هذه المدينة عجلا لدى سفرى فلم أستطع أن أسأل عما كتبا ، فاذا تفضلت فذهبت فعدت ذهبنا لاخطار مندوب الشرطة عما يكون فى الغد

وأعطانى أرمان جوازه ، فذهبت الى شارع « جان جاك روسو » فوجدت كتابين باسم أرمان فعدت بهما اليه ، وكان قد تأهب للخروج فابتدرنى بالشكر ، وأخذ الكتابين ونظر غلافهما

— أجل ، انهما من أبى وأختى ، وقد كتباهما ولا شك عن قلق

طول سكونى

وفض الكتابين وطواهما بعد برهة وجيزة ، وما خلت أنه قرأهما ، لأن كل كتاب منهما كان أربع صفحات ، وانما اختطف ببصره منهما مُجمل ما تضمّناه

ـــ هلمّ بنا ، فسأجيب عنهما غداً

فذهبنا الى مندوب الشرطة فناوله أرمان توكيلا وقّعته أخت مرجريت ، فأعاضه منه المندوب إخطاراً الى أمين المقبرة ، واتفقا على أن يكون نقل الجثة في الغد في الساعة العاشرة صباحاً ، وأن أجيء دار ارمان قبل هذا الموعد بساعة فآخذه الى المقبرة

لقد كنت توّاقاً الى حضور هذا المشهد ، ولا أكتم أني لم أنم طول ليلتي ، ولو اني حكمت عما ازدحم على خاطري في تلك الليلة من هواجس الأفكار ، لحكمت بطول ليل ارمان

ولما حان الموعد دخلت عليه ، فاذا وجهه تعلوه صفرة بالغة، وشحوب رهيب ، ولكنه ظهر بالسكينة فابتسم ومد يده اليّ بالسلام

ونظرت فوجدت شمعة فانية عن آخرها ، دليلَ سُهد طويل . وقبل أن نخرج أرسل أرمان الى البريد كتاباً ضافياً باسم أبيه تضمّن لا شك أفكاراً ساورته في تلك الليلة

وبعد نصف ساعة وصلنا الى مقبرة « مُنْمَارت » ، وكان مندوب الشرطة ينتظرنا عندها ، فسرنا الهُوَيْنا تجاهَ قبر مرجريت ، وتقدّمَنا المندوب وتبِعناه أنا وأرمان على بضع خُطُوات منه . فكنت أشعر بذراع صاحبي وقد رافقتُه ينتفض من آن لآن ، كأنما كانت تمشي في

جسمه رعدات برد قارس . فكنت أنظره فيفطن الى نظرى فيبتسم ، وسوى ذلك لم يفه لى ببنت شفة ، ولم أفه له منذ خرجنا من داره بكلمة

ولما صرنا على مقربة من القبر وقف أرمان يمسح وجهه بمنديله ، وقد غشته قطرات من العرق كبيرة

فأفدتُ من هذه الوقفة زفرةً نفّست بها عن صدرى ؛ فأنا مثله أحسست كأن قلبى شدّت عليه كلّابتان

يا للعجب من أين يصدر هذا السرور الاليم الذى يجده الطُّلَعَة فى مشهد من هذه المشاهد الأليمة ؟

ولما وصلنا الى القبر كان البستانىّ قد أزاح أُصُص الأزهار ، وأزيل سياج الحديد ، وأخذ رجلان يحفران الأرض ، فاستند أرمان الى جذع شجرة وظل ينظر

وظهر كأن حوادث حياته الماضية أجمع تتتابع أمام عينيه

ودق معول أحد الرجلين حجراً فى الأرض فارتد أرمان على هذا الصوت بغتة الى الوراء ، كأنما سرى به تيار كهرباء ، وضغط يدى ضغطة تألمت منها

وتناول أحد العاملين مجرفة كبيرة وأخذ يُفرغ الحفرة من الثرى ، ولما لم يبق الا الأحجار التى تباشر الناووس أخرجها حجراً حجراً

فألزمتُ بصرى ارمانَ خشية أن تقضى عليه احساسات خلَّفتْها هاٮجة فيه ، ولـكنه ظل يُحدق بعين ثابتة نجلاء كأنما أصابته جِنّة ، وكان خداه وشفتاه جميعاً تختلج اختلاجا خفيفاً كان وحده دليلَ أزمة عصبية فى نفسه عنيفة

أما أنا فماذا أقول سوى أني أسفت أن حَضَرتُ

ولما تم انكشاف التراب عن الناووس أهابَ المندوب بالعاملين أن ينحياه

فأجاباه الى فتحه كما يجيبان الى أيسر عمل مألوف في الدنيا

وكان الناووس من خشب السرو ، فأخذا في برم مساميره ليخلص غطاؤه . وكانت رطوبة الأرض اصدأتها فما انفتح الا بعد عناء ، فانتشرت منه الينا رائحة كريهة على الرغم مما احتواه من حنوط العطر والطيب ، فصاح أرمان : — رباه ! رباه ! واشتد امتقاع لونه وارتد العاملان الى الوراء

وكان كفنٌ أبيض اللون يَلُفُّ الجثة ويحددها . وكان قد تأكل الطرف منه فكشف عن إحدى قدميها

دارت بي الأرض أو كادت تدور ، وها أنذا أكتب هذه الأسطر تسترجع ذكراى هذا المشهد بدقائقه ، فأخال أنه لا يزال حقيقة حاضرة لدىّ

وأهاب المندوب بالعامل : أسرع

فمد يده الى الكفن يفتقه ، ثم أخذ بطرف منه فرفعه بغتة عن وجه مرجريت . . . . . أفظِعْ به وأفظِعْ بحكايته ! !

لم يبق من العينين سوى حفرتين خاويتين . وزالت الشفتان فكشفتا عن بَرَد أسنان متطابقة يَشِعّ منها في سواد المنظر بياض يبعث الرعب في القلوب . وكان شعرها الفاحم الطويل لاصقاً بأصداغها فاحتجبت دونه فجوات الخدود الا قليلا . ومع كل هذا لمحتُ في ذلك

الوجه الحاضر ذلك الوجه الطلق العابر الذى كنت رأيته مراراً فى بياضه وتورده وبشاشته

ولم يستطع أرمان أن ينتقل بناظره عن الجثة فرفع منديله الى فمه وظل يقضمه قضما

أما أنا فخلت ان عصابة من حديد تضيق على رأسى ، وأحسست بغشاء أُسدل على بصرى ، وصلصلة أجراس فى أذنى ، فأخرجت زجاجة كنت حملتها للطوارىء فاستنشقت من أملاحها جهد الطاقة

وبينا أنا فى هذا الدوار نبهنى صوت المندوب يقول لأرمان

— أحققت شخص الدفين ؟

فأجابه أرمان أنْ نعم ، بصوت دفين لم يكد يسمعه أحد . فقال المندوب .

— اذن فأغلقا الناووس واحملاه

فأسدل العاملان الكفن على وجه الميتة وأغلقا الناووس وحملاه كل من جانب وسارا به الى حيث يعلمان

ولم يتحرك أرمان ، ولزمتْ عيناه القبرَ الخالى ، وعلتْ وجههُ صفرةٌ كصفرة الجثة التى رآها ، وسكن فخلناه قد استحجر

فعلمت ما ستكون حاله اذا تناقص ألمهُ بزوال المنظر عن عينيه ، وعلمت أنها نكبةٌ جثمانية لا بد واقعة شرٌ عليه مما كان ، فاقتربتُ من المندوب فسألته :

— ألا تزال حاجةٌ الى بقاء هذا السيد هنا ؟

وأشرت الى أرمان . فأجابنى المندوب :

— لا ، بل أنصح لك أن ترجع به الى بيته فانى إخاله مريضاً .

فصحت بارمان هلمّ ، وأخذت بذراعه فشخَصَ اليّ متوسماً كأنه ما عرفنى قط . فقلت له :

— انتهى الأمر كلهُ يا صديق فلم يبقَ الا الرواح . انك مقرور ولونك شاحب ، ولا شك أنك قاضٍ على نفسك إنْ أسلمتها فى مَهَبّ هذه العواطف . فأجابنى دون أن يعى :

— حقاً تقول . فهلمّ بنا

ولـكنهُ لم يخط خطوة واحدة . فتأبطتُ ذراعه وسحبته فأسلم نفسه ينقاد اليّ انقياد الطفل ، ولم يفه بشىء سوى غمغمة كنت أسمعه يقول فيها :

— أرأيت العينين ؟

وكان لا يفتأ يلتفت خلفه كأن هاتفاً من مرجريت يهتف من ورائه باسمه . وهدّج فلم يخط الا اختلاجاً ، واصطكّت أسنانه وتثلجت يداه وعمّت جسدَه أجمع رعشةٌ عصبية حادة . وخاطبتهُ فما حار جواباً، وكل ما استطاع فعله هو أن استسلم وانقاد

وعند باب المقبرة ألفينا مركبة فركبناها . ولم يكد يتخذ مجلسه منها حتى زاد ارتعاده وبلغت النوبة مداها ، وكان أثناءها يخشى انزعاجى لحاله فيضغط على يدى ويتمتم اليّ :

— هوّن عليك . هون عليك . كل ما عندى إنما هو إعواز البكاء

ورأيت صدره يجيش وعيناه يصعد الدم اليهما والدمع يأبى أن يسيل ، فأشممته الاملاح التى معى فما وصلنا الى داره حتى تنبّه من غشيته وأفرق

من نوبته سوى الرعشة فإنها كانت بادية

واستعنت بخادمي فأرقدناه في فراشه وأوقدت له في غرفته ناراً حامية وجريت أطلب طبيبي فأخبرته الخبر فعاد معي عجلان مسرعاً. فوجدنا أرمان أحمر الوجه يهذي بقول لم نستبن من كلماته غير اسم مرجريت. ففحصه الطبيب ولما فرغ قال:

— انتهينا. فقلت فماذا؟ قال: لا شيء أكثر من حمى في مخه، وإنه لسعيد الجد فقد كادت تؤدي به حاله الى الجنون، وسيذهب داء جسمه بداء نفسه، ولن يأتي عليه شهر حتى يبرأ من أحد داءيه، وربما برئ من دائه الآخر كذلك

الفصل السابع

كانت علة أرمان من تلك العلل المريحة التي تقتل ذريعاً أو ترحل سريعاً، فإنه لم يمض على تلك الحوادث التي رويتها غير أسبوعين حتى تماثل العليل وأفرق، وقد تأكدت بيننا عقدة الاخلاص فلم أكد أفارق غرفته مدة مرضه إلا يسيراً

أخذت يد الربيع تنبت أوراق الشجر، وتفتق أكمام الزهر وتنطق ألسنة الطير، وتفض على النسيم لطائم المسك. وكانت نافذة صديقي تشرف على حديقة فينبعث الينا أرجها صحياً ذكياً

وأذن الطبيب للعليل أن ينهض فكنا نجلس للحديث على مقربة

من النافذة فى وقدة الشمس ساعتين بعد الزوال

وكنت أحاذر الحديث عن مرجريت خشية أن يوقظ اسمها فى العليل ذكرى محزنة قد سكنت تحت هذا الهدوء الظاهر. ولكن أرمان كان على النقيض من ذلك، لا يجد رَوْحه الا فى الحديث عنها. نعم كان يذكرها لا دامعَ العين كما كان يفعل من قبل، بل مُفْتَرَّ الثغر عن ابتسامة حلوة طمأنتني على حال نفسه

وكنت ألاحظ أن أرمان منذ يوم المقبرة يوم اكتحلت عيناه بذلك المشهد المروع فأعقبته تلك النوبة العنيفة قد أراح المرضَ عازب همه، وضاعف آلام نفسه، ولم يعد موت مرجريت يتراءى له فى صورة الماضى وذلك ضرب من العزاء أنتجه ما اكتسب من اليقين، فكان يَعْدِل عن نفسه ما يتمثل فى خاطره من الصور العابسة باسترساله فى ذكرى العهود السعيدة التى نَعِمَ فيها بمرجريت وما كان يريد أن يفتح قلبه لغير هذه الذكَر

لقد تخوَّنت الحمى جسمه وانتهكت قواه حتى بافراقها عنه، اذ كانت نفسه مهيأة لانفعال شديد. غير أن مسرات الربيع العامة التى تكتنفه كانت تذهب بفكره كرهاً الى الصور الضاحكة. وقد أبى كل الأباء أن يحيط أهله خبرا بذلك الخطر المُحْدِق به حتى نجا منه وأبوه لم يدرِ مما كان شيئاً

جلسنا الى النافذة كعادتنا نتحدث فى مساء يوم صحيح الأديم، مريض النسيم، قد رقدت شمسه فى شفق ازْدَهَر بزرقة اللازَوَرْد وصفرة الذهب وكأننا ونحن فى باريس قد عزلتنا عن العالم تلك الخضرة المحيطة بنا فلم يكن ما يكدر صفو حديثنا إلا صوت مركبة تمر من آن لآن

عند ذلك قال أرمان وهو مُصغ الى أفكاره لا إليّ

— في مثل هذا الوقت من العام ، وفي مساء يوم كهذا اليوم عرفت مرجريت .

فسكتُّ عن جوابه إشفاقاً عليه أن يسترسل ، ولكنه التفت الىّ وقال

— على أية حال لا بدّ أن أقص عليك هذا الحديث ، وسيكون لك منه كتاب ممتع وإن لم يُخلَد اليه بيقين . فقلت له :

— لا بأس أن تقصه عليّ بعد حين يا صديقي متى ثاب اليك جسمك وآب اليك عزمك . فقال :

— ان الليلة دافئة ، وقد أقلعتْ حُمّاي عني وأكلت صدر فرّوج وليس عندنا من العمل ما يَشْغَلنا عن الحديث . فدعني أقل لك كل شيء فقلت له :

— أما إذ أبيت الا القول فان حجاب سمعي مرفوع لك . فقال :

— ان القصة بسيطة ، وسأسردها عليك سائراً مع الحوادث . فاذا حسن لديك أن تخرج منها كتاباً كنت حراً في حكايتها على أي وجه شئت ثم ألقى الىّ بجملة أمره ، وها أنذا أرويها ولا أكاد أحذف منها حرفاً

قال أرمان وقد ألقى برأسه الى مُتَّكئه :

أجل كان ذلك في ليلة كهذه وقد كنت قضيت نهاري في الخلاء مع صديق لي يدعى جَستون ر ... ثم عدنا مساء ولا ندري ما نعمل ، فدخلنا الى مسرح « ڤارياتيه » وفي فترة من فترات ما بين الفصول خرجنا فرأينا في الدهليز امرأة من كُبريات النساء فابتدرها صاحبي بالتحية فقلت له :

— على من تسلم ؟ فقال :

— على مرجريت جوتيه . فقلت وقد عرتني هزة ستفهمها عما قليل

— يُخيل الى أنها تغيرت عما عهدتُ فاني ما عرفتها لما نظرتها الآن

فقال :

— نعم انها كانت مريضة ، ولا تُعمّر هذه البائسة طويلا

ما زلت أذكر هذه الكلمات كأنها قيلت أمس

ولا بد أن تعلم يا صديقي أن مرأى هـذه الفتاة عامين قبل ذلك الحين كان يؤثر في نفسي تأثيراً غريباً كلما لقيتها ، فكان لوني يمتقع وأطرافي ترتعد دون أن أعرف لهذا سبباً وكان صديق لي ممن يتعاطون علم الاسرار يسمي ذلك الشعور « توافق الأمزجة » ، أما أنا فكنت أعلم أن قلبي مقضي عليه أن يُشغف بمرجريت حبّا

كانت تترك في نفسي هـذا الأثر كلما قابلتها ، وكان أصدقائي يشهدون ذلك مني فيضحكون و يغمزون إذ يعلمون من أوجد هذا الأثر وولّد هذا الشرر

أبصرت مرجريت لأول مرة في ميدان « لابورس » لدى باب مخزن « سوس » ، وذلك أن مركبة فخمة وقفت هناك فنزلت منها سيدة في لباس أبيض تؤمّ ذلك المتجر ، فاستقبلت الوجوه طلعتهـا بالتهليل والتبجيل . أما أنا فوقفت كأنمـا سُمّرَتْ رجلاي في الأرض ، ولبثت كذلك منذ دخولها حتى خروجها ، وكنت أرمقها من خلال الزجاج تتخير من الحانوت ما تبتاعه ، وكان في مقدوري أن أدخل لولا مهابتي ومخافتي أن تحزر سبب دخولي فتغضب

وكانت في لبـاس بالغ الأناقة — في غلالة مفوّفة من المُسْلين ،

وملحفة مربعة من الكشمير ، قد رُصِّعت حواشيها باسطار المسجد ، وطُرِّزت أطرافها بأزهار الحرير ، وقد تقنعت بقبعة من القش الايطالى ، وتسوَّرت بسوار فَرْدٍ ، وتقلدت بسلسلة غليظة من الذهب ، وهى بدعة جديدة أخذت تشيع فى سيدات ذلك العصر . وخرجت السيدة فتبوأت مركبتها وانطلقت . وظل غلام من غلمان الحانوت واقفاً لدى الباب يشيّع الشارية الحسناء بالنظر ، فدلفت اليه ورجوت أن يعلمنى اسم هذه المرأة فقال لى

— إنها الآنسة مرجريت جوتيه

فلم أجرؤ على طلب عنوانها منه وتوليت عنه

ولم تزل ذكرى هذه الرؤيا — وقد كانت رؤيا حقاً — ماثلة فى صدرى وجائلة فى فكرى دون كثير من تلك الرؤى التى امتلأت عيناى بها اذ ذاك فكنت أنقب عن هذه الغادة الهيفاء فى كل مكان

وكان بعد ذلك بأيام قلائل أن مُثِّلت رواية عظيمة على مسرح « الاوبرا كوميك » وكنت فيمن شهدها ، فكان أول ما وقع عليه بصرى فى اللوج الأمامى العلوى محيّا مرجريت جوتيه

ولم يلبث الشاب الذى كنت معه أن عرفها كذلك ، فانه قال لى وهو يشير اليها — ألا تنظر الى هذه الفتاة الأنيقة ؟

وكانت مرجريت فى هذه الآونة تتوسَّم الوجوه بمناظرها ، فوقف نظرها على صديقى فحيَّته بابتسامة ودعته باشارة الى أن يزورها ، فقال لى الصديق

— إنى ذاهب اليها فأحييها وسأعود اليك تواً

فما تمالكت أن قلت له :

— إنك لسعيد ! فقال :

— بماذا ؟ قلت :

— بذهابك الى هذه المرأة . فقال :

— وهل ملكت فؤادك ؟ فقلت له :

— كلا . وقد أدركتني خجلة تضرجت وجنتاى بها لانى ما كنت أدرى حقيقة حالى معها ولكنى كنت مشوقاً الى الاتصال بها . فقال لى :

— هلم فسأعرفها بك . فقلت :

— حتى تستأذنها . فقال :

— سبحان الله ! وهل نحن فى حاجة الى أن نتكلف لها ؟ هلم !

فلاعت هذه الكلمات قلبي وأخذتنى رعدة الهم وملكتنى سورة الخوف توقعاً ألا تكون مرجريت أهلا لما أحس لها فى قلبي

قرأت فى كتاب لألفونس كار عنوانه « آم راوخن » أن رجلا تعقب ذات ليلة فتاة لها جمال وروعة قد برح به حبها حتى تركه مشدوه القلب مسبوه اللب لأول نظرة ، وكان يأنس فى نفسه من القوة والارادة والشجاعة ما يذلل به كل صعب ويهون به كل خطب فى سبيل قبلة من يديها ، وقد شق عليه أن ينظر الى جوربها حين كشفت عن ساقها البضة الأنيقة لتحمى ثوبها أن يمس الارض فيتلوث . و بينا هو يمنى نفسه ويعدها بوصال هذه المرأة إذا بها تستوقفه فى منعطف الطريق وتطلب اليه أن يصعد معها

فزوى وجهه عنها وانقلب الى بيته مكفأ الوجه مكروب النفس

كنت أذكر هذا المثل بعد ما وطنت نفسى على احتمال المكروه

فى سبيل هذه المرأة فأخشى أن تسارع الى الرضا فتبــذل لى من قلبها وتمنحنى من حبها ما كنت أريد أن أبتاعه بثمن جزيل وانتظار طويل. وهكذا نحن معاشر الرجال . على أنه من سعادة الجد أن ينزل الخيال عن كثير من شحره السامى الى حواس الجسم ، وأن تتخلى شهوات الجسم هى أيضاً عن بعض الشيء الى خيالات النفس وأحلامها

وعلى الجملة فلو أن انسانا قال لى ستكون لك هذه المرأة فى هذه الليلة على أن تقتل غداً لما اختلجنى شك فى القبول ، ولكنه لو قال لى ستكون لك خليلةً على أن تدفع عشرة دنانير لرفضت ذلك باكياً كالطفل يرى أن تقوّض فى اليقظة ما بناه فى المنام

على أنى كنت حريصاً على أن ألقــاها فان لقاءها يكشف لى عن دخيلة سرها ، فأكون على بينة من أمرها . فقلت حينئذ لصديق إنى لا أزال مصراً على أن تطلب لى الاذن عليها . فانصرف وبقيت أتمشى فى الدهليز جيئة ورجعة وقد تمثل فى وهمى أنها ستراني بعد هنيهة ، وأنى لا أعلم أى هيئة أتخذها بين يديها ، ثم أخذت أهيئ كلاماً أقوله لها

يا لله ! ما الحب الا حماقة سامية ! فأقبل الىّ صديقى بعــد برهة وقال : انها تنتظرنا . فسألته

— أهى وحدها ؟

— إنها مع امرأة أخرى

— ألا يوجد معها رجال ؟

— كلا

— إذن هلمّ

فانطلق صاحبي يؤم باب الملهى ، فقلت له
أليس الطريق من هنا ؟
— بلى ، ولكننا ذاهبان نبتاع لها مُلبّساً
فدخلنا عند حلْواني بدهليز الأوبرا وبودي لو أبتاع لها كل ما في الحانوت فكنت أقلّب النظر فيما عسى أن يتألف الكيس منه . ولكن صديقي لم يطلب الا رطلا من الزبيب المحلّى بالسكر فقلت له
— أتعلم أنها تحبه ؟ فقال : كلٌّ يعلم أنها لا تأكل من الحلاوى غيره
فلما خرجنا قال لي أتدري أي امرأة سأعرّفك اليها ؟ لا تظنها عقيلة ولا دوقة ، ان هي الا بغيٌّ خطية ، فلا تُحرج نفسك أمامها . ولا تخش أن تقول ما يعنّ لك ويجول في خاطرك . فأجبته مغمغماً : لا بأس ، واقتفيته وفي نفسي أنني سأُقصّر عن هواي ، وأنجو من بلواي
كانت مرجريت مغربة في الضحك حينما دخلت اللوج عليها ، وكنت أوثر أن ألقاها واجمة
فلما عرّفها الصديق بي أحنت رأسها اليّ قليلا وقالت :
— أين مُلبّسي ؟
— ها هو ذا
فتناولته ورشقتني بنظرة نكّستْ بصري من الحياء وضرّجت وجهي من الخجل
فمالت برأسها الى أذن جارتها وسارّتها ثم ضحكتا بملء الفم حتى شهقتا فتضاعف ارتباكي وزاد اضطرابي ، لأني كنت ولا جرَم مبعث هذا الضحك . لقد كان لي في هذا الحين صديقة من الحَضَر غُدائية الشباب

ذكية القلب لطيفة الحس ، فكنت أضحك من عواطفها ورسائلها السوداوية ، وما علمت الا الآن ما كانت تعالج من هم وتكابد من ألم من جراء هذا الشعور . وقد أصبحت منذ خمس دقائق أحب النساء الى وأعزهن على

شغلت مرجريت عني بحلواها فلم تأبه لوجودي ولم تحفل بمحضري . ورأى ذلك مقدمي اليها فلم يشأ أن يدعني في ذلك المأزق الحرج فقال لها :

— لا تعجبي من أرمان اذا انعقد لسانه ، وخابه بيانه ، فانك ربكته وخبلته حتى لم يجد كلمة يقولها . فقالت له : وأولى من ذلك أن السيد لم يصاحبك الا ليذهب عنك الضجر بالمجيء الى وحدك . فقلت : اذا كان حقاً ما تقولين ففهم رجوت إرنست أن يطلب لي الاذن عليك : فقالت لعلك تذرعت بطلب الاذن لتؤخر هذه الساعة المذمومة المشئومة

من عايش أولئك الفتيات اللاتي على شاكلة مرجريت أمداً يسيراً تبين فيهن ذلك السرور الذي يداخلهن من الخروج الى السخرية والتداعب على من يلقينه من الناس لأول مرة . ولا ريب أنهن يفعلن ذلك جزاء لما ينلنه من الذل والهوان ممن يرينهم كل يوم

ولا يتسنى لامرىء أن يحبهن أو يجاريهن الا اذا تخلل دهماءهن وتخلق أخلاقهن ، ولست على شيء من ذلك . ثم إن الصورة التي تمثلت في خاطري من قبل عن مرجريت بالغت في دعابتها وزادت في مجانتها فنهضت عند ذلك قائماً قائلا وقد أدرك صوتي صحل لم استطع إخفاءه :

— إذا كنت على هذا الرأي في ياسيدتي فليس لي إلا أن أطلب الصفح عن حماقتي والاذن بالخروج ، وأؤكد لك أن هذا الخرق لن يعود

ثم حيّيتها وخرجت ، ولم أكد أوصد باب اللوج حتى سمعت قهقهة ثالثة ، فدارت بي الأرض وتمنّيت لو أن انساناً أخذ بضبعي هذه الآونة

عدت الى مجلسي من الملهى ودق جرس التمثيل ورجع صاحبي الى جانبي وهو يقول :

— عجيب ما كان منك ! لقد حسبتك مأفون العقل

فسألته عما قالت مرجريت عقب خروجي . فقال :

— إنها أمعنت في الضحك وأقسمت أنها لم ترَ فيما غَبَرَ من حياتها أضحوكة مثلك . ولكن لا تقنط ولا تحمل على نفسك الخذلان والفشل ، وإنما يحسن بك ألا تعامل هؤلاء الفتيات معاملة الشريفات ، فلسن وقورات ولا مصونات ولا يعلمن من الظرف والأدب شيئاً ، وما هنّ الا كالكلاب تُضمَّخ بالطيب فيسطع في أنوفها خبثاً فتمجه وتذهب الى المجرى فتتروغ فيه

فقلت له بلهجة غير المكترث : وبعد فماذا يَعنيني من أمر هذه المرأة ؟ ان أسبابي لن تعلق بها ، وإن عينيّ لن تقعا عليها ، ولئن كانت أرضتني قبل أن أعرفها فقد أسخطتني بعد أن عرفتها . فقال : أنا لا أيأس أن أراك يوماً ما في صدر لوجها ، وأن أسمع انك أفلست لأجلها ، وستكون اذ ذاك محقاً فانها وان كانت فاسدة الأدب أجمل خليلة تُقتنى

من سعادة الجد أن هُصِرَ الستار فأمسك صديقي . ولكنك تسومني المحال اذا سألتني عما كان يصنع الممثلون . وكل ما أتذكر أني كنت أرفع بصري الى لوج الفتاة حيناً بعد حين فأرى فيه وجوه الزائرين تتعاقب عليه في كل لحظة

وما كان أبعدني عن اللهو عنها أو مراجعة الصبر فيها ! غير أن عاطفة أخرى تولّدت في صدري وهيمنت على قلبي ، وذلك أني أردت أن أُنسيها ما كان من سخافتي وإهانتي ، فتمثل في نفسي أن أخرج مما أملك في سبيل الوصول الى هذه الفتاة فيكون لي الحق في ذلك المكان الذي غادرتُه وشيكا

وقبل انقضاء التمثيل خرجت مرجريت هي وصاحبتها فوجدت نفسي مرغماً على أن أخرج أيضاً . فقال إرنست

— أذاهب أنت ؟

— نعم

— ولماذا ؟

وجلى حينئذ ببصره الى اللوج فوجده خِلْواً . فقال :

— إذهب إذهب أورى الله زندك وأسعد جدّك

فخرجت فسمعت على السلم حفيف الأثواب ورنين الأصوات ، فانتحيت جانباً فاذا بي أرى المرأتين يصحبهما رجلان

ومَثَل أمامهما تحت رواق[1] المسرح غلام صغير ، فقالت له مرجريت

— قل للحوذي ينتظرنا على باب القهوة الانجليزية فانا ذاهبتان اليها راجلتين

وبعد بضع دقائق أبصرتُ مرجريت من نافذة غرفة كبيرة في مطعم قد اتكأت على طُنُف وأخذت تجرد زهرات الكمليا من أوراقها واحدة فواحدة

(١) سقف في مقدم البيت يغطي مدخله

وشاهدت أحد الرجلين قد انحنى على كتفها وأخذ يكلمها همساً

فذهبتُ فاحتللت مجلساً فى أحد أبهاء الطبقة الأولى من « مازون دور » ، وهو مطعم يواجه القهوة ، وجعلت تلك النافذة قيدَ عِيانى

وفى الساعة الأولى بعد منتصف الليل تبوأت مرجريت مركبتها هى وأصحابها الثلاثة ، فتبعتُهم فى مركبة أخرى حتى وقفوا على رقم ٩ فى شارع أنتين فنزلت مرجريت وصعِدت الى بيتها وحدها

تلك كانت مصادفة ، ولكنها مصادفة سعيدة بَرَدَ عليها جلدى واطمأن لها قلبى

كنت أقابلها منذ ذلك اليوم إما فى الملهى وإما فى الشنزليزيه وشتان ما بين حالينا : هى رخيَّة الصدر مفترَّة الثغر ، وأنا مضطرب القلب مستطار الفؤاد . وأتى على ذلك أسبوعان ثم انقطع عنى خبرها وعِيانها ، فسألت جستون عنها فقال :

— إنها مريضة

— وماذا تشكو ؟

— ذات الرئة . والحياة التى تحياها قمينة أن تغرى بها الداء وتؤخر عنها الشفاء . وهى الآن على فراش المرض تجاهد فى سبيل الموت .

واعجباً للقلب ! لقد كان لهذا الخبر سرور فى نفسى

كنت أذهب الى بيتها كل يوم أتنسم أخبارها دون أن أقيد اسمى فى العائدين أو أترك بطاقتى مع التاركين . ثم علمت بعد ذلك بنقاهتها وسفرها الى « بنيير »

تعاقب الجديدان على هذا الأثر فى قلبى فأبليا جِدَّته ، وكسرا حِدَّته

ورحلتُ فأخذتْ العلاقات والعادات والاعمال تحل محلّ هذه الذكرى من خاطرى . وكنت اذا ذكرت هذه الحادثة وجدتها نزعة من نزعات الشباب تستهوى القلب ولا يلبث أن يضحك منها بعد قليل

على أنه لا فضل لى فى قهر هذا الهوى . فقد غاب شخص مرجريت عن عيانى منذ رحيلها ؛ حتى أنى كما قلت لك لم أتميزها وهى مارة بجانبى فى دهليز ملهى « ڤارياتيه »

أجل لقد كانت منتقبة ، ولكنها لو كانت كذلك منذ عامين لما كنت فى حاجة الى أن أستشرفها لأعرفها ، بل كنت أتميزها بالحدس والظن على بعد

فلما عرفتها خفق قلبى وتيقظ حبى على الرغم منى ، وعلمت أن الحولين اللذين تصرّما دون لقيانها ، وأن الفراق الذى أوهم قلبى بنسيانها ، كل ذلك ذهب شعاعاً فلم يبق أمام خطرة منها ونظرة منى

الفصل الثامن

قطع أرمان الحديث حتى استجمّ، ثم عاوده قائلا :

— أحسست من قلبي أني لا أزال بها صبًّا ، وآنست من نفسي أني أقوى مما كنت قبلُ، ورغبت في الوجود معها والجلوس اليها لأريها أني أصبحت أفضل مما كانت لباقة وظرفًا

ما أعجب الطرق وأغرب الحجج التي ينتهجها القلب وينتحلها للوصول الى مايريد !

لم أستطع البقاء طويلا في الدهليز، فعدت الى مقعدي في صحن المسرح ثم ألقيت على قاعة التمثيل نظرة عجلى لأرى أيّ لوج تبوأت، فلمحتها وحدها في اللوج الأمامي من الطابق الأرضي وقد تحتّر جسمها، وتغيّر وجهها ، واستسرّ بشرها ، كما قلت لك ، فلم أعد ألمح على ثغرها ذلك الافترار الناطق بالسلوّ والخلو

لقد مرضت ولا يزال المرض يعتادها فتردّت ملابس الشتاء في الربيع وأضفت على جسمها مطارف القطيفة

أدمتُ النظر اليها في لجاج وسكون حتى جذبت النظرات بصرها اليّ فرمقتني مليًّا ، ثم فزعت الى منظارها لتحقّق النظر فخيّل اليها أنها تعرفني وإنما شق عليها أن تثبت معرفتي . فألقيت المنظار ومرّت على شفتيها ابتسامة حلوة ردًّا على تحية كانت تنتظرها مني . ولكني لم أحيّها كأني أردت أن آخذ السبيل عليها ، وأظهر أني أنكرتها حينما عرفتني ،

ونسيتها عند ما ذكرتني ، فصدّت بوجهها وظننت أنها واهمة مخدوعة . ثم هصر الستار

رفعت طرفي الى مرجريت غير مرة فلم أرها قط تُعير الممثلين التفاتاً ولا سمعاً . أما أنا فوليتهم أذناً صماء ولم أُشغل الا بها ، ولم أفكر الا فيها ، متحرزاً ما استطعت أن تفطن الى ذلك . رأيتها تبادل بالنظرات شخصاً في اللوج المقابل لها فجليت بطرفي الى هذا اللوج فعرفت فيه امرأة عرفتها زمناً

كانت هذه المرأة في سالف أمرها سُرّية من السراري ثم عالجت التمثيل فانكفأت عنه خائبة ، فاتخذت لها حانوتاً تتجر فيه بالقبّعات معتمدةً على من تعرف من غانيات باريس . فوجدتُ في هذه المرأة خير وسيط للجمع بيني و بين مرجريت . فانتهزت فرصة التفاتها نحوى وحييتها بالعين واليد فدعتني الى لوجها وكان ما قدّرت أن يكون

كان اسم تلك التاجرة الميمونة « پرُودَنس دوفِرْنوا » ، وهي امرأة بدينة نَصَف قد تقاضت من عمرها أربعة عقود ، ولا يحتاج المرء معها أن يخدع قلبها ليحملها على الجهر بما يريد أن يعلم ، ولا سيما اذا كان ما يُطلب سهلا لا يضر اعلانه ، ولا ينفع كتمانه ، كالذي أريد أن أستدرجها اليه . فانتظرتُ حتى عادت مُطارحة النظر بينها و بين مرجريت وسألتها

— الى من تنظرين هكذا ؟

— الى الآنسة مرجريت جوتيه

— أتعرفينها ؟

— نعم ، أنا صاحبة قبّعاتها وهي جارتي

— إذن أنت تقطنين شارع اثنين ؟

— في المنزل رقم ٧ وإن نافذة مَنزِينا لتُطِل على نافذة منزلي

— يقال إنها فتاة فتّانة المحاسن

— ألا تعرفها ؟

— كلا ، وبودي لو يكون ذلك

— أتود أن أدعوها الى الحضور الينا ؟

— كلا وأنا أوثر أن تعرفيها بي عندها

— عندها ؟

— نعم

— لقد طلبت أمراً بعيد المطلب وعزّ الملتمس

— ولماذا ؟

— لأن دوقا شيخا شديد الغيرة قد منحها رعايته، وبسط عليها حمايته

— حمايته ! ما أرقها من كلمة

— أجل حمايته ، فقد حماها ذلك الشيخ البائس تفادياً من قوارص الكلِم وسوء السماع لو سار بين الناس أنه حبيبها

ثم قصّت عليّ پرودنس كيف جمعت أواصر المعرفة بين الدوق ومرجريت في « بَنْيير » فقلت لها :

— لعل ذلك هو السبب في انفرادها الليلة ؟

— هو ذاك

— ومن ذا الذي يشيّعها الى بيتها ؟

— هو

— إنه سيأتى إذن فيأخذها ؟

— كأنك به آتيا

— ومن يشيّعك أنت ؟

— لا أحد

— أتقبلين أن أكونه ؟

— ولكنى أظن أن معك صديقاً

— ولِمَ لا يصحبك معى ؟

— ومن يكون ذلك الصديق ؟

— فتى رشيق لَبِق سيَطرُب للاتصال بك

— لا بأس ، وسيغادر ثلاثتنا المسرح بعد هذه القطعة فانى شهدت القطع الباقية

— لك السمع والطاعة ، وسأذهب فأخطر صديق

— اذهب

فلم أكد أنهض حتى قالت لى برودنس :

— هذا هو الدوق داخلا لوج مرجريت

فتطلعتُ فاذا رجل أخو سبعين قد أخذ مجلسه وراء الفتاة ثم قدم اليها كيساً من الحلوى ، فتناولت منه باسمة وأدنته من مُقدَّم لوجها سائلة برودنس ان كان لها هوى فيه . فلما رفضت هذه استردت الكيس وأخذت تُناقل الدوق الحديث

إن حكاية هذه الاشياء مفصلة أشبه بالطُرّاء والعبث ، ولكنى أجد

كل ما يتعلق بهذه الفتاة عالقاً بذهني مصوراً بفكرى حتى لا أملك لسانى عن ذكره اليوم

نزلت الى جستون فأخطرته بما دبرته فما أنكر شيئاً . فتركنا مقاعدنا وأخذنا الطريق الى لوج برودنس ، فلم نكد نجاوز وصيد الباب حتى اضطررنا أن نقف ريثما تمر مرجريت هى والدوق . فقلت فى نفسى لو أن الله أبدلنى مكان هذا الشيخ الساذج بعشر سنين من عمرى لنعمت بذلك عيناً

وخرج هذا الدوق بمرجريت الى الشارع ثم أركبها عربة فخمة وساقها هو بنفسه وساط الجوادين فانطلقا بهما عدواً

دخلنا لوج برودنس فلبثنا فيه نشهد القطعة حتى انتهت ، فخرجنا فاكترينا مركبة أقلتنا الى شارع أنتين . فلما بلغنا البيت طلبت الينا ربته أن نصعد فنرى مخازنها فقد كانت لها مطرية وبها معجبة . فوقع هذا الطلب من قلبى موقع زلال الماء من الكبد الصديا ، فأسرعت الى اجابتها وأخذنا نتساقط الحديث وكان يخيل الى أنى أقترب من مرجريت شيئاً فشيئاً ، فسقت الكلام الى ذكرها وأخذت أسائل برودنس عن أمرها . قلت لها :

— ألا يزال الدوق الشيخ عند جارتك ؟ فقالت

— كلا ولا بد أن تكون منفردة . فقال جستون

— ان الضجر ليبلغ بها وينال منها . فقالت برودنس :

— انا لنقضى أكثر الليالى معاً فى السهر والسمر إما عندها واما عندى ، ومحال أن يخدع الكرى مقلتيها قبل الساعة الثانية صباحاً . فقال:

— ولماذا ؟ فقالت

— لأنها مريضة بداء الصدر والحمى تكاد لاتقلع عنها . فسألتها :

— أليس لها أخلاء ؟ فقالت :

— انى لا أرى أحداً من السامرين يتخلف بعدى . فاذا كانوا يدخلون بعد خروجى فذلك ما لا أعلمه ولا أقطع بشيء منه . على أنى أقابل عندها أحياناً الكنت دى ن . . ذلك الكنت الذى يتخير أن يزورها فى الساعة الحادية عشرة ، ويرسل اليها ما تشاء من الحلى ثم لا يجد منهـا إلا نفاراً واستكباراً . أنها تسأم حضرته ، وتمقت صورته ، بغياً وبطراً ، وهو فتى واسع الثروة فياض اليد . بالغتُ لها فى النصح وتحريت لها وجوه النفع وقلت لها : أى بنية ! ذلك هو الرجل الذى تطلبينه ، والكنز الذى تدخرينه . فكانت تجعل كلامى دبْر أذنها وتُشيح عن وجهها وتقول انه ثقيل الروح غث الحديث . ليكنْ . أنا مسلّمة بما تقولين ، ولكنه سيكون لها معقلا وموئلا . أما ذلك الدوق الهرم فقد أصبح هامة اليوم أو الغد ، وأسرته لا تنى تغلظ عليه اللائمة فى حبه مرجريت . فهـذان سببان يحولان دون انتفاعها به واعتمادها عليه . أبصّرها بمواقع الرشد ومناهج الخير ، ولا يكون جوابها الا أن الفرصة ستظل سانحة لحيازة الكنت اذا مات الدوق . ان حياة كحياة مرجريت لا تلَذ طويلا ، ولو كنتُ مكانها لتوخيت النفع ولطردت هذا الشيخ الأحمق طرداً . انه سخيف أبله ، يدعوها ابنته ، ويُعنى بها عناية الوالد بالطفل ، ويرقبها بعين لا تغفل ويبث عليها العيون والأرصاد ، وفى يقينى ان احد خدمه يجيء ويذهب الآن امام بيتها مراقباً من يخرج وعلى الاخص من يدخل

فتأوه جستون وقال وهو يجلس الى البيان يوقع لحناً من الحان الرقص :

— ما أشقاك يامرجريت ! ما كنت اعلم عنها شيئاً من هذا . ولكني لاحظت نقصاً في ابتهاجها منذ حين

أنصتت برودنس فجأة ثم قالت

— صه ! انها تدعوني

— فأمسك جستون عن الضرب وأنصتنا فاذا صوت ينادي : برودنس . فانتصبَتْ قائمة وقالت :

— هيا للانصراف ايها السيدان . فقال جستون :

— أهكذا أدب الضيافة وكرم المضيف ؟ إنّا لا نبرح هذا المكان الا مختارين . لم نذهب ؟

— لأني ذاهبة الى مرجريت

— اذهبي كما تشائين فانّا سننتظرك هنا

— ذلك ما لا يكون

— اذن فلنَصْحبك اليها

— ذلك ما لا يكون أيضاً

— اني أعرف مرجريت وأستطيع أن أزورها زيارة صديق

— ولكن أرمان لا يعرفها

— سأعرّفها به

— غيرُ هذا خير لكما وأحرى بكما

سمعنا صوت مرجريت ثانية يُهيب بصاحبتنا فانقلبت مسرعة الى

مُتَزيّنها ونحن فى إثرها ، ثم فتحت النافذة وتوارينا حيث لا نُرى . فلما تقابل الوجهان قالت مرجريت بلهجة العظيم الآمر :

— إنى أناديك منذ عشر دقائق ! فقالت پرودنس :

— ما خَطبك وماذا تريدين ؟

— أريد أن تحضرى الساعة فان الكُنت دى ن … قد أطال علىّ حتى أبطرنى ذرعى ، وثقل على طبعى وسمعى

— إنه لا سبيل الى ذلك الآن

— وما ذا يمنعك منه ؟

— فتيان يأبيان أن ينصرفا

— قولى لهما إن عندك ما يضطرك الى الخروج

— قلت ذلك لهما

— إذن دعيهما يبقيان ، فاذا ما رأياك خرجت يخرجان

— نعم يخرجان ولكن بعد أن يقلبا كل شىء رأساً على عقب

— ماذا يبغيان إذن ؟

— يبغيان أن يرياك

— وماذا يسميان ؟

— يسمى أحدهما جستون وهو يزعم أنك تعرفينه

— نعم أعرفه ، والآخر ماذا يسمى ؟

— أرمان دوڤال ، ألا تعرفينه ؟

— كلا ، ولكن أحضريهما على أية حال فكل شىء غير طلعة الكونت هيّن محتمل . ثم ارتدّت المرأتان وأُغلقت النافذتان

لم تستطيع مرجريت التي عرفت وجهي لأول وهلة في المسرح أن تتذكر اسمي ، وقد كنت أوثر أن تذكرني وما كان من اخفاق لديها على أن تنساني هكذا

ثم قال جستون لپرودنس :

— لقد كنت على علم بأنها ستنشط لرؤيتنا وتُسر بزورتنا

فأجابته :

— لا أظن أن كلمة « تسر » صادفت موقعها من الجملة

ثم تقنعت بقبعتها وأتزرت بملحفتها وقالت :

— أنها تريد أن تُخرج الكُنت بدخولكما ، وترفضه بقبولكما ، فاجتهدا أن تكونا أخف عليها وأحب اليها وإلا أوجعتني لوماً وعذلا

اضطربت نفسي ووجب قلبي وخُيل الىّ أن هذه الزيارة سيكون لها في حياتي أثر بيّن. على أني كنت أقرّ بالا وأحسن حالا من ليلة اللوج في « الأوپرا كوميك » . ولم نكد نبلغ باب الطبقة التي رأيت البيع فيها والمزايدة حتى اشتد وجيب قلبي ، وعزب عني رشادي ، ووقع في أسماعنا عن بعد أنغام البيان . فلما قرعت پرودنس الباب سكت الصوت وفتح الباب امرأة أولى أن تكون وصيفة لا خادمة

أجزنا البهو وعبرنا غرفة الزينة ، وقد كانت يومئذ على حالها التي رأيتَ ، فوجدنا شاباً متكئاً على المُصْطَلَى ومرجريت جالسة الى البيان تاركة أناملها تجري على مَضربه وقد أخذت تغني صوتاً لم تتمه بعد

كان هذا المنظر هو الضَجر بعينه : ضجر الرجل لشعوره بقلة غنائه في بقائه ، وضجرت المرأة لوجود هذا الزائر المَقيت

فلما أحست مرجريت صوت پرونس نهضت لاستقبالنا ونظرت الى صديقتها نظر الشاكر الممتن وقالت لنا :

— تفضلا أيها السيدان على الرحب والسعة

الفصل التاسع

قالت مرجريت لصاحبي :

— عِمْ مساء ياعزيزى جستون ، انى مسرورة برؤيتك . لِمَ لم تدخل عليّ فى لوجى بمسرح « الفارايايتيه » ؟

— خشيت الفضول

— ان الأصدقاء لا يخشون الفضول أبداً

وأكدت مرجريت لفظة الاصدقاء ، كأنها أرادت أن تفهم الحاضرين أن جستون مع تبسطها معه فى الترحيب ورفع الكُلفة بينها وبينه لم يكن سوى صديق

— اذن أتأذنين لى أن أقدم اليك السيد أرمان دوفال ؟ . فقالت

— قد أذِنت لپرودنس فى هذا من قبل

فانحنيت وقلت جاهداً فى ايضاح نغمات صوتى ونبراته :

— ومع هذا ياسيدتى فقد حظيت من قبل بشرف التقدمة اليك.

فبعثت بعينيها الخاليتين تتذكر الماضى فما ذكرت شيئاً ، أو أنها عمدت الى الظهور بذلك . فقلت لها :

— سيدتى ، إنى أشكر لك نسيانك أول تقدم لى اليك لانى كنت فيها ظاهر السخف بيّن الحماقة ، ولا شك أنى بدوت لك عندها ثقيل الظل مأفون العقل . إنها كانت منذ عامين فى « الاوبرا كوميك » اذ كنت مع إرنست دى . . .

فقالت : ذكرتُ الآن ، وابتسمت مرجريت ثم عقّبت تقول :

— إلاّ أنه لم يكن بك السخف بل بى ، لأنى أنا الذى استفتحتك المناوشة ، وبادأتك المواثبة . لعلك غفرت لى يا سيدى ما كان ؟

ومدّت الىّ يدها فقبّلتها ، واسترسلت تقول :

— حقاً لقد اعتدت ويا سوءها عادة أن أُحرج الشخص الذى أراه للمرة الأولى . إنها سفاهة لا شك كبيرة وحماقة بالغة ، غير أن طبيبى يعزوها الى اهتياج أعصاب وآلام أوصاب لا أفتأ أعانيها . فثق بالله بما يقول طبيبى

— ولكن أمارة الصحة وتمامها يلوحان عليك

— إن يكن هذا فلشدّ ما مرضتُ مرضاً لقيت منه بَرْحاً

— أعلمُ ذلك

— فمن أعلمك إياه ؟

— كل القوم يعلمونه وقد أتيتُ غير مرة أسأل عنك فسرنى شفاؤك

— لم تصلنى بطاقتك

— لأنى ما بعثت قط بها

— أترى أنت الشاب الذى كان يأتى كل يوم يستفسر حالى أثناء مرضى ولم يشأ مرة أن يبوح باسمه ؟

— نعم أنا هو

— إذن فما أنت بالشفيق فحسب ، بل فوق ذلك جواد كريم

وألقت عليّ نظرة من تلك النظرات التي تُلقيها النساء عادة على الرجل لتستكمل رأيها فيه . ثم اتجهت الى الكُنت تقول له :

— ما كان يُرجى من مثلك هذا الصنيع يا كُنْت . فأجابها الكُنت :

— أنا لم أعرفك الا منذ شهرين . فقالت

— وهذا السيد لم يعرفني الا منذ خمس دقائق . لا تزال يا كُنت تجيب فلا تقول الا هَذْرا ولا تنطق الا هُراء

ما أقسى قلوب النساء على من لا يُحْبِبن من الرجال !

احمرّ وجه الكُنت وعضّ شفتيه ، فاستشعرتُ له رحمة اذ بدا لى أنه متيّم مثلى ، وأن صراحة مرجريت القاسية جرت من قلبه مجرى الحد الطرير ، ولا سيما في حضرة غريبين . فحاولتُ تغيير الحديث فقلت لها :

— قد كنت توقعين على البيَان عند دخولنا ، أفلا تُدخلين علينا سروراً بمتابعة ذاك ، فتصمين الكُلْفة وتعاملينا معاملة العُشَراء الأقدمين؟

فوثبتْ الى الكنبة وأشارت الينا أن نجلس الى جانبها وهى تقول :

— ان جستون يعرف أيَّ الموسيقى أوَقّع . انه لا بأس بمثلهـا اذا كنت وحدى مع الكُنت ، ولكنى لا أريد لكما معاناة استماعها

فأجابها الكنت وهو يبتسمُ ابتسامة حاول أن يكسبها لطفاً ويكسوها ظُرْفاً :

— فتلك طُرْفة تختصينني بها

— تخطئ اذا أنت عتَبْت عليّ فيها ، فانها الوحيدة لك عندى

فلم يستطع الشاب المسكين أن يجاوب الفتاة بذات شفة ، فألقى عليها نظرة توسل وابتهال . فاتجهت الى برودنس تقول لها :

— أأنجزت ما سألتك انجازه ؟

— نعم

— حسن ، فقصي علي ما كان من ذلك بعد . لا بد لي معك من حديث فلا تخرجي قبل أن يكون . فقلت عندئذ :

— نحن لا شك نثقل عليكما . فالآن وقد تقدمنا بل تقدمتُ اليك بالمعرفة للمرة الثانية كي تنسي تقدمتي الأولى فلم يبق الا أن أستأذنك في الانصراف أنا وصديقي جستون

— لا ، لن يكون هذا . أنا ما قصدتكما أنتما بقولي ، بل على النقيض من ذلك أود بقاءكما

فأخرج الكنت ساعة في غاية الحسن ونظر فيها ثم قال : حانت ساعة ذهابي الى النادي . فلم تجبه مرجريت بكلمة . فغادر مكانه من المصطلى وسار نحوها يحييها لينصرف :

— أستودعك الله يا سيدتي

— أستودعك الله يا عزيزي الكنت . لقد بكرت بالانصراف

— نعم ، فاني أخشى عليك الثقلة

— انك لم تثقل علي اليوم أكثر من ثقلتك في غيره من الأيام . متى نراك ؟

— متى أذنت ؟

— إذن فالوداع

تلك معاملة لا شك قاسية . ولكن الكُنت كان لسعد الطالع رفيع التربية طويل الأناة ، فاكتفى بأن قبّل من مرجريت يداً مدّتها اليه دون اكتراث وخرج بعد أن أشار الينا بالسلام . وبينا هو يجوز الباب ألقى نظرة على پرودنس فأجابته عليها بهزة من كتفيها فحواها : ماذا تريد مني وقد صنعت لك كل ما فى طاقتى ؟

فنادت مرجريت

— نانين . أضيئى السلم للكُنت

وبعدئذ سمعنا الباب فُتِح ثم أغلق ، وعادت مرجريت ساخطة صاخبة تقول :

— أف ! لقد فارق أخيراً . ما أشد ما يثقل علىّ هذا الشاب !

فقالت لها پرودنس : أى بنيّتى العزيزة ؟ أراك ذهبت فى إساءته بعيداً ، وأنت لا تجدين منـهُ الا احساناً وحسن رعاية . أنظرى الى المصطلى تجدى عليه ساعة تركها لك لا تنقص قيمتها عن ثلاثة آلاف فرنك

وقامت مدام دوفرنوا واقتربت من المصطلى وأخذت تلعب بالتحفة التى ذكرت ، وتلقى عليها من الجشع نظرات . فقالت لها مرجريت وهى تجلس الى البيان : يا عزيزتى ، انى اذا وضعت ما يعطيني اياه فى كفة وما يثقل به علىّ من القول فى كفة أخرى لرجحت هذه بتلك ، ولوجدت أنه ينقدنى عن زياراته اياى ثمناً بخساً

— ان الشاب المسكين يحبك

— اذا أصختُ لكل من يحبنى لم أجد وقتاً لطعامى فضلا عن سائر أمورى . وأمرّت أصابعها على البيان ثم اتجهت الينا تقول :

— ألا تتناولون شيئاً ؟ انى سأتنـاول قليلا من شراب « البنس »

فقالت پرودنس : وأنا سأطْعَم قطعة يسيرة من فرُّوج . هذا اذا أردتم العَشاء

فقال لى جستون : اذن فهيّا بنا نتعشى نحن أيضاً . فقالت مرجريت : بل نتعشى نحن جميعاً هنا . ودقت الجرس فجاءت نانين فقالت لها :

— ابغى فى طلب العَشاء

— وماذا يكون ؟

— ما تشائين ، ولـكن عجّلى عجّلى

فخرجت نانين ، فقالت مرجريت وهى تثب كالطفل

— مرحى امرحى ! سنأ كل قريباً . ما أثقل الـكُنت وما أسخفه !

وبقيتُ أتزود من هذه الغادة الفاتنة نظراً فتزيدنى من حسنها سحراً اى والله لقد كانت بديعة الجمال نادرة المثال حتى النحول كان منها رقة ولطفاً!

استغرقتُ فى أفكارى ، وشق علىّ أن أكشف كنه ما يختلج فى نفسى . قد كنت مفعما عطفاً عليها ، مفعما رثاء لحياتها التى تحياها ، مفعما إكباراً لجمالها . وشاهدتها ترفض شاباً ثرياً وسيما يود لو يشترى رضاءها بانفاق آخر درهم من ماله ، فقام رفضها هذا يعتذر لى عن خطاياها الماضية

لقد كان فى هذه المرأة شىء كصفاء النية ، وبياض الطوية ، ينطقان بأنها لا تزال فى الرذيلة صبيّة . وكانت خُطاها الثابتة ، وقوامها اللّدْنُ ، وأنفها الوردىّ المنفتح ، وعيناها النجلاوان يحفهما شىء من زُرقة ، كانت كل هذه دلائلَ مِزاج من تلك الأمزجة الحادة التى تنفح ما حولها طيباً خفياً يهفو بالنفوس اليها ، كطيب الشرق يسطع من نوافجه مهما أحكم سدها

وبعدُ فقد كان يظهر فى عينها لألاء، أُعْزُوهُ الى ما تشاء، الى مزاجها أو الى مرضها، الا أنه لا شك كان لألاء أمل . وما كان اتساع عينيها الا نذيراً بقرب اشتياقها كما يحب إنسان

إن من أحبوا مرجريت كثيرون، ولكنها لم تكن بعدُ أحبت أحداً

واختصاراً كان يجد المتأمل فى مرجريت عذراء أزلها شىء يسير فهوت، ويصلحها كذلك شىء يسير فتعود غاية فى الطهر، تحب فوق ما أحبت فتاة . انها لم تكن فقدت عزتها النفسية، ولا استقلال الذاتية، وذان وُجدانان جديران اذا نيل المرء فيهما أن يستفزاه الى ما كان يستفزه اليه الاحتشام ويستثيره الحياء

ظللتُ ما ظللتُ لا أفوه بكلمة ، فانى خلت أن روحى هجرت وقت ذاك كل ناحية من نواحى جسمى فازدحمت فى قلبى ، وأن قلبى بما فيه صعد فازدحم فى عينى . فابتدرتنى مرجريت بغتة تقول :

— إذن فأنت الذى كان يأتى يستخبر عنى إذ كنت مريضة ؟

— نعم

— أتدرى مقدار ما فعلت من الاحسان ؟ بماذا أشكرك ؟

— بأن تأذنى لى من وقت لآخر فى زيارتك

— زرنى متى شئت بين الساعة الخامسة والسادسة ، وبين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل . وأنت يا جستون تعال وقّع معى لحن « الدعوة الى الولز »

— ولماذا ؟

— لتسرّنى أولا ، ثم لأنى لا أستطيع توقيعه وحدى

— فأىّ الأجزاء يشق عليك ؟

— الجزء الثالث منه حيث النغمة منخفضة

فقام جستون الى البيان وبدأ يوقع ذلك اللحن البديع لحن « وبر »[1] وكان كتاب لحنه مفتوحاً أمامه

فاتكأت مرجريت باحدى يديها على البيان وأخذت تنظر الكتاب وتتبع بكلتا عينيها كل نغمة ، وتناغمها بصوت خافت ، حتى اذا أتى جستون الى القطعة التى كانت تشكوها رفعت صوتها بغنائها ، وتابعتها بأصابعها على مضرب البيان

— رى . مى . رى . دو . فا . مى . رى . . . هاك هو الجزء الذى لا أستطيع توقيعه . إبدأه مرة أخرى . فبدأ جستون مرة أخرى ، فقالت له لما بلغ تمامه : دعنى الآن أعالجه وحدى . وجلست مكانه وأخذت توقع فلم تسلس لها أصابعها ، وظلت تخطئ نغمة من هذه النغمات . فقالت بلهجة الطفل إذ يغضب :

— هل يدور فى حسبان أحد أنى لا أستطيع توقيع هذه القطعة ؟ أم هل يدور فى حسبانك أنت أنى قد أجلس حتى الساعة الثانية بعد نصف الليل أعالجها فلا أفلح . انى كلما ذكرت أن هذا الكنت الغبى يوقعها أحسن توقيع دون الكتاب نفست عليه ذلك ، ولعل هذا هو سبب حقدى واضطغانى عليه

وبدأت من جديد ولكن دون جدوى ، فصاحت :

— لعن الله الجميع : البيان والموسيقى و « وبر » !

(١) الموسيقى الالمانى المعروف ولد عام ١٧٨٦ ومات عام ١٨٢٦

وقذفت بالكتاب الى أقصى الغرفة وعقّبت تقول :

— أيُعقل أنى لا أستطيع أن أتابع بين ثمانى نغمات واطئة ؟

ثم كتفت ذراعيها وهى تنظر الينا وتضرب الأرض بقدميها ، فانبعث الدم الى خديها ، وفرّقت سعلة هينة بين شفتيها . فقالت لها برودنس وكانت قد خلعت قبعتها وأخذت تهندم شعرها أمام المرآة :

— لا تزالين تستسلمين لثورة الغضب فتمرضين . هيا الى العشاء فهو لك أولى وبنا أجدر . لقد كدت أموت جوعاً

فقرعت مرجريت الجرس تستعجل الخادمة ، وجلستْ الى البيان وبدأتْ أغنيةً مبتذلة بصوت وسط فلم تعانِ فى توقيعها أية معاناة . ورافقها جستون فلم يقصر عن متابعتها . فقلت لها بصوت فيه رقة الألفة ولين الرجاء : لا تغنى هذه البذاءات الفواحش . فقالت لى وهى تبتسم : ما أعفك وما أتقاك ؟ ومدّت يدها الىّ تهز يدى . فقلت لها انما لك أردتُ الخير لا لى . فأشارت مرجريت كأنها تقول : مالى وللتعفف وقد طلقته منذ بعيد ؟

ثم طلعت نانين علينا فسألتها مرجريت

— أحضَر الطعام ؟

— نعم يحضُر بعد برهة ياسيدتى

فقالت لى برودنس :

— على الذكرى ، أنتَ لم تر دار مرجريت فقم حتى أريك اياها

فصحبتنا مرجريت قليلا ، ثم نادت جستون وذهبت به الى غرفة المائدة لترى الطعام جهّز أم لا . فصاحت برودنس بأعلى صوتها بمرجريت حين وقع نظرها على تمثال من خزف سكسونى على رف :

— اسمعى يامرجريت ! انى ماعهدت عندك تمثال هذا الرجل القصير الساذج . فقالت مرجريت :

— أى تمثال ؟

— تمثال راع صغير يحمل قفصاً به عصفور

— خذيه اذا شئت

— أخشى أن أحرمك اياه

— انى كنت أريد أن أعطيه لخادمتى ولكنى استقبحتُ منظره ، أما إذ أعجبك فخذيه

فعلقت پرودنس عينها بالهدية وعميت عن صيغة الاهداء . فوضعت التمثال جانباً وقادتنى الى حجرة الزينة حيث أرتنى صورتين على الحائط وقالت لى

— هذا هو الكُنت دى ج . . . الذى تيمه حب مرجريت ، وهو أول من خطا بها الى هذه الحياة . أتعرفه ؟

— لا . ومن هذا ؟ وأشرت الى الصورة الأخرى

— هذا هو الفيكُنت دى ل . . . الصغير وقد اضطر الى فراقها

— لماذا ؟

— لأنه أفلس الا قليلا

— وهى لاشك أحبته كثيراً

— إنها بنت غريبة الأطوار عجيبة الأحوال فلا يستطيع الانسان أن يتعرّف بواطنها و يستكْنه مقاصدها . لقد بكتْ لدى فراقه ، ومع هذا ذهبتْ فى مساء ذلك اليوم كعادتها الى المسرح

ثم ظهرت نانين وقالت إن المائدة قد أعدت

فدخلنا الى الطعام فوجدنا مرجريت مستندة الى الحائط وجستون ممسكا بكلتا يديها يكلمها بصوت خافت جداً. فسمعتُ مرجريت تقول له :

— أنت مجنون ، أنت تعلم علم اليقين أنى لا أريدك . ما بعد التعارف بعامين يُطلب وصل مثلى . لسنا يا سيدى كالنساء . انّا نهب أنفسنا فى الحال أو لا نهبها أبداً .

واستخلصتْ نفسها من يديه . وأجلسته من المائدة الى يمينها ، وأجلستنى إلى يسارها ، ثم قالت لنانين :

— قبل أن تقعدى قولى لمن فى المطبخ ألا يفتحوا الباب اذا قرع أحد

وكان هذا فى الساعة الأولى بعد منتصف الليل

فكان ما كان من ضحك وشراب وأكل كثير . وما لبث هذا السرور أن تسفّل إلى الحضيض ، وأخذت تقذف الأفواه بكلمات فاحشات مُزريات بين التهليل والضجيج ، كلمات تعدها فئة من الناس سبباً الى السرور ، وما هى الا الرَّوث لا بد أن يترك أثره كريهاً على أفواه قائليه . وخلع جستون عِذاره وكان شاباً ذا قلب كريم ، الا أن عاداته الأولى أفسدت روحه بعض الفساد . ومرّت بى ساعة أردت فيها أن أجُد لما أرى ، وأن استشعر قلبى وفكرى قلة اهتمام بما يقع على عينى ، بل فوق ذلك أردت أن آخذ نصيبى من هذا السرور الزائط ، وقد كان كأحد ألوان المائدة لا بد من تعاطيه لمن جلس اليها . ولكنى وجدتنى انجذب غير مختار عن هذه الضجة رويداً رويداً وكأسى لا تزال مُترَعة . وأخذت

تعروني انقباضة للفتاة وحزن لها — فتاةٌ ذات عشرين تشرب وتُفحش كما يفعل سَقَط العامة وسِفْلتهم ، وتضحك بصوت يزداد علواً كلما ازداد ما تسمع من الهُجر نكرا .

ومع ذلك فان هـذا السرور المفرط ، وأسلوب الكلام والشراب الذي عزوته في غيرها ممن حضر الى دعارة أو عادة أو قوة فياضة في الجسد ، لم أعزُه في مرجريت الا الى خُطَّة تركبها اضطراراً لتنسى همها ، أو الى ثائرة حمى أو هائجة أعصاب . وظلت تشرب « الشمبانيا » فتتقد وجنتاها احمراراً لكل كأس ، وأخذت سَعلة كانت هينة عند بدء العشاء تشتد في آخره فتضطرها الى أن تسند رأسها الى ظهر مقعدها ، وتمسك صدرها بكلتا يديها خشية أن يتمزق .

ما أشد ما تألمتُ لتلك البلايا يجرّها السَّرَف كل يوم على هذه البِنْية الضعيفة النحيلة .

ووقع أخيراً ما توقَّعت وخشيت : عَرَت مرجريتَ وقد كاد ينتهي العَشاء نوبة سعال أشدّ من أية نوبة انتابتها من ساعة دخولي عندها . فخِلتُ صدرها تتقطَّع رئتاه ، وازرق لونها ، وانسدل من شدة الألم جفنها ، ورفعت مِنشفتها الى شفتها فعلِقت بها نقطة من دم . ثم قامت فجرت الى متزيَّنها .

فتساءل جستون

— ماذا جرى لمرجريت ؟ فأجابته پرودنس

— ضحكت كثيراً فبصقت دماً . ليس هذا بشيء ، فهو يحدث لها كل يوم . إنها سترجع فاتركوها وحدها فالوَحدة أحب اليها

أما أنا فما أطقت صبراً وهممت باتباعها ، فدهشت تانين وبر ودنس فلم أعبأ بهما ، واستدعياني فما أصخت لهما ، واندفعت الى مرجريت

الفصل العاشر

كانت الحجرة التى لجأت اليها مرجريت تضيئها شمعة واحدة على منضدة ، وكانت مستلقية على كنبة مفكوكة الأزرار قد وضعت إحدى يديها على قلبها وتركت الأخرى مُرخاةً الى جنبها ، وكان على المنضدة حوض من الفضة مملوء الى نصفه ماء تعلوه تجازيع من دم أسود

وكانت المسكينة صفراء متباعدة الشفتين تسترجع أنفاسها ، وكان صدرها يرفعه أحياناً أنفـــاس طويلة تزفرها فتستشعر على أثرها راحة تستديم لحظات . فاقتربت منهـا دون أن تتحرك ، وجلست الى جانبها وأمسكت يدها المرخاة على الكنبة ، فقالت باسمة الىّ : أهذا أنت ؟

وكأن معالم وجهى فضحت ما أنا فيه من الخبلة . فقالت :

— أمريض أنت أيضاً

— لا . ولـكن ما بالكِ أنتِ ؟ ألا تزالين تتألمين ؟

— آلمُ قليلا

ثم مسحت بمنديلها دمعات قد بعثها السعال فى عينيها وقالت : لقد أصبحت آلف هذه الحال . فأجبتها بصوت هدّجه عطفى عليها : انك بهذا تقتلين نفسك يا سيدتى . وددتُ لو كان بينى وبينك وُدّ أو رحمٌ لكى أحميك من الاضرار بنفسك هكذا . فأجابتنى بصوت حزين : هوّن

عليك فان حالى لا تَعدِل كل هذه الخشية ، ولا تتطلب كل هذا الهم . أنظر الى غيرك من هؤلاء أترى منهم من يُشْغل بى ؟ ذلك لانهم يعلمون حق العلم أنهم لا يستطيعون لمثل دائى دواء

قالت ذلك وقامت الى الشمعة فوضعتها على المُصطلى ، وطالَعتْ وجهها فى المرآة ثم قالت : ما أشد امتقاع لونى ! وزرّت ثوبها وأمرّت أصابعها على شعرها المنفوش وقالت لندع هذا ولنذهب الى المائدة . ألا تذهب ؟

ولكنى كنت جالساً فلم أتحرك ، فتبيّنت ولاشك أثر هذا المشهد فىّ فاقتربت منى ومدّت الىّ يدها وقالت : هيا بنا . فأخذتُ يدها ورفعتها الى شفتىّ فسقطت عليها على الكره منى دمعتان غالبتُ حبسها طويلا . فقالت

— ماذا ! أأنت طفل ؟

وجلستْ الى جانبى مرة أخرى وقالت :

— أتبكى ! علام تبكى ؟ فقلت

— لا شك أنك تحتقرين مشهدى الآن ، ولكنّ ما رأيتُ قد ساءنى سوءاً كبيراً

— ما أطيبكَ ! ولكن ماذا ترانى أفعل ؟ انى لا أذوق للنوم طعما فلا بد لى أن أروّح عن نفسى قليلا بأمر ما . ومع هذا فماذا يضرّ الكونَ اذا نقصتْ منه واحدة من الفتيات أمثالى أو زادت واحدة ؟ ان الأطباء يخبروننى أن ما أبصق من الدم انما يأتى من الشُعَب ، وأنا أدعى الايمان بما يقولون ، وهذا غاية ما أستطيعه لهم

فأجبتها مستشعراً حرارة الخلاص لم أقدر على اخفاء أثرها

— إسمعي مني يا مرجريت . لست أدرى أى أثر يحجبه الغيب سيكون لك فى حياتى ، ولكنى أدرى أنْ ليس الآن ثَمّ من أحد يشغل همى ويستغرق عنايتى أكثر منك . أختى نفسها لا تصيب من ذلك ما تصيبين . هكذا وجدت نفسى منذ رأيتك أول مرة . لذلك أتوسل اليك باسم الله أن تُعْنَى بأمر نفسك وألا تَحْيَى هذه الحياة التى أرى . فقالت: اذا عُنيت بأمر نفسى على ما ترى فانى لا محالة هالكة . إنّ الذى يحبس رمقى هو تلك الحياة المضطربة التى أحياها . وفوق هذا فالعناية بالنفس تحسن بامرأة مُحْصَنة لها أسرة ولها أصدقاء ، أما نحن فلا نلبث اذا أبينا القيادَ لغرور عشاقنا واستماع أهوائهم أن يهجرونا فتتوالى علينا أيام طوال تتعاقبها ليالٍ أشدُّ طولا . أقول ذلك على علم . إنى لزمت فراشى شهرين لم يمض منها غير ثلاثة الأسابيع الأولى حتى انقطع من كان يزورنى فلم يقرع بابى بعد ذلك أحد . فأجبتها : فى الحق أنه ليس بينى وبينك قرابة ولكنك ان أردت ، أقمت لديك أمرضك وأتعهدك بالشفاء ، حتى اذا تعافيت عدت اذا شئت الى مثل هذا النمط من الحياة . على أنى واثق أنك عندئذ تختارين حياة هادئة تكفل سرورك وتحفظ عليك هذا الجمال . فقالت

— هذا رأيك الليلة وقد أصابتك الراح بكآبة من أجلى ، ولكنك لن تقوى على ما تتشدق به الساعة من الصبر الى جانبى

— عفواً يا مرجريت اذا ذكّرتك بأنك مرضت شهرين لم ينقض يوم منها دون أن أسأل عنك

— هذا حق ، ولكن ما الذى منعك أن تصعد الىّ ؟

— انى لم أكن تعرفت اليك

— أوَ تلتزم المراسم مع فتاة مثلي

— لا بد من التزام المراسم مع المرأة على كل حال . هذا رأيي

— فعلى ذلك ستمرّضني ؟

— نعم

— وتقيم كل يوم الى جانبي ؟

— نعم

— وكل ليلة كذلك ؟

— كل وقت ما لم تسأمي

— وماذا تسمي هذا ؟

— اخلاصاً لك

— ما منشؤه ؟

— عطف عليك لا أدفعه

— اذن أنت تحبني ، قل هذا واختصر فانه أيسر

— قد يكون ذلك . على أنه لو قُدّر لي أن أبوح لك بأمر كهذا فلن يكون اليوم

— تحسنُ اذا لم تبح لي بشيء أبداً

— لِمَ ؟

— لانك ان بحت كان أحد أمرين

— وهما ؟

— إما أن أرفض فتغضب ، وإما أن أرضى فيكون لك مني خليلة كئيبة ، امرأة عصبية مريضة حزينة أو فرحة فرحاً أشد كآبة من

الحزن ، امرأة تقذف باللم من رئتيها ، امرأة تنفق مائة ألف فرنك فى السنة ، وهذا مبلغ ليس بالعسير على رجل كالدوق الشيخ ، ولكنه عسير كل العسر على شاب مثلك ، يدلك على هذا أن أخلاّئى من الشبان لم يلبثوا معى الا قليلا

لم أنبس بحرف وانما أنصتُّ ، فقد أثّرت فى نفسى تلك الصراحة التى كادت تكون اعترافاً ، وتلك الحياة الأليمة التى لم أر منها الا بمقدار لمحة واحدة أصبتها من خلال ذلك النقاب الذهبىّ البراق قد تحجب دونه البؤس والشقاء . لم تُطق الفتاة المسكينة أن تستيقن حقيقة حالها ، فأرادت أن تفرّ من يقينها بالسَّرَف فى الشراب والافراط فى السهر والشطط مع الأهواء

ثم استتبعت مرجريت تقول

— هيا بنا ودع لغوَ الكلام . أنِلْنى يدك ، وهلمّ الى غرفة الطعام . لن يعلم أحد ماسبب غيبتنا . فقلت لها

— اذهبى أنت اذا راقك الذهاب ، أما أنا فاسمحى لى بالبقاء هنا

— لِمَ ؟

— لانى أتفجع لابتهاجك

— اذن ألزم الحزن

— انصتى يامرجريت ودعينى أقل لك شيئاً طالما سمعتِ ولاشك مثله فلم تعودى تؤمنين بصدقه ، إلا أنه مع هذا حق لاريب فيه ، ولن أعيده عليك مرة أخرى

— وما ذاك ؟

وابتسمت ابتسامة الأم اذ تستمع لعبث صغيرها

— ذاك أني منذ رأيتك حللت مني محلا لا أدري لِمَ حللته ولا كيف . ذاك أني طاردت خيالك من فكري غير مرة وأبى إلا أن يعود . ذاك أني اليوم لقيتك بعد سنتين لم تكتحل أثناءهما منك عيني فكان لك السلطان الأكبر على قلبي وعقلي . وأختم بأني الآن اذ تقبلينني في دارك ، الآن اذ عرفتك ، الآن اذ تكشفت لي خبيئة غريبة رائعة من نفسك ، الآن لامندوحة لي عنك ، أكاد أجن اذا توهمت أنك لن تأذني لي في حُبّيك فضلا عن حبك اياي

— ولكن ألا تدري أيها الرجل التعس أني أنفق في الشهر ستة آلاف فرنك أو سبعة ، وأنه لا بد من هذا المقدار لحياتي ووجودي . أي عزيزي المسكين انك لاتعلم اني أفقرك في فترة يسيرة ولمحة قصيرة . وأن أهلك ينبذونك اذ يجدونك تعيش مع مخلوقة مثلي . أحِبّني قدر ما تهوى ، أحِبّني ولكن حبّ الصداقة لاغيره . زرني نضحك ونتسامر ، ولا تبالغ في تقدير قيمتي ، فالحقَّ أقول اني لا أساوي شيئا كبيراً . ان في صدرك قلباً طيباً يُغري بحبك ، ولك شباب لايزال في إبانه غضاً طرياً ، واحساسٌ دقّ عن احتمال العيش في دنيانا هذه ، فاتخذ لك امرأة غيري محصنة . ألا تأنس مني في قولي هذا بفتاة طيبة القلب تمحض لك نصحها ؟

ودخلت حينئذ برودنس علينا من حيث لاندري وصاحت بنا

— ماذا تفعل الشياطين هنا !

وكانت لم تَعْدُ بعدُ عتبة الباب وهي في شعر منفوش وثوب مهدول عرفتُ فيه يد جستون قد عبثت به فسبّبت مااختل من هندامه .

فأجابتها مرجريت

— اذهبي عنا الآن فانا نتحادث في غير عبث ، وسنلحق بكم قريباً .

فقالت :

— حسن حسن ، تحادثا ياولدىّ ماشئتما

ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها بصوت مزعج كأنما ارادت ان تستكمل به صوتها . ولما صرنا وحدنا استطردت مرجريت تقول

— اتفقنا اذن على انك لاتعود تحبنى بعد الآن ؟

— اذن فعليك السلام فانى منصرف

— أبلغ قولى منك هذا المبلغ ؟

وكنت بلغت في الخروج حداً عزّ علىّ فيه الرجوع . خيلتني هذه الفتاة كرهاً ، وادركتُ من ابتهاجها وحزنها وعهرها ، حتى من مرضها الذى زاد في حسنها وهاج من أعصابها ، انى اذا لم اظهر لاول مرة بالسلطان عليها واسيطر على هذه الطبيعة النسّاءة الخفيفة افلتتْ منى لامحالة وأصبحتْ فَوْتَ يدى الى الابد . فقالت لى

— وبعدُ ، اجدٌ كل ماتقول ؟

— غاية في الجِد

— ولِمَ لم تبادر به الىّ قبل الآن ؟

— متى امكننى ذلك ولم افعل ؟

— غد اليوم الذى تقدّمتَ الىّ فيه فى « الاوبرا كوميك »

— أظنك ما كنت تحسنين استقبالى لو كنت عدُتك ذلك الغد.

— ولِمَ ؟

— لان مشهدى كان عندك سخيفاً فى أمسه

— حقاً ، ولكن أ كنت تحبنى منذ يومئذ ؟

— نعم

— حب لم يمنعكَ أن تذهب الى دارك فتنـام ملء جفنيك . إنّا خبيرات بأمثال هذا الحب المُجهد وأنباء هذا الغرام المُسهد

— انك تخطئين . هل أتاك نبأ ما كان منى فى ذلك المساء ؟

— لا

— ارتقيتك على باب القهوة الانجليزية ، وتبعتُك لما أقلّتك المركبة أنت ورفاقك الثلاثة ، وأحسست السرور يدخل الى قلبي بدخولك دارك منفردة

فضحكت مرجريت . فسألتها

— ممّ تضحكين ؟

— من لا شيء

— أصْدقيني بالله وإلا داخلنى أنك لا تزالين بى تسخرين

— واذا أنا صَدَقتك أفلا تغضب ؟

— وهل لى أن أغضب ؟

— اذن فقد كان عن سببٍ دخولى الدار منفردة

— وذلك ؟

— ذلك أنه كان ينتظرنى بها انسان

لو أن مديّة أصابتنى ما توجعت منهـا توجعى مما قالت . فنهضت ومددت يدى بالسلام قائلا :

— وداعاً ! فقالت

لقد علمت أنك تغضب . هكذا وجدنا الرجال لا يفتأون يتشبثون بعلم ما لو بدا لهم ساءهم أكبر السوء

فجاهدتُ نفسي أن أظهر بسكون حال وهدوء بال كأني أردت أن أثبت لها أني برئت الى الأبد مما ثار من غيرتي وقلت

— أؤكد لك أني ما غضبت . انه لا غرابة أن ينتظرك في دارك انسان كما انه لا غرابة أن أستأذنك في الانصراف في الساعة الثالثة صباحاً

— وهل ينتظرك أحد في دارك ؟

— لا ، ولكن وجب ذهابي

— اذن فالوداع

— أتطردينني ؟

— لا ، كيف جاءك أني أطردك ؟

— اذن فما ايلامك اياي ؟

— أي ايلام ؟

— قلت لي انه كان ينتظرك في دارك أحد

— اني لم أتمالك أن أضحك إذ رأيتك سُررت بدخولي الدار منفردة وقد كان انفرادي عن سبب لا تستهين به

— قد يجد المرء في حسبان باطل ووهم كاذب طُمأنينة للخاطر ، ومبعثاً للسرور ، فمن القسوة القضاء على ذلك بكشف الغطاء عن حقائق كواذب يجد المرء بتوهمها غبطته ، ويأنس فيها سعادة عيشه و بسطته

— ولكن من هي التي تخال انك تصير معها . لستُ بالعذراء ولا

الدوقة . أنت لم تعرفني غير اليوم ، ولست تدرى بعدُ كنه أحوالى ، فاذا فرضت اني أكون خليلتك يوماً فلتعلم انه كان لى قبلك عشاق . انك تغار ولم يأت بعدُ هذا اليوم ، فماذا تفعل ان أتى ، ان كان فى القدر المقدور أن يأتى . انى لم أر مثلك رجلا

— نعم ، لأنه لم يحبك أحد حبى لك

— هلمّ اذن واكشف لى عن مكنون صدرك صريحاً . أقدْرَ هذا تحبنى حقاً ؟

— قدرَ ما يستطيع أن يحب انسان

— وهذا منذ . . . . ؟

— منذ يوم رأيتك فيه تنزلين من مركبتك فتدخلين الى مخزن « سوس » منذ أعوام ثلاثة

— أتدرى أن هذا منك صنيع فى معنى الحسن بديع رفيع . بمَ أشكره لك ؟

فدقَّ قلبى حثيثاً فكاد يحبس صوتى عن الجواب لانى أحسست كأن مرجريت بدأت تشركنى فى خبلتى وتتقاسمنى اضطرابى على الرغم من بسَمات خفيفة ساخرة لم تبرح ثغرها طول الحديث ، وشعرتُ كأن الساعة التى ارتقبتها من أمد بعيد أصبحت منى قاب قوسين . فأجبتها

— بأن تحبينى قليلا . فقالت

— والدوق ؟

— أى دوق ؟

— دوق الشيخ الغيور

— لن يعلم من الأمر شيئاً

— وإذا علم ؟

— يصفح عنك

— لا ، وا أسفاه ؟ بل يهجرني ، فماذا يكون بعده مني ؟

— لقد قامرتِ بصداقته من أجل غيره

— كيف أتاك هذا ؟

— ألمَ توص الخدم بألا يُدخلوا عليك أحداً هذه الليلة ؟

— هذا حق ، ولكن الدوق صديق صدوق

— صدوق حيّتِ بابك دونه الساعة

— لستَ من يأخذ عليَّ ذلك ، فاني انما فعلته لاستقبالك أنت وصديقك

وكنتُ اقتربت من مرجريت رويداً رويداً وطوّقت بذراعيَّ خصرها الدقيق فأحسست قَوامها الرشيق يثقل على كفيَّ المتشابكتين هيّناً خفيفاً ، فقلت لها :

— ألا لو تعلمين الى أي حد بلغ حبك مني !

— أحق ما تقول ؟

— بالحَلِف أعززه

— اذن فعِدْني أن تُنفذ ما أشاء دون مقاطعة ، وتأتي ما أريد بلا مساءلة أو مراجعة ، أعِدك بأني ربما أحببتك

— لك ما تشائين .

— ولكني أعلنك الآن أني لا بد أن أكون حرة ، أصنع مايتراءى

الخيرُ لى فيه وأنى لن أُعلمك من دقائق حياتى شيئاً . لقد طالما طلبتُ فلم أجد شاباً طيّعاً لا إرادة له يُحِب ولا يرتاب ، و يُحَب ولا يرى ذلك على الناس حقاً . لقد وجدنا الرجال لا يلبثون أن ينالوا منا مرّات عدة ما لم يكادوا يؤملون أن ينالوه مرة واحدة حتى يتطلبوا من خليلاتهم تقديم حساب عن حاضرهن وماضيهن ، حتى عن مستقبلهن ؛ وكلما جرى الزمن بزيادة الألفة بينهم و بينهن زادوا رغبة فى التسلط عليهن ، ولجاجاً فى طلب كل ما يدور من شىء فى حسبانهم منهن ، فاذا أنا ارتأيت اليوم أن أتخذ لى حبيباً جديداً وجب أن تتوافر فيه خصال ثلاث نادرة الحصول : الثقة ، والطاعة ، والحزم

— سأكون عند ما تودين

— سنرى

— ومتى نرى ؟

— بعد حين

— ولِمَ ؟

— لأنه ليس فى المقدور دائماً أن تنفذ المعاهدة فى نفس اليوم الذى توقّع فيه . ليس فهم هذا عسيراً

واستخلصتْ نفسها من بين ذراعىّ وذهبت تقتطف لى زهرة من طاقة من زهر الكمليا الأحمر أتتها فى الصباح ثم أتت بها فأدخلتها فى عُروتى تزين بها صدرى فضممتها الى قلبى وقلت لها

— متى اللقاء !

— عند ذبول هذه الزهرة

— فمتى تذبل ؟

— غداً بين الحادية عشرة ومنتصف الليل . أراضٍ أنت ؟

— أتسألينى فى الرضا ؟

— لا تنطق بكلمة مما جرى الى صديقك أو پرودنس أو أى أحد

— أعدك ذلك

— الآن قبّلنى وهيّا بنا الى المائدة

ومالت الىّ بشفتيها ثم أصلحت شعرها وخرجت من الغرفة جاهرة بالغناء ، وخرجت ُ نصف مجنون ، وأوقفتنى فى البهو وأسرّت الىّ :

— لعلك أدهشك أنى أجبتك الى القبول هكذا سريعاً . أتدرى ما سبب هذا ؟ وأخذتْ يدى الى قلبها فأحسسته يدق دقاً قوياً حثيثاً وقالت :

— سبب هذا أنى لن أعمّر طويلا فاعتزمت أن أحصّل من مُتَع العيش فى سنواتى القصيرة ما فاتنى أن أحصّله فى سنواتى الكثيرة . فقلت لها

— أمسكى بالله عن مثل هذا القول

فعقّبت ضاحكة

— هوّن عليك فلن يزيد أمد حبك لى على حياتى مهما قصرتْ

ودخلت غرفة المائدة وهى تغنّى فوجدتْ جستون وپرودنس وحدهما فصاحت بهما

— أين نانين ؟ فأجابتها پرودنس

— ناعسة فى مخدعك تنتظر ساعة نومك

ـــ يالها من مسكينة ! سأقضى عليها بالفناء . الآن ياسادة آن أن تنصرفوا

وبعد عشر دقائق خرجت أنا وجستون ، وهزت مرجريت يدى مستودعة ورجعت الى پرودنس

فلما جزنا باب الدار قال لى جستون

ـــ ماذا ترى فى مرجريت ؟

ـــ ملكتْ علىّ فؤادى

ـــ حدستُ ذلك . فهل بُحت لها به ؟

ـــ نعم

ـــ فهل أمنت الك عليه ؟

ـــ لا

ـــ هذا غير ما كان من پرودنس

ـــ هل أمنت لك ؟

ـــ صنعت فوق ذلك يا عزيزى ما لا يدور فى حُسبان . انها لاتزال جميلة بدينة

الفصل الحادى عشر

ولما بلغ أرمان من قصته هذا المبلغ قام وقال لى : انى أحس البرد ، فأرجو منك أن تغلق النافذة ريثما أرقد فى فراشى . فأغلقت النافذة وخلع بذلته وصعد الى الفراش . وكان لايزال عليه الضعف باديًا ، فأراح رأسه برهة على الوسادة كمن أجهده سباق طويل ، أو أمضته ذكريات مؤلمة . فقلت له

— لعلك تكلمت فأسرفت ، فهل ترى أن أنصرف عنك الآن لتنام . أما القصة فتتمها لى فى غير هذا اليوم

— أراك سئمتها يا صاح

— انا على النقيض من ذلك

— اذاً أتمها الآن ، فانك لو تركتنى وحدى فلن يجد النوم الى عينى من سبيل

ثم استأنف يقص دون أن يعمل فكره أو يجمع ذهنه ، فان الجم الكثير من دقائق الحوادث كان لايزال حاضراً بيّناً فى ذهنه . قال :

— ولما عدتُ الى دارى لم أنم . بل أخذت أفكر فيما حدث فى النهار المنصرم ، فى مقابلة مرجريت ، فى التقدمة اليها ، فى تعاهدنا وجهاً لوجه . كلها حوادث غير منتظرة ، أتت تباعاً ، ومرت سراعاً ، حتى لقد داخلنى الشك فترات من الزمن يسيرة حسبت فيها أنى حلمت . على انى كنت أعود فيخطر لى أن هذه لم تكن أول مرة وعدت فيها فتاة

كمرجريت أن تجود بوصلها لرجل فى غد اليوم الذى سألها فيه أن تجود إلا أن هذا الخاطر لم يؤثر فىَّ أثراً ، فقد سبقه أثرٌ أولدته فىَّ خليلتى المستقبلة بقوة لم تكن لى معها إلا الاذعان . فكنت أكابر حجتى ، ولا ارضى لنفسى ان تعتبر مرجريت بنتاً كغيرها من بنات الهوى . وداخلنى غرور الرجال فتهيأت نفسى لأن أعتقد أن قد غلبها حبى كما غلبنى حبها

لا ريب كانت تحضرنى من مرجريت أمور متناقضة لم أخرج منها بنتيجة واضحة : أسمع أن حب مرجريت كان فيما مضى كالسلع تغلو وترخص تبعاً للسوق الحاضرة ، وأراها ترفض الكنت الذى وجدناه عندها رفضاً متتابعاً ، فأحار فى التوفيق بين سمعة السوء تلك وبين هذا الاباء المتوالى . قد تقول إن الكنت لم يرُق فى عينها ، وانه اذا كان محبها الدوق يكفيها من الرزق ما فوق الكفاية ، ويُرفهها ترفيهاً ، فانها اذا أرادت أن تتخذ محباً غيره فهى لا شك مختارة رجلاً حبيباً الى نفسها . ولكن قل لى لِمَ لم تختر لنفسها جستون ذلك الجميلَ الفطنَ الغنى ، واختارتنى أنا الذى ظهر لها سُخفى فى أول مرة رأتنى

الحق أنه من الحوادث ما قد يعرض فى دقائق قليلة ، فيكون أجدى نفعاً وأكبر أثراً مما يحدث فى بحر سنة طويلة

لم يكن من بين من حضر العشاء أحد أقلقه قيامها عن المائدة غيرى . ولقد تبعتها واضطربت ولم أستطع اخفاء اضطرابى . وبكيت وأنا أقبل يدها . فكل هذا ، الى زيارتى اياها كل يوم وهى مريضة مدة شهرين جعلها تجد فىَّ رجلاً غير من عرفت من الرجال . ولعلها قالت فى نفسها ماذا يضيرها لو أجابت محباً هذا مكانه من الاخلاص الى مثل ما أجابت كثيراً

اليه مرات عديدة

كل هذه الفروض كما ترى محتملة مقبولة . ولكن مهما يكن من سبب ارتضائها اياى ، فالأمر الذى لا ريب فيه هو انها ارتضتنى وكنى كنت أحب مرجريت ، وأذهب لأراها ، ولا أستطيع أن أطلب منها فوق ماحصل . ولكن مع هذا أكرر القول أنى على علمى بأنها فتاة حظى بها من حظى ، فقد أحببتها حباً لغير غاية ، حتى انى كلما اقتربت الساعة التى ليس بعدها لمحب مطمع ، زادت نفسى شكاً وارتيابا كا . وربما كان هذا منى ذهاباً بجنى مذاهب الشعراء

لم تغمض لى عين طول الليل ، ولم أكد أشعر لى بذات أو وجود . كنت بين العقل والجنون . طوراً أرانى ليس بى كفاية من جمال ومال وظرف لأحظى بفتاة كهذه ، وتارة أحس الغرور يعلونى اذا خلت أنى حظيت بها . ثم تفزعنى خشية الا يكون لى فى قلبها الاهوى طيار لا يستقر غير أيام ، فاشفق من قطيعة باغتة ، فأقول خير لى ألا أذهب اليها فى المساء ، وأن اكتب لها بمخاوف نفسى وأرحل عنها . ثم أنتقل من هذا الخوف الى أمل لا حد له ، والى ثقة لا ثقة بعدها ، فأحلم عن مستقبلى أحلاماً بعيدة التصديق . وتحدثنى نفسى أن هذه الفتاة سيكون لى الفضل فى شفاء جسمها وطهارة روحها ، وانى سأعيش معها طول حياتى ، وان حبى إياها سيورثنى من السعادة ما كان يورثنى حبى أطهر عذراء كانت أو ستكون

وأخيراً لا أستطيع ان اعيد عليك الفكر العديدة التى أصعدها قلبى الى رأسى ، والتى خيم على النوم وعليها ، فاختفت أشباحها رويداً

رويداً تحت ظلامه عند انبلاج الصباح

واستيقظتُ في الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت السماء ضاحكة، والحياة أحفل ماوجدت، وأجمل ما أذكر أني رأيت. وعاودتني ذكرى عشية الأمس بيضاء لا تشوبها شوائبه ولا مخاوفه، يحفها من جوانبها ما كان به من أمانٍ حسان. وارتديت ملابسي سريعاً. لقد كنت مسروراً أشعر أني اهلٌ لكل عمل مجيد. وكنت أحس ان قلبي يكبر آونة فآونة إذ يملؤه الفرح والحب فيضيق عنه صدري. وكانت ترعدني رعدة حمى خفيفة حلوة ولم يزعجني من التردد بين أخذ الآراء ودفعها كالذي كان قبل نومي، فلم أنظر من الأمر هذه المرة الا الى نتيجته ولم يقع بصري الا على الساعة التي فيها أرى مرجريت مرة أخرى

واستحال عليَّ القرار في داري. فقد كنت إخال أنها ضيقة لاتتسع لسعادتي، واني في حاجة الى العراء، الى البسيطة، الى الكون أجمع ليتسع لها

فخرجت ومررت في شارع أنتين فوجدت مركبة مرجريت تنتظرها على بابها. فدلفت الى جانب الشانزيليزيه فأحسست وأنا أسير في الطريق أني أحب كل من أرى من الناس، من عرفت منهم ومن لم أعرف

لله الحب! ولله طيبة جمة يبعثها في القلب!

وفي ختام ساعة قضيتها في التردد بين «أحصنة مارلي» وبين «دوندوان» لمحت مركبة تأتي من بعيد كأنها مركبة مرجريت. رأى بصري فشكَّ، وتنبأ قلبي فأيقن

وعند ما أخذت المركبة تدور عند زاوية الشانزيليزيه استوقفتْ مرجريت السائق ، وانفصل شاب طويل عن جماعته فى الطريق وأتى اليها يحادثها

وتحادثا بُرهات ، ثم عاد الشاب فاتصل بأصدقائه وانصرفت المركبة . ولما اقتربتُ من تلك الجماعة التى اتصل الشاب بها عرفتُ أنه الكونت دى ج . . . الذى رأيت تمثاله والذى أخبرتنى پرودنس عنه أنه أول من خطا بمرجريت الى هذه الحياة

هذا هو الذى حمت مرجريت منه بابها العشية الماضية . ولقد خلت عند ما استوقفتْ عربتها له أنها أرادت أن تعتذر اليه مما كان من منعها اياه فى المساء الماضى ، وارتجيت أن تكون قد وجدت عذراً حاضراً يمنعه من زيارتها فى المساء الآتى

وانقضى النهار ولم أشعر بشيء مما جرى فيه . نعم لقد مشيتُ ودخنت وحادثت كثيرين الى الساعة السادسة ، ولكن ماذا قلت ، ومن الذين لقيتُ فحادثتُ ، كل ذلك لم يبق له فى ذاكرتى عندئذ من عين ولا أثر . وغاية ما أذكر أنى عدت الى دارى ، وأنى قضيت ثلاث ساعات فى هندمة نفسى ، وأنى نظرت ساعة الحائط وساعة جيبى مائة مرة ، ولشقوتى كانتا تدوران على مهل معاً . ودقت الساعة عشرة ونصفاً ، فقلت هذ أوان الرحيل

وكنت أسكن تلك الأيام شارع « پروفنس » فسرت الى شارع « الجبل الأبيض » واخترقت « البلفار » واتخذت سبيلى شارع « لويس الأكبر » فشارع « پورت ماهون » فشارع « أنتين » ونظرت نوافذ

مرجريت فألفيت نوراً بادياً منها

فقرعت الباب ، وسألت البواب أعادت مرجريت جوتيه الى دارها ، فأجابني أنها لا تعود أبداً قبل الساعة الحادية عشرة أو الحادية عشرة والربع . فطالعت ساعتي . وقد كنت أظن أني أتيت على غاية المهل فوجدتني لم أستغرق غير خمس دقائق في المجيء من شارعي شارع «بروفنس» الى دار مرجريت

فأخذت أتجوّل في شارع أنتين ، وليس به من حانوت ولا وطئة قدم لعابر في تلك الساعة . وبعد نصف ساعة أقبلت مرجريت ونزلت من مركبتها وهي تنظر حواليها كأنها تبحث عن أحد

ومضت المركبة على مهل الى موطنها فلم يكن هو والاصطبل مع البيت في بناء واحد . وبينما كانت مرجريت تقرع الباب اقتربت منها وحييتها

— مسي مساء . فقالت لي بنغمة لم أستشف منها ذلك السرور الذي توقعت حدوثه عند لقائي

— أهذا أنت

— نعم هذا أنا . ألم تأذني لي في زيارتك اليوم ؟

— أذنت ولكني نسيت

فنسخت هذه الجملة كل احاديث نفسي في الصباح ، ومسحت كل ما كنت رسمته في صحيفة خيالي من معسول الأماني طول النهار . ولكني كنت اخذت اتدرب على هذه الأنماط الجديدة فاحتملت من مرجريت ما كان ، ولم افعل ما كنت لاشك فاعله قديماً ، فلم انصرف .

ودخلنا

وكانت نانين سبقت ففتحت الباب فسألتها مرجريت

— هل حضرت برودنس ؟

— لا ياسيدتى

— اذهبى الى دارها واخبرى من هناك ان ترتد الىّ متى عادت وقبل الذهاب أطفئى نور الثوىّ ، واذا أتى احد يسأل عنى فاذكرى له انى لم أعدْ ، وأنى لن أعود

أيقنتُ ان مرجريت كانت مشغولة البال بأمرهام ، وجال فى نفسى أنى اثقلت عليها بزيارتى ، فلم أدر بما أكيف وجهى ، واستغلق علىّ الكلام فلم أدر كيف أقول . وسارت مرجريت الى مخدع نومها وبقيت حيث كنت . فنادتنى . ونزعتْ قبعتها وازاراً من القطيفة وألقتهما على سريرها ، وجلست على كرسى كبير قرب النار ، وكانت اعتادت أن توقدها فى الشتاء حتى مطلع الصيف . ثم قالت لى وهى تعبث بسلسلة ساعتها :

— الآن ماذا عندكَ من جديد تقصه علىّ ؟

— لا شىء سوى أنى أخطأت اذ جئت هذا المساء

— ولم ؟

— لأنه يبدو عليكِ الضجر ، وأنى لا محالة مثقلٌ عليك

— لا ، فما أنت بمثقل علىّ ولكننى مريضة ، شكوت النهار كله فلم أنم ، وبرأسى صداع أليم

— أفأنصرف عنك حتى ترقدى فى الفراش ؟

— لا بأس علىّ من وجودك اذا أنا أردت الرقاد

وقُرع الباب فصاحت صيحةَ الضجر : من يكون القارع الآن ؟
وبعد قليل قُرع البابُ مرة أخرى ، فقالت : ليس من يفتح ، فوجب
عليّ أن أفتح بنفسي . أما أنت فكأنك . وخطت الى الباب فسمعتها
تفتحه فأنصتُّ ووقف من فتحت له فى قاعة الطعام ، فعرفتُ من أول
كلمة فاه بها انه الشاب الكنت دي ن . . . فقال لها :

— كيف تجدينك هذا المساء ، فأجابته بجفاء

— أجد كل سوء

— لعلى أزعجتك

— قد يكون هذا

— أهذا حُسْنُ استقبالك أياى ! ماذا صنعتُ ياعزيزتى مرجريت ؟

— يا عزيزى ما صنعتَ شيئاً . ولكنى مريضة . ولا بد لى أن
أنام فأحسنْ الىّ بانصرافك . انه ليذهب بصبرى أنى لا أستطيع أن
أعود فى مساء يوم الى منزلى دون أن تظهر على بابى بعد خمس دقائق من
عودتى . ماذا تريد منى ؟ أن أكون خليلتك ؟ لقد سمعتَ منى ألف
مرة أنْ لا : وأنك تسئمنى غاية السأم ، وأنه أولى بك أن ترى لك غيرى .
انى أعيد على سمعك آخر مرة انى لا أريدك ، وانه بذلك قُضى الأمر
فسلام . وها هى نانين عادت فتنير لك الطريق فنعم مساء

وعادت مرجريت الى مخدعها وردت بابه بقوة دون أن تزيد كلمة
او تتمهل لتسمع تمتمته . وما هى الا برهة حتى عادت نانين فدخلت الينا
فقالت لها مرجريت

— إصغى الىّ . قولى لهذا الأبله دائماً اذا أتى أنى لست هنا ، أو أنى

لا اريد لقاءه . لقد نفد صبري اخيراً، وضاق ذرعي بقوم يأتونني يسألونني على اختلافهم سؤالا واحداً لا يختلف . انهم يدفعون الىَّ مالا ، ويحسبون بعد ذلك ان امرهم لدىَّ قد تم وانتهى . ألا لو علم هؤلاء النسوة اللاتي يحترفن حرفتي المخجلة ما هي قبل ان يحترفنها لأبين عليها خدمة الدور . ولكن الغرور يحدثهن عما يكون لهن من ثياب ثمينة وجواهر نادرة ومركبات فاخرة فيستدرجهن استدراجه ، فيبرين على مهل قلوبهن ، ويبلين اجسامهن ، ويذوين جمالهن ، بينما الناس ترهبهن رهبة الوحوش الضارية ، وتدوسهم بالأقدام دوس الحشرات . ولا يلتف حولهن من الناس الا كل طامع يعطي ليأخذ فوق ما أعطى . واذا حان حينهن ذهبن عن الدنيا ذهاب الكلاب ، وقد قضين على كثير من الرجال قبل أن يقضين على أنفسهن

فقالت لها نانين : دعي هذا ياسيدتي وهدئي روعك فان أعصابك مهتاجة هذا المساء . فأجابت مرجريت وقد نزعت ثوبها عن صدرها فتمزقت عراه : ان هذا الثوب يضيق عليَّ ، فأتيني ببذلة البيت . وبرودنس ماذا صنعت ؟ فقالت الخادم

— لمَّا تعد الى دارها ، فاذا عادت أرسلوها من فورها الى سيدتي .

فقالت مرجريت وهي تخلع ثيابها لتلبس بذلة البيت البيضاء

— هذه أخرى من رزايا الزمن . انها تظل تفتش عني حتى تجدني اذا كان لها حاجة الي . حتى اذا أتى دورها . وسألتها حاجة تقضيها، فلن تقضيها أبداً بوجه سمح مبسوط . إنها تعلم أني انتظر رد السؤال هذا المساء ، وأني في شديد الحاجة اليه ، وأني قلقة من جرائه ، ولكني موقنة انها جرت

خالها ، وأنى لم أشغل شيئاً من بالها . فقالت نانين

- لعلها احتبسها حابس ، فقالت مرجريت لها

— احملى الينا فطيراً ، فردت نانين

— أتسيئين الى نفسك بالفطير فوق ما كان

— فلأُسىءُ فى الاساءة الخير . واحملى الينا فاكهة وكمكا ، أوصدر فرّوج أو ما تجدينه وعجّلى فانى جائعة

لا حاجة الى أن أصف ما كان لهـذا المشهد علىّ . واستتبعت مرجريت تقول لى

— ستتناول العشاء معى . فدونك الـكتب فخذ منها ما يسليك ريثما أذهب الى متزيّنى

فأشعلت شمعدانًا وفتحت باباً وراء موضع القدم من سريرها واختفت .

أما أنا فأخذت أتأمل حياة هذه الفتاة ، فزادت الرحمة حبى لها ، وأخذت أغدو وأروح فى الحجرة بخطوات واسعة أفكر فيها . فدخلت برودنس وقالت اذ رأتنى .

— أنت هنا . فأين مرجريت ؟

— فى متزينها

— اذن أنتظرها . وأنت أتعلم أنك آخذ بمجامع قلبها ؟

— لا

— ألم تلمّح بذلك اليك ؟

— لم تفعل قط

— فلِمَ أراك هنا ؟

— إني أتيت أزورها ؟

— أفي منتصف الليل ؟

— ولِمَ لا ؟

— خلِّ عنك المزاح

— لا مزاح فقد لقيتْني شر لقاء .

— ستحسن لقاءك الآن

— أذلك حق ؟

— نعم فأني جئتها بخبر سارّ

— فالأمر على ما يرام . تقولين إنها خاطبتك في شأني

— في مساء الأمس كان ذلك ، بل في صباح اليوم لما خرجتَ مع صاحبك . . . على الذكرى كيف حال صاحبك ؟ أيدعونه جستونَ على ما أظن ؟

فأجبتها أنْ نعم وأنا لا أستطيع أن أخفي ابتسامي . فقد كان جستون قص عليّ حديث صداقة وثيقة وقعت بينه وبين هذه المرأة التي لا تكاد تعرف اسمه . فاستتبعتْ تقول

— إنه فتى ظريف ، فما عمله ؟

— انه ذو مال . دَخْلُهُ خمسة وعشرون ألف فرنك سنويًّا

— أصحيح هذا ! على كل حال فلنرجع الى حديثك أنت . قد سألتني مرجريت عنك ، من أنت ، وماعملك ، ومن خليلاتُكَ قبلها . واختصاراً سألتني عن كل ما يُسأل عنه من شئون فتى في مثل سنك .

فأديت اليها ماعلمت ، وزدت أنك فتى خلاب فتان . وهذا كل ماجرى.

— أشكرك . والآن خبريني بأي رسالة بعثت بك أمس مرجريت

— لم تبعثنى أمس برسالة ، وإنما هو الكنت كانت تريد أن تطرق له لتخلص منه . ولكنها اليوم بعثتنى برسالة هى التى أحمل اليها ردها

وعندئذ خرجت مرجريت من منزلها وعلى رأسها قلنسوة غاية فى الظرف والدلال ، عليها شرائط مجمعة خصلا يسميها أهل الفن فى الظرافة « كرنبات » لأن لها شكلها

لقد كانت فى هذا الزى سابية فاتنة

وكان قدماها عاريتين فى شبشب من الحرير وقد أصلحت أظافرها

ولما أبصرت برودنس قالت لها :

— ماذا فعلت ؟ ألقيت الدوق ؟

— نعم

— فما قال لك ؟

— أعطانى

— كم ؟

— ستة آلاف

— أهى معك ؟

— نعم

— أكان الكدر باديًا عليه ؟

— لا

— مسكين !

قالت هذه الكلمة الأخيرة بما لا أستطيع أداءه اليك . وتناولت مرجريت الأوراق الستّ وقيمة كل منها ألفُ فرنك وقالت

— هذا أوانها . وأنت يا عزيزتى برودنس ألك حاجة الى المال ؟

— أى بنيّتى ، لم يبق على انتصاف الشهر غير يومين . فأقرضينى ثلاثة أو أربعمائة فرنك تُسْدِى الىّ جميلاً

— مضى الوقت الآن فلا نستطيع الصرف ، فابعثى الىّ فى صباح الغد فى طلبها

— لا تنسىْ

— اطمئنى . أتتعشين معنا ؟

— لا ، فان شارل ينتظرنى فى البيت

— ألا تزالين به مجنونة ؟

— ألا تزالين تحومين حول هذا الخاطر يا عزيزتى ؟ الى الغد . مساء الخير يا أرمان

خرجت مدام دوفرنوا وقامت مرجريت الى الرف تُودِع المال . ثم قالت وهى تبتسم وتتجه نحو فراشها

— ألا تسمح لى بالرقاد ؟

— لا أسمح لك به فحسب ، بل أسألك اياه

فطرحَتْ عن سريرها طِهارته ورقدت . وقالت لى : الآن تقدّم الىّ واجلس قريباً منى ودونك السمر

لقد صدقت برودنس فالجواب الذى حملته اليها سرّى عنها وأبهجها ثم ناولتنى يدها وهى تقول

— أتغفر لى انقباضى الذى وجدتنى عليه ؟

— أغفره وأغفر كثيرا غيره

— أفتحبنى ؟

— انى بحبكِ مفتون مخبول

— على سوء طبعى ؟

— على كل حال

— أتحلف ؟

فأجبت بخفوت زائد أنْ نعم . ودخلت نانين تحمل صحافاً وفرّوجاً بارداً وزجاجة من خمر بُرْدو وتوتاً وأداة لا كل اثنين وقالت : لم أسألهم أن يصنعوا لك فطيراً ، فان خمر بُردو أفضل لك ، أليس كذلك ياسيدى ؟

وكنت لا أزال مخموراً من كلمات مرجريت الاواخر مصوّباً عينىّ اليها ، فأجبت السائلة مصدقاً بما تقول :

— يقيناً . فقالت لها مرجريت

— أحسنت ، فضعى كل هذا على المنضدة الصغيرة وقربيها من سريرى واتركينا نخدم أنفسنا . ان لك ثلاث ليال لم تنامى فيها ، فاذهبى فنامى فليس لى الى شىء حاجة

— أيلزم أن أغلق الباب بالقفل والمزلاج ؟

— نعم افعلى . وقولى لهم ألا يدخلوا علىّ أحداً فى الغد حتى الظهيرة

الفصل الثانى عشر

وفى الصباح لما بدا النهار يظهر من خلال الستائر قالت لى مرجريت

— لا تؤاخذنى اذا صرفتك الآن فأنى مضطرة الى ذلك ، لأن الدوق يأتى كل صباح . انهم سيخبرونه اذا أتى على عادته أنى نائمة ، ولكنه لا ريب سينتظرنى حتى أستيقظ

فأخذتُ فى يدىَّ رأس مرجريت ، وكان شعرها متهدلاً حوله فى غير نظام ، وقبلتها قبلة أخيرة وقلت لها

— متى أراك ؟ فأجابتنى : دونك ذاك المِفتاحَ الصغيرَ المُذْهَب الذى تجده على المُصطَلى فافتح لنفسك هذا البـاب ، ثم أرجعه حيث كان واخرج بسلام . وفى النهار سأنفذ اليك أمرى ، فليس لك كما تعلم إلا الطاعة العمياء

— أجل . ولكن ما تقولين فى طَلِبة أخرى ؟

— ماذا ؟

— أن تعطينى هذا المفتاح

— إنى لم أجب أحداً قط الى ما طلبْت

— فأجيبينى أنا اليه . فقسما انى أحبك حباً ما أحبه لك غيرى ممن سألك ما سألت .

— اذن فدونك اياه . ولكنى أُلفِت نظرك الى ان هذا المفتاح عديم الجدوى إلا اذا أنا أردت

— ولم ؟

— لأن وراء الباب مزلاجين

— يالك من ماكرة !

— على انى سآمر بنزعها

— اذن أنتِ تحبينني ولو قليلاً ؟

— لا أدرى ما حقيقة حالى . ولكن يظهر لى أنْ نعم . فاذهب الآن عنى فانى أكاد أقع من النوم . وتحاضنّا ثوانٍ ثم رحلتُ

وكانت الشوارع مقفرة من الناس ، والمدينة الكبيرة لا تزال غافية . وهينمتْ فى أذنى نسمة أقبلت تجول فى تلك الأحياء الساكنة التى سيأتيها الناس بجلبتهم بعد ساعات فيذهبون بما فيها من سكون وسلام

لقد خلت أن هذه المدينة النائمة كلها لى ، فأخذت أفتش فى ذاكرتى عن أسماء من كنت غبطت سعادتهم الى ذلك اليوم ، فلم أذكر أحداً الا وجدتنى أسعد منه وأهنأ

ان فوز الفتى بأن تحبه فتاة عذراء طاهرة ، والوصولَ الى مكاشفتها أولَ مكاشف بخبيئة حبه ، لفوز كبير يُهنَّأ الفتى من أجله . الا أنه أهون الأمور فى الدنيا منالاً . فان التغلب على قلب لم يتعود الصراع كالتغلب على مدينة لا حامية من الجند تحميها . أجل ان التعليم والشعور بالواجب والأسرة كلها خفراء على قلب الفتاة تصد عنه العوادى . ولكنك مهما بالغت فى خفارة القلب ، وتجوّدت فى انتقاء الأيقاظ من الخفراء ، فلن تجد فى الدنيا خفيراً لا ينخدع فيأذن للحب يدخل فى قلب فتاة بنت ست عشرة تناديها الفطرة فى صوت حبيبها بدعواتها التى تجدها الفتاة

أفعل فى اجتذابها كلما ظهرت لها أنقى وأطهر

ان الفتاة كلما طابت نفسها واعتقدت الخير ، كانت أسلس قياداً وأقرب للتسليم ، إنْ لم يكن لشخص المحب فللحب الذى تمثل فيه فأعماها عن شخصه . وذلك لأنَّ الخبث والارتياب فى الناس أعوزاها ، فأعوزتها قوة تمانع بها وتدفع . فالنُصرة فى الحب على فتاة هذا شأنها فى استطاعة كل ابن خمس وعشرين اذا هو أرادها

وتلك حقيقة عرفها الناس . فانظرهم كيف يخفرون بناتهم ، ويقيمون دونهن الموانع العالية والحصون الضخمة . ألا ليس لحوائط الأديرة مهما ارتفعت من علو ، ولا لأغلاق الأمهات من قوة ، ولا لشعور بالواجب يزرعه الدين من أثر كاف لحبس تلك العصافير الجميلة فى أقفاصها ، تلك الأقفاص التى لا تُعنَى حتى يستر قضبانها بالورد والأزهار لتُخفى معنى السجن عنها . فتراهن من أجل ذلك توّاقاتٍ الى رؤية هذه الدنيا المخبوءة منهن ، نزّاعاتٍ الى اعتقاد أنها لامحالة فتانة لهن ، متّاعات الى أول صوت يأتيهن من خلال قضبان السجن يحدثهن بما وراءها من أسرار ، دعّاءاتٍ بالخير لأول يد تأتى لتَحسر طرف النقاب لينكشف الحرم المستور

ولكن فوز الفتى بأن تحبه بغىٌّ فوز عزيز المنال صعب المرتقى . فان البغايا قد أبلت أجسامهُن أرواحَهن ، وأحرقت احساساتهن قلوبَهن وغطّت الرذيلة فدرّعت عواطفهن ، فكل أنواع الكلِم يقال لهن قد عرفْنه من زمن ، وكل الوسائل تُتّخذ للوصول الى حبهن قد أدركنها ، والحب ذاته قد ابتذلنه فبعنه بالثمن . فهن يحببن بالصناعة لا بالفطرة . وقد قامت حساباتهن واحصاءاتهن تخفرهن فوق ما تخفر الأمهات

طاهرات العذارى . ولقد ابتدعن لفظة « هوى » مكان لفظة « حب » يُطلقنها على المحبة التى يجُدن بها من آن لآن بالمجّان ، يُردن بها الراحة من عناء أو العذر عن سابق ما أتين ، أو يلتمسن بها التعزية والسلوى لأنفسهن . وما أشبههن فى ذلك بالمرابين الذين يسلبون ألوف الناس كل غال ورخيص ، ويعتقدون أنهم يفتدون مما أفسدوا بأن يقرضوا يوماً ما بائساً فقيراً أشفى على الموت من الجوع عشرين فرنكا دون أن يسألوه ربحاً ولا رَجْعة[1]

وبعد فاذا أذِن الله لبغىّ أن يدخل الحب الحق فى قلبها ، فان هذا الحب الذى يظهر بادىء بدء مغفرة ورحمة ، لا يكون لها الا العقاب الأليم والجزاء المر . ألا لا مغفرة الآن من بعد قِصاص . فاذا أحست المرأة التى لا ماضى لها الا الفضيحة والعار أن قلبها انتُزِع منها ، وان الحب يتغلغل فيه الى أعمق قرار ، وأنها لم تعد تقدر على مغالبة سلطان غرام كانت تعد نفسها غير خليقة به ، اذا أحست هذه المرأة ذلك ، فما أعظم سلطان المرء الذى تحبه عليها ، وما أبطشه عندئذ بها ، وما أشد احساسه بأن له الحق فى أن يقول لها : انك بذلت للمال كل شىء فلم يعد لديك من شىء تبذلينه للحب خاصة

وعندئذ تحار البائسة فلا تدرى بأى حجة تُدلى . جاء فى بعض الخرافات أن فتى فى حقل اعتاد أن يصيح الى عَمَلته يطلب المعونة بالكذب ليختبلوا ، حتى جاء يوم دهاه فيه دُبٌّ ، فنادى على عادته فلم يأبه أحد بندائه فأكله الدب فذهب ضحية كذبه . وهذا هو الحال مع

(١) صلة بما أخذ — وصل

هؤلاء النسوة اذا أحببن مرة فصدقن . فانهن مما كذبن مراراً لا يجدن من يصدقهن فيوكبن حبهن الى التهلكة على وخز الأسف وتبكيت الضمير

ومن نتائج ذلك تضحيات بالانفس واعتزالات عن الدنيا سمعنا الكثيرات من النساء فرت تلجأ اليها

ولكن اذا كان مبعث هذا الحب المقدور لخلاصها رجلا كريم النفس ، رجلا يتقبل حبها ويتناسى ماضيها ، رجلا يسلم بما هو كائن ، ويذعن فيحب كما يُحَب ، فانه لا يتمهل حتى يشق قلبه مرة واحدة ، فينزع منه كل عاطفة دنيوية ، ويذر فيه كل أخرى سماوية ، ويغلقه على حبها دون كل حب سواه

لم تخطر لى هذه الخواطر على بال ساعة عدت الى دارى . ولو أنها خطرت عندئذ لكانت نبوءات صوادق عما جاء بعدها . ولكنى على حبى لمرجريت لم تسبق الىّ هذه المعانى ، ان هى الا خواطر تخطر لى الآن بالطبع وقد انقضى الأمر كله ومضى لغير رجعى

والآن فلأتم لك قصة ذلك اليوم الأول من أيام ذلك الوصال الغابر . عدت الى منزلى وقد بلغ بى الفرح الى الجنون ، أفكر فأذكر أن الحوائل التى أقامها خيالى بينى وبين مرجريت قد رُفعت ، وأنها أصبحت فى حوزتى ، وانى أصبحت أشغلُ بعضَ ذهنها ، وان مفتاح بيتها فى جيبى أستخدمه فيما أهوى ، فكنت أستشعر الرضى عن الحياة ، والاعجاب الزائد بنفسى ، وحب الله الذى منّ علىّ بكل هذا

رب فتى مرّ يوماً فى طريق فأصاب امرأة برفقه فنظرته فأعرض

عنها وتولى ، امرأة لا يعرفها ولا يشركها فى سرور أو حب أو هم ،وفتى لا يعيش لها ، وربما إنْ هو خاطبها سخرت منه كما سخرت منى مرجريت أول مرة . ومرت الأيام فالأسابيع فالأشهر فالسنوات تترى ، وجرى كلاهما فى سبيلين من الحيـاة مختلفتين . فحدث يوماً أن لاقت قوانين المصادفات بين وجهيهما ، ثم أصبحت هذه المرأة صديقة الفتى وأحبته ، واتصلت حياتان فكانتا حياة واحدة ، ثم لم تكد تستجد الألفة بين الحبيبين حتى خالاها أزلية الوجود ، ومسحا من ذاكرتهما كل ما سبق فكانت بيضاء من غير سوء . لم كان هذا ؟ وكيف كان ! حادث عجيب ليس لدينا بإزائه كلمة نقولها الا أن نقر بغرابته

ولنرجع الى الحديث عن نفسى . لا أذكر كيف حييت قبل دخول العشية . كان شعورى بالوجود فى الدنيا يزيد كلما تزايد فرحى باسترجاعى كلمات تبادلتُها أنا ومرجريت فى الليلة الفـائتة وهى الليلة الأولى من ليالينا . وجال فى نفسى أن مرجريت كانت قادرة ماهرة فى الخداع ، أو أنه كان لى فى قلبها شهوة خبيثة من تلك الشهوات التى لا تلبث أن ينكشف أمرها بفجأة بأول قبلة ، والتى تنطفئ أحياناً فتموت عقب انبعاثها

وأمعنتُ فى الأمر فاذا بنفسى تطمئن الى أنه لا شئ يدعو مرجريت الى الظهور بحب لا تحسه ، والى أن النساء لهن فى الحب طريقان يؤدى أحدهما الى أخيـه ، فهن يحببن بقلوبهن أو باحساساتهن . فرب امرأة اتخذت حبيباً ليجيب الى دواعى احساساتها الجثمانية ، تعلمتْ دون قصد معنى المحبة الروحية ، فلم تعد تعيش الا على وحى قلبها . ورب عذراء لم تقصد بزواجهـا الا الى تمازج عاطفتين روحيتين نقيتين طاهرتين ،

تقبلت بسرور ما ينكشف لها فجأة من ذلك الحب الشهوى الجثمانى ، ذلك الختام الحار لأطهر عواطف النفس وأعفها

وفى لجة هذه الخواطر غرقت فى النوم . واستيقظت على كتاب أتانى من مرجريت تقول فيه :

« دونك أمرى : هذا المساء فى ملهى الفودفيل . تعال فى الفترة الثالثة م . ج »

فوضعت هذا الكتاب فى قمطر وأغلقت عليه ليكون حقيقة حاضرة لدىّ استثبت بها اذا عاودنى الشك المعتاد فى حب مرجريت لى

لم تكتب لى أن أزورها فى النهار فلم أجرؤ على أن أذهب اليها . ولكن كانت بى رغبة شديدة فى لقائها قبل حلول المساء فذهبت الى « الشانزيليزيه » فرأيتها كعشية الأمس مرت ثم نزلت من العربة

وفى الساعة السابعة كنت فى ملهى « الفودفيل » وما بكرت قط الى ملهى بكورى هذه الليلة

أخذت الألواج تمتلىء وبقى واحد منها خالياً هو اللوج الأول من الطابق الأسفل

وعند بدء الفصل الثالث سمعت باب اللوج ينفتح ولم تكن غادرته عينى ، وظهرت مرجريت فتقدمت تواً الى الامام وأخذت عيناها تفتش فى المتفرجين وسط الملهى حتى سقطتا علىّ ، فشكرتنى بنظرة

لقد أبدعت فى زينتها فكانت آية فى الجمال هذا المساء

أكنت المراد بهذا التجمل كله ؟ وهل بلغ حبى منها أن تعتقد أنى أكون أسعد حالاً كلما كانت أكثر جمالا ؟ لقد كنت أجهل بعدُ هذا .

على أنها لو كانت قصدت اليه فما أخطأت . ولم تكد تظهر حتى مالت الرؤوس بعضها الى بعض ، وأخذ الناس يتهامسون . والممثلون أنفسهم لم يسعهم الا أن ينظروا الى تلك التى لفتت الناس عنهم بمجرد ظهورها

كان معى مفتاح بيت هذه الفتاة ، ولم يكن غير ثلاث ساعات أو أربع حتى تكون لى مرة أخرى

إن الناس تلوم من يجر على نفسه الخراب العاجل من أجل ممثلات أو فتيات حظيات وليس فى هذا عجب ، انما العجب كل العجب أن هذا الملوم لا يجر على نفسه مائة خراب عاجل لا خراباً واحداً ، ولا يأتى فى سبيلهن الألوف من صنوف الجهالات . لا بد لك من أن تحيى مرة حياتى لتحيط علماً بتلك الأباطيل الصغيرة وأسباب الزهو الضئيلة التى تملك ناصية العاشق أيام الوصال ، فتلصق بشغاف قلبه ذلك الذى نسميه حباً

ودخلت برودنس اللوج عقب مرجريت ، وجلس وراءهما فى أقصاه شاب تعرفته فاذا هو الكونت دى ج . . . .

وما رأيته حتى مرت رعدة باردة بقلبى

لا ريب أن مرجريت عرفت الأثر الذى كان بى من وجود الكونت فى لوجها ، فانها ابتسمت من جديد وولت ظهرها الكونت وأظهرت الاهتمام بالرواية . وفى الفترة الثالثة التفتت الى الكونت وفاهت له بكلمتين خرج على أثرهما ، وأشارت الىّ مرجريت أن أذهب اليها فلما دخلت عندها ابتدرتنى تقول وهى تمد الىّ يدها

— عم مساء . فقلت مجيباً اياها وبرودنس معاً

— عِمّا مساء . فقالت

— اجلس

— ولكني سأجلس في غير مكاني . ألا يعود الكونت دي ج . . .

— بلى سيعود . فقد بعثته في طلب مُلبّس لنستطيع أن نتسامر قليلا . ولا سرّ على پرودنس فانها موضع له . فقالت پرودنس

— أي ولديّ كونا على اطمئنان فلن أحمل من أقوالكما شيئا .

فقالت لي مرجريت

— ما بك الليلة ؟ وقامت فسارت بي داخل اللوج حيث الظلام وقبلتني قبلة في جبيني

— ليس بي الا ألم يسير

فأجابتني وهي تسخر مني وتهز رأسها

— خير لك أن تذهب فتنام

— أين ؟

— في دارك

— انك تعلمين جِدّ العلم أن النوم لن يجيئني هناك

— إذن فلم يبق إلا أن تنزع عما تصنع أفلا تأتي هنا لتطيل من شفتيك غضباً لرؤية رجل في لوجي

— لم أغضب لهذا

— دع عنك المحال فلقد وسعتُ هذه الأمور خُبْراً . لقد أخطأتَ فلندع هذا الحديث . تعال بعد التمثيل الى دار پرودنس واصبر هناك حتى أدعوك . أسامع أنت ؟

— نعم

وهل كنت أقوى على الامتناع ؟ فقالت

— أتدوم على حبى ؟

— أتسألينى فى هذا ؟

— أمررتُ بذكرك اليوم ؟

— طول النهار

أتدرى انى بدأت أخشى تسرب حبك الى قلبى . سل برودنس بعدُ تخبرك اليقين .

فأجابت برودنس

— لقد أكثرتِ الخوض فى هذا يا عزيزتى حتى مللناه

— والآن فاذهب الى كرسيك فقد آنت عودة الكونت ولا داعى أن يراك هنا

— لم ؟

— لأنها رؤية تشق عليك

— لا . وانما كان بك أولى وقد أردتِ المجىء الى الملهى هذا المساء أن تخبرينى فأهدى لك هذا اللوج كما أهداه .

— ولكنى آسفة لأنه بعث فأهداه الىّ دون سؤالى ، وطلب أن يرافقنى وأنت تعلم انه لم يكن فى وسعى غير الاجابة . على انى صنعت ما عليه قدرت ، فكتبت لك أن توافينى حيث أنا لترانى ولأراك أنا نفسى فانى أحسست شوقا اليك يدفع بى الى رؤيتك عاجلا . ولكنك عرفتَ كيف تجزينى عن صنيعى وعرفتُ أنا درساً أفادنى .

— أخطأتُ فعفواً

— أحسنت . فعد الى مكانك ولا تعد الى غيرتك .

ثم قبلتني وخرجت . وفي الدهليز لقيت الكنت عائداً ، فعدت الى مكاني

وبعدُ فما كان أيسر من وجود الكونت ومرجريت في لوج واحد . انها عشيقته وقد بعث اليها بلوج وسألها الصحبة الى التمثيل . كلها أمور طبيعية . ولقد وجب عليَّ من اليوم الذى أتخذ فيه خليلة كمرجريت أن أتقبل كل عاداتها بلا غيرة أو غضب

إلا أن هذا لم يقلل من ابتئاسي وزادت كآبتي عندما رأيت برودنس والكونت ومرجريت يدخل الكل في مركبة مغلقة كانت تنتظرهم لدى الباب

وعلى الرغم من ذلك لم يمض غير ربع ساعة حتى وجدتُني أدخل بيت برودنس في أعقابها

الفصل الثالث عشر

فقالت برودنس لى .

— ما كدنا نحضر حتى حضرت . فأجبتها وأنا لا أعى

— نعم فأين مرجريت ؟

— فى بيتها

— وحدها ؟

— لا بل مع الكونت دى ج . . . .

فأخذت أمشى فى البهو رَوحة وجيئة بخطوات كبيرة واسعة

— ما بك يا أرمان ؟

— مابى ! اتجدينى استمتع بالانتظار هنا حتى يخرج الكونت من عند مرجريت

— انك لقليل العقل يا أرمان . ألا تدرى أن مرجريت لا تستطيع طرد الكونت . ألا تدرى أنه صاحبها من حين بعيد وانه أعطاها مالاً كثيراً ولا يزال يعطيها . ان مرجريت تنفق أكثر من مائة ألف من الفرنكات فى السنة وعليها ديون فادحة . لا أنكر أن الدوق يرسل اليها ما تسأله اياه ، ولكنها لا تجرأ فى كل آن أن تسأله أن يسد ما يَعرِض من حوائجها فيجب عليها ألا تغاضب الكونت وهو يعطيها اثنى عشر الف فرنك على أقل تقدير . ان مرجريت يا عزيزى تحبك ، ولكن صلتكما لخيركما جميعاً يجب أن لا تعدو حداً قريباً ، فان سبعة آلاف أو

ثمانيتها لا تفى بطلبات هذه الفتاة المترفة بل لن تفى بالنفقة على مركبتها فحسب . فاتخذ مرجريت على ماهى عليه ، شابة ظريفة رقيقة . واتخذها حبيبة شهراً أو شهرين ، وأهدِ اليها باقات من زهر ومُلبّساً وألواجاً وشرّد من رأسك عدا ذلك من الأحلام ، ولا تمثل فى الغيرة مشاهد مزرية مضحكة . لا أراك تجهل من هى التى اتصلت بها . انها امرأة لا تنتسب للفضيلة . انك تحبها فلا تقلق بالك بأمر وراء هذا . لله درّك إذ تغار ! لك أجمل خليلة فى باريس تتقبلك فى بيت فاخر وتخطف بصرك بما عليها من ماس كثير لم تدفع فيه درهماً وبعد كل ذلك أراك ساخطاً ! يا للشيطان . انك تطلب منها عسيراً

— صدقت ولكن ماذا أصنع وأنا لا أكاد أذكر أن هذا الرجل حبيبها حتى يأخذ الكدر علىّ مسالكى

— من أنبأك أنه حبيبها . انه موضع حاجتها لا موضع حبها . وهى منذ يومين أغلقت بابها دونه ، وقد جاءها هذا الصباح وأهداها لوجاً فلم يكن فى وسعها الا قبوله منه وقبول صُحبته . وها قد عاد بها وصعِدَ معها الى بيتها بُرهات . وهو لا ريب لا يقيم عندها طويلا . وهى تعلم أنك هنا تنتظر خروجه . كل هذه أمور طبيعية على ما يظهر لى . وفضلا عن هذا ألم تقبل أنت أن يكون الدوق حبيبها ؟

— نعم ، ولكنه شيخ أُوقن أن مرجريت لن تكون خليلته . على أن المرء قد يُغمض عن صلة واحدة برجل ولا يغمض عن صلتين ، فان هذا الاغماض يوقف المرء موقفاً أشبه بموقف أناس من طبقة دنيا يتخذون من أمثال هذه الصلات صناعة يأتجرون منها

— يا عزيزى ما أعتق آراءك . كم من رجالات قوم شرفاء نبلاء ظرفاء أغنياء اتبعوا نصيحتى التى أُسدى اليك دون إجهاد فكر أو خجل أو وخز ضمير . وهذا أمر جرت به العادة ، وإلا فكيف تستطيع حظيات باريس أن يجرين فى سبيل الحياة التى اتخذن دون أن يكون لهن ثلاثة أحباء أو أربعة فى وقت واحد ؟ ليس من أحد له من الثروة ما يكفى بالنفقة على فتاة كمرجريت . فان ثروة ريعها السنوى خمسمائة الف فرنك ثروة باهظة . على أنه لو وُجِد رجل له هذا فهو لا يكفى بشىء يا عزيزى واليك البيان ؟ ان رجلا له هذا الدخل لا شك له منزل واسع الحال وله خيل وخدم ومركبات ، وهو يذهب للصيد وله أصدقاء ، وأكبر ظنى أن يكون له زوج وله أولاد ، وأنه يسابق ويقامر ويسيح الى غير ذلك مما لا يحضرنى ، وهذه كلها عادات تأصلت فيه فلا يستطيع أن ينزع عنها خشية أن يحسبها الناس دلائل افلاس فيفضحوه . فاذا أجرى كل هذا فلا يبقى له من الخمسمائة الف فرنك التى هى ريعه غير أربعين الفاً أو خمسين يعطيها للمرأة التى يحب . على أنه مقدار لا أزال إخاله يشق عليه . والمرأة لا يكفيها هذا المقدار . فلا بد أن تستكمل نفقة عام من محبة رجال غيره . على أن حال مرجريت يا عزيزى أهون من هذا وأيسر . فان العناية أوقعتها بمعجزة من السماء على عجوز ثرىّ ذى ستة ملايين ، ماتت زوجته وابنته ، وليس له من ذوى القربى غير أبناء أخ كلهم أهل ثراء ، وهو يعطيها ما تطلب هبةً لا قرضاً ، ولكنها لا تود أن تسأله فوق السبعين الفاً ، ولو أنها طلبت فظنى أنه يرفض على غناه الواسع وحبه الجم لها

ان كل الشبان الذين ريعهم فى السنة عشرون الف فرنك أو أربعون أى ما لايكاد يكفيهم للعيش فى الدوائر والبيئ التى يترددون عليها فى باريس يعلمون كل العلم أن المال الذى يعطونه لخليلة كمرجريت لا يكفيها للنفقة على خدمهـا وسداد أجر يتها . وهم لا يقولون لها إنهم يعلمون ذلك . وهم يتغاضون عن أمور . حتى اذا قضوا منها وطراً وملوا المقام تحولوا عنهـا . أما اذا ذهب بهم الزهو الغرور مذاهبه واشرأبت أنفسهم الى أن يختصوا بها ويكونوا قوامين عليها ، فسرعان ما يحيق الخراب العاجل بالحمقى فيرحلون الى مجاهل افريقية ينتحرون هناك وقد خلفوا ديناً فى باريس مائة الف من الفرنكات . وهل تحسب بعد ذلك أن المرأة تعترف لهم بجميل ؟ كلا ، بل على النقيض تقول انها ضحت بنصيبها من أجلهم ، وانها وهى معهم أضاعت مالاً كثيراً . لعلك واجد هذه التفصيلات مخجلة ؟ ولكنها حقائق . انك شاب فتان وإنى أحبك حباً صادقاً وأنا أعيش من عشرين سنة بين حظيات النساء واعلم من هن وما قيمتهن ، ولا أود أن أراك تجدُ فى العناية بهوى طيار تجده لك فى قلبها فتاة جميلة

واستتبعت برودنس تقول

— ثم فضلا عن هذا هب أن الكونت والدوق أحدهما أو كليهما أحسا باتصال مرجريت بك وخيراها بينك و بينهما وأنه بلغ حبك منها أن رفضتهما جميعاً أفلا تكون التضحية باهظة ؟ لا شك أنهـا تكون . فأى ضحية مثلها عندك تستطيع أن تضحى لها بها . وان أنت شبعت منها وشال حبك عنها ، فماذا أعددت لتصلح عليها ما أفسدت ، وترجع

اليها ما أفقدت ؟ لا شيء . وتكون قد عزلتها عن الدنيا حيث وجدت رزقها ومالها وتجد مستقبلها . وتكون قد أعطتك أجمل سنواتها وأغضها وتكون قد نسيتها . وإن كنت رجلاً كعامة الناس نشرت لها ماضيها فى وجهها وقلت لها إنك إذ تهجرها فانما تصنع ما صنع محبوها السابقون ثم تغادرها عند بؤس محتوم . وإن كنت رجلا طيب القلب أميناً دفع بك ضميرك الى حبسها الى جانبك ، فتدفع بذلك نفسك الى شقاء لا خلاص لك منه ، فان اتصالا بامرأة كهذه مغفور لك فى شبيبتك ، مأخوذ عليك فى كهولتك . فتصير من تمسكت رأفة بها عقبة لك فى كل سبيل ، فلا يرضاك أحد لمصاهرة ، ولا تصبح تطمع نفسك فى أمل ، والأسرة والأمل خلف الشباب يخلفه للمشيب ، تتشبث به النفس فى سنواتها الأخيرة تشبثها بالحب فى سنواتها الأولى . فاستمع لنصحى يا صديقى وخذ الامور بقيمتها والنساء بما هن ، ولا تسهل على امرأة أن ترى لنفسها الحق يوماً ما أن تقول لك إنها غريمتك مهما صغر الدين

لقد أحسنت پرودنس فى استنباط الحجة إحساناً ما خلتها جديرة به قط ، فلم أحر جواباً سوى أن قلت لها إنها قالت حقاً وصافحتها وشكرت لها نصيحتها . فقالت لى :

— هلم نطارد هذه التعاليم المقلقة، ولنضحك فالحياة يا عزيزى تبتسم لنا ، والحياة كما تنظرها تظهر لك ، فان كان منظارك أسود بانت سوداء أو أبيض فهى بيضاء ، ولديك صديقك جستون فاستشره فى الأمر . انى أخاله أحد من يرون فى الحب رأيى . ان الشيء الذى لا بد لك من أن

تقتنع به الآن ، والذى بدونه لا تكون الا غفُلاً ، هو أنه بالقرب منك هنا فتاة جميلة تنتظر على قلق خروج الرجل الذى عندها ، فتاة تَشغل بك بالها ، فتاة تخصك بليلتها هذه ، فتاة تحبك يقيناً . والآن هيا معى الى النافذة ننتظر خروج الكونت فانه لا يلبث طويلا حتى يخلى لنا مكانه

وفتحت پرودنس النافذة وارتفقنا عليهـــا متجاورين نطل على الطنف ، وأخذت هى تنظر المارّة وقليل ما هم ، وأخذتُ أنا أحلُم

وبدأ يطنّ فى رأسى ما سمعت منها ولم يسعنى الا أن أقرّ فى ضميرى بأنها قالت حقاً . ولكن حبى الصادق لمرجريت لم يكد يرعوى عما قالت ، فأخذتُ أزفر آنًا بعد آن زفرات كانت تَلفت پرودنس الىّ فتهز كتفيها هزة الطبيب يئس من عليله . وحدثت نفسى أقول :

— ما أشد شعور المرء بقصر الحياة إذ يرى إحساسات الأنفس تتوالى سراعاً . لم أعرف مرجريت الاّ من يومين ولم تك خليلتى الا من أمس ، وسُرْعانَ ما رأيتهـا ملكت علىّ فكرتى ومهجتى وحياتى ، وسُرْعان ما أصبحتُ آلم أوجع الألم من زيارة الكونت دى ج . . . لها

وخرج الكونت أخيراً وصعِدَ فى مركبتِه وارتحل . فأغلقت پرودنس النافذة . وعندها نادتنا مرجريت

— هلمّا الىّ وعجلا فالعشاء يتهيأ وسنطعم سوياً

ولمـا دخلتُ بيتها جرت الىّ ووثبت الى عنق وقبلتنى جهدها ثم نظرت الىّ وقالت

— أَإلى الأبد سنظل عابسين ؟ فقالت پرودنس

— لا غضبَ ولا تعبيس فقـد لقّنته درساً فى الاخلاق وعَدَنى

على أثره أن يكون عاقلاً

— اذن فالأمر على ما يرام

وأرسلتُ بالرغم مني نظرة الى فراشها فوجدته غير مُشعَّث ، أما هي فكانت لا تزال مرتدية بِذلة بيتها البيضاء . وجلسنا الى المائدة

يا لَفتنة الجمال ، وحسن الظرف ، ولطف التودد . لم يُعوِزْكِ مرجريت من ذلك شيء . فعدتُ الى نفسي أسائلها أكان لها أن تسأل فوق ما أُعطيت ؟ وهل يكون غيرى فى مكانى الا سعيداً راضياً ؟ واجتهدت أن أطبّق تعاليم برودنس على ما أنا صانعه فحاولت أن أكون كصاحبتيّ مبتهجاً ، فلم يكن فرق بيني وبينهما سوى انى تكلّفتُ واسترسَلَتَا بالطبيعة . وخادعتهما فانخدعتا بضحكات مصنوعة قاربتْ أن تكون بكاء

وانتهى العشاء وبقيت مع مرجريت وحدى فذهبتْ على عادتها وجلست الى الموقد ترعى اللهب بنظرات حزينة وأخذتْ تفكر ! فيم ؟ لا أدرى . وأخذت أنظر اليها نظرات حب كاد يمازجها ذعر كلما ذكرت آلاماً وصعاباً أوشكتُ أن أخوض غمارها من أجلها . فقالت

— أتدرى أين شرد فكرى

— لا

— الى تدبير دبّرتُه

— وما هو ؟

— لن أبوح به الآن ولكني أذكر خلاصته : بعد شهر سأفك

قيدي وأصبح طليقة لا دين عليّ فننطلق معاً نقضي شهور الصيف في الريف

— ولكن ألا تذكرين لي كيف بلغت هذا التدبير ؟

— لا ، وغاية ما أسألك أن تحبني كما أحبك فيسهل العسير

— وهل وحدك دبرت هذا ؟

— نعم

— وهل وحدك تقومين على إنفاذه ؟ فأجابتني وهي تبتسم ابتسامة لا أنساها أبداً

— نعم عليّ وحدي متاعب ذلك كله ولكننا سنقتسم الربح

فلم أستطع مغالبة وجهي فاحمر عند سماع لفظة الربح ، فتذكرت « مانون ليسكو » تأكل هي و « دي جريو » مال السيد « دي ب . . . » فأجبتها بقليل من الجفاء وأنا أقوم

— لن أقاسمك يامرجريت الا ربح خطة خططتها وأنفذتها بنفسي

— وماذا تعني بهذا

— أعني أني أتهم السيد الكونت دي ج . . . في اختطاط هذه الخطة المباركة ، تلك الخطة التي لا أحمل تبعتها ولا أقبل ربحها .

— يالك من طفل ! حسبتك تحبني ولكني أخطأت . وقامت من ساعتها الى البيانو وأخذت تعزف دور « الدعوة الى الرقص » حتى أتت الى القطعة الشهيرة التي على السلم الأعلى فاستعصت عليها كالعادة ، ولا أدري أكان وقوفها عند هذه القطعة لانها تشق عليها حقاً فوقفت عندها ، أم أرادت أن تذكرني اليوم الأول الذي تعارفنا فيه . لا علم لي

سوى أن الألحان أرجعت الىّ تلك الذكريات فقمت اليها وتناولت رأسها بين يدىّ وقبلتها ثم قلت لها

— الصفحَ يا مرجريت

— صفحت . ولكن اذكرْ أن هذا اليوم ثانى أيامنا وأنه سبق أن صفحت عن أمور . انك وعدتنى طاعةَ الأعمى فأين وفاؤك ؟

— ما حيلتى يا مرجريت وأنا أحبك هذا الحب الجم وأثور للخاطر التافه يدور فى خلدك . ان ما اقترحتِ الساعة جننت به فرحاً ولكن السرّ الغامض الذى يسبق نفاذه يقع كالصخرة على قلبى

فأخذتْ يدىّ فى يديها ونظرتْ الىّ وهى تبتسم ابتسامة لطيفة استحال علىّ مقاواتها وقالت لى

— هيا نتجادل بالمنطق قليلا . انك تحبنى ، أليس كذلك ؟ وتود أن تقضى معى وحدى ثلاثة أشهر أو أربعة فى الريف ؟ وأنا أيضاً أود هذه العزلة معك . لا أودها فحسب ، بل أراها واجبة لصحتى . وأنا لا أستطيع ترك باريس مدة طويلة كهذه دون أن أرتب أمورى هنا . وأمورُ امرأة مثلى مرتبكةٌ معقدة دوماً دوماً . وقد وجدت السبيل للجمع بين أشغالى وبين حبى اياك . نعم حبى اياك ، فلا تضحك ، فان الحمق بلغ منى أنْ أحببتك . أفَمِن أجل هذا شمختَ علىّ بأنفك وظاهرتَ بامرّتك ؟ أيها الطفل أيها الطفل ثلاثاً . اذكر دائماً أنى أحبك ولا تُقلق بالك من شىء . أتعاهدنى على هذا ؟

— انك تعلمين انى معاهد على ما كان ويكون مما تودين جميعاً

— اذن فبعد شهر سنكون فى احدى القُرى نشرب اللبن ونسير

على حافة الماء . انك تعجب مني كيف أقول هذا أنا مرجريت جوتيه . يا عزيزى ان هذه الحياة البار يسية التي يظهر أني بها هنيئة تسئمني ، إن فاتها أن تصليني نارها . ومن ثمّ تطرأ عليّ أمانٍ باغتة في حياة هادئة وادعة تذكرني هدوء الطفولة ووداعتها ، ولكل انسان طفولة يحنّ اليها وينوح عليها مهما كان من أمره بعدها . هوّن عليك فلست عبقرية عليك أني ابنة « أميرالاى » على المعاش أو أني تخرجت من مدرسة القديس دنيس . لا ولكني بنتٌ فلاحة فقيرة كنت أجهل أن أكتب اسمي قبل ستة أعوام . فلعلك اطمأننت الآن . وبعدُ فهل تعرف لِمَ كنتَ أول من دعوتُ ليشركني في سروري بأمنيتي هذه الطارئة ؟ ذلك لأنك أحببتني لنفسي لا لنفسك على حين أن غيرك لم يحبني إلا لنفسه . لقد ذهبتُ الى الريف مراراً ولكنّي لم أذهب مرة على ما أحب . انى عليك أعتمد في السرور بهذه الهناءة الهيّنة فلا تشاكس فيها ، وسهلها اليّ وقل لنفسك ان هذه الفتاة لن تعيش للشيخوخة وانك قد تندم يوماً أنْ لم تكن أجبتَها الى أول سؤال سألتك إياه وقد كان سهلا ميسوراً

ألاَ أيّ جواب يكون مني عن قول كهذا لا سيما وأنا على ذكرى أُولى ليالى الحب وعلى انتظار الثانية . وبعد ساعة كانت مرجريت بين ذراعيّ وكنت أطوع ما أكون لها ، فلو سألتني جريمة ولو قتلا لأجرمتها

وطلع الصباح فانصرفت في الساعة السادسة ، وقبل انصرافى قلت لها

— الى المساء

فقبلتني بما في شفتيها من قوة ولم تُجبْ شيئاً

وفى أثناء النهار جاءني منها الكتاب الآتى

« طفلي العزيز

اني أتوجع قليلا ، وقد أمرني الطبيب بالراحة . سأبكّر في الرقاد هذه الليلة فلا أراك ، ولكني أُخلف عليك ما فاتك سأنتظرك غداً ظهراً . اني أحبك »

فكانت أولُ كلمة سبقت الى فيّ : إنها تخدعني

وانبعث من جبيني عرق بارد صقيع ، فاني كنت أحببت هذه الفتاة حباً جزعتُ فيه من الشبهة القليلة تمر بخاطري منها . على أنه كان حتما عليّ أن أتوقع أمثال هذا الحادث من مرجريت كل يوم

ولقد حدث كثير مثله مع غيرها ولكنه لم يكن له في هذا الأثر . فمن أين كان لها وحدها أن تأخذ عليّ أزمّة نفسي ويستولي سلطانها على حياتي هذا الاستيلاء ؟

وفكّرت فقلت في نفسي أن عندي مفتاح بيتها ، فلِمَ لا أذهب أزورها كعادتي في المساء ، وأعرف الحقيقة سريعاً ، واذا وجدت رجلا عندها صفعته ؟

وذهبت الى الشانزيليزيه أنتظر المساء وبقيت فيه أربع ساعات فلم يَبِن لها هنا لك من أثر . وطرقتُ كل ما اعتادت أن تطرقه من الملاهي فلم أجدها

ودقت الساعة الحادية عشرة وأنا في شارع أنتين

نظرت الى نوافذ بيتها فما ألقيت نوراً ، فطرقت الباب

فسألني البواب أين أذهب .

— الى الآنسة جوتيه

— لم تعد بعد

— فأصعد انتظرها

— ليس في دارها أحد

لقد كان وجود المفتاح في يدي بمثابة أمر لي بالدخول ، ولكني لم أشأ أن أدخل قسراً خشية حدوث ما لا أحمد عقباه من المزريات المضحكات ، فخرجت

الا أني لم أعد الى داري ولزمت الشارع ولم تتحول نظرتي برهة عن بيت موجريت لان محدثاً من ضميري كان يحدثني بالبقاء ليعلم شيء سيكون ، أولا ، فلتثبتي من تهمتي إياها

وعند انتصاف الليل جاءت مركبة عرفتها فوقفت عند البيت رقم ٩ ونزل منها الكونت دي ج . . . ودخل البيت بعد صرفه المركبة

فتبادر الي انهم قائلون له ما قالوه لي : ان مرجريت ليست في دارها . وخلت أنه سيعود أدراجه مثلي فأراه خارجاً . ولكني انتظرت الى الساعة الرابعة صباحاً فما رأيته خرج

لقد ظللت أتوجع هذه الأسابيع الثلاثة الأخيرة ، ولكن مهما بلغ من أوجاعي فيها فأين هي من أوجاعي وآلامي التي كانت في تلك الليلة المشئومة

الفصل الرابع عشر

وما عدت الى دارى حتى أخذت أبكى بكاء الطفل . لا يوجد انسان خُدِع فى حبه ولو مرة واحدة لا يدرك كم قاسيت عندئذ من الآلام

وقامت فى نفسى عزيمة من تلك العزائم التى تأتى المرء فى ثورة الهم والغضب فيخال أنها أيسر الأمور انفاذاً . فارتأيت انه لابد من قطع علائق هذا الحب ، وترقبت الصباح على ضجر توقا الى عودتى فاتخاذى مكانى الأول بين أبى وأختى ، بين هذين القلبين اللذين أنا موقن بهما وفى حبهما المزدوج لا أخال انى أنخدع أبداً

ومع هذا رغبت ألا أبرح حتى تعلم مرجريت لِمَ برحت ، فان الرجل الذى حقّت سلوته هو وحده الذى يغادر حبيبته دون أن يكتب لها شيئاً

فأخذت أكتب فى رأسى كتاباً إثر كتاب حتى تمت الكتب عشرين

لم أكن واصلت إلا حظية من الحظيات ، وقد نظرتها بعين الشاعر فأكبرتها فوق ماهى ، وقد عاملتنى كأنما تعامل تلميذاً صغيراً لها ، وخدعتنى بحيلة من البساطة بحيث تصمنى بالبله . كل ذلك كان جلياً . فأخذتنى العزة وارتأيت أن أقاطع هذه المرأة دون أن أريح بالها بعلم ما أقاسى من قطيعتها ، وهاك ما كتبت لها فى أرشق عبارة من عبارتى ودموع الغضب والألم تترقرق فى عينى :

« عزيزتي مرجريت

« أرجو أن يكون انحراف صحتك بالأمس غير ذي بال . جئتك في الساعة الحادية عشرة في المساء أستقي من أخبارك فأخبرني المخبر انك لم تعودي الى دارك . لقد كان السيد دي ج . . . أسعد مني حظاً فانه أتى بعدي ببرهات فأذن له في الدخول ، ودقت الساعة الرابعة صباحاً وهو لا يزال عندك

« إغفري لي بضع الساعات التي قضيتها معك وكوني على ثقة من أني لن أنسى لك حلاوة الاويقات السعيدة التي مننت بها عليّ

وكان يحسن بي أن أستخبر عنك اليوم ولكني اعتزمت العودة الى أبي .

« فوداعاً ياعزيزتي مرجريت . لستُ من الغنى بحيث أحبك على ما أهوى ، ولستُ من الفاقة بحيث أحبك على ما تهوين . فلنتناس جميعاً . تناسيْ أنت اسماً لاشك كان لايهمّك كثيراً ، ولأتناس أنا سعادة استحالت عليّ

« أردُّ لك مفتاحك الذي لم أستخدمه قط ، والذي قد يفيدك اذا أنت عاودك مرض كالذي كان بالأمس »

فترى أني لم أستطع أن آتي على ختام الكتاب دون أن أصيبها بأهكومة وقحة باردة دليلة حب لها كان لايزال في قلبي نامياً

فقرأتُ هذا الكتاب وأعدته عشراً ، وشفى غليلي بعضَ الشيء أنه سيؤلمها . واستجمعت قواي أغالب ما استيقظ عندي من العواطف فدفعته الى خادمي لما دخل علي في الساعة الثامنة وسألته حمله اليها من الفور

وسألنى وكان اسمه يوسف كاسم كل خادم سواه

— هل انتظر الجواب ؟

— اذا سئلت أتريد جواباً فقل انك لا تدرى وانتظر

وتعلق قلبى برد الجواب . وارحمة لنا من مساكين ضعفاء !

وفى المدة التى لبثها خادمى خارج منزلى كنت فى اضطراب عظيم ، أذكر كيف أسلمت لى مرجريت نفسها فأسأل نفسى بأى حق أكتب لها كتاباً وقحاً كالذى كتبت فى حين أنها تستطيع أن تجيبنى بأن السيد دى ج . . . لم يخنى فيها بل أنا الذى خانه . وتلك حجة أمثال هؤلاء النساء يُدلين بها ليكون لهن أكثر من حبيب فى آن . ثم أذكر قسمها فآخذ أُقنع نفسى بأنى بالغت فى لطف الكتابة وانه ليس فى اللغة عبارة مهما بلغت من القسوة أرضاها لوخز هذه المرأة التى تهزأ من حبٍ هو غايةٌ فى الاخلاص كحبى . ثم أرجع فأقول كان الأولى ألا أكتب لها وأن أذهب اليها اذا تسامى النهار فأشفى غيظى بما أراها تُريقه أمامى من دموع أدفعها الى اراقتها

وأخيراً أعود أسائل نفسى « أتجيب ؟ » وقد تهيأتُ لقبول عذرها

وعاد يوسف فسألته ما وراءك ؟ فأجابنى : وجدت السيدة نائمة فاذا استيقظتْ دفعوا اليها الكتاب وان كان له جواب حملوه الينا

السيدة نائمة !

لهممتُ مرات أن أبعث فى استرجاع الكتاب ولكنى كنت أقول دائماً : لعلهم قد دفعوه اليها ، فاذا بعثتُ فى طلبه فنى ذلك ظهور بالأسف على ارساله . وكلما انقضت الساعات التى حسبتها تكفى لرد الجواب أسفت

على انى كتبت . ودقت العاشرة فالحادية عشرة فانتصف النهار

وعند انتصافه هممت بالذهاب اليها فى الموعد المضروب بينى و بينها كأنْ لم يجرِ شيء مما كان . واختصاراً لم أدر كيف أستدر من خيالى حيلة للخلاص من طوق الحديد الذى شدَّ علىّ

واطمأننت الى خرافة يجدها فى أنفسهم من طال عليهم انتظار ، فحسبت أنى اذا خرجت عن البيت قليـلا فعند عودتى سأجد الجواب حاضراً . واعتقدت أن الجواب الذى يُقلق المرء انتظاره لا يأتى الى البيت الأ والمرء غائب عنه

فخرجت بدعوى الذهاب للغداء

و بدلاً من أن أتغدّى فى قهوة « فوا » فى زاوية « البلفار » كعادتى ، اخترت أن أذهب الى « باليه رُوايال » لـكى أمر بشارع أنتين . وكنت كلما أبصرت فى الشارع أنثى تأتى من بعيد حسبتها نائين تحمل الىّ جواباً

ونفـذت فى شارع أنتين فلم أظفر برسول واحد . ووصلت الى « باليه روايال » فدخلت الى « فرى » فأطعمنى خادم المطعم أو أولى من ذلك حمل الىّ من الصحاف ما شاء فانى لم أطعم شيئاً

و بالرغم منى ظلت عينى عالقة بسـاعة الحائط . وعدت الى دارى على يقين من وجود كتاب من مرجريت

لم يتسلم البواب شيئاً . فوضعت الأمل فى خادمى . فهذا أيضاً لم ير أحداً منذ خرجت . اذا كانت مرجريت نوت أن تجيب لـكانت أجابت من زمن طويل

وعندئذ أخذت آسف على لهجة كتابى. كان الأجدر بى أن أسكت

كل السكوت فيكون هذا سبباً الى قلقها ، فانها اذا أرتنى تخلفتُ عن موعدها الذى ضربته لى فى العشية الماضية فهى لا شك تسألنى عن سبب تخلفى ، وعندئذ أدفع لها بالسبب . وبهذه الطريقة لا تجد إلا أن تبرئ نفسها وهذا كل ما أردت منها . وسبق الىّ ميل الى تصديق كل ماتدلى به والى أنه كان أولى بى أن أختار قبول كل شىء على ألا أراها

وانتهيت من ذلك الى توهّم أن مرجريت ستأتينى بنفسها ولكن مرت الساعات ولم تأت

لا شك ان مرجريت لم تكن ككل النساء فان القليل منهن من يأتيه كتاب كالذى كتبته فلا يجيب بشىء

وفى الساعة الخامسة جريت الى الشانزيليزيه وقلت فى نفسى : اذا أنا قابلتها ظهرتُ بقلة العناية بها وتغافلت عنها فعندئذ تعتقد أنى حقاً لا أفكّر فيها بعد الذى كان

وعند منعطف شارع « روايال » لمحتها مرت فى مركبتها فكان اللقاء ثقيل الوطأة علىّ ، فامتقع لونى ولم أدر أرأت ذلك منى أم لم تره ، فانى تخبّلت فلم أر إلّا مركبتها

وقطعت تجوالى فى الشانزيليزيه وانكفأت راجعاً أقرأ اعلانات المسارح عسى أن أراها مرة أخرى هناك

كان فى « باليه روايال » رواية جديدة تمثل لأول مرة ، فأيقنت أن مرجريت ستحضرها . وفى الساعة السابعة كنت فى هذا المسرح . امتلأت الألواج كلها . ولم يظهر أثر لمرجريت . فخرجت من فورى وذهبت الى ما اعتادت أن تذهب اليه من الملاهى ، الى « الفودفيل » ،

الى « الفارياتيه » ، الى « الأوبرا كوميك » فلم أجدها فى أحدها

فاما أن يكون كتابى اليها آلمها الى حد أنهـا رغبت عن مشاهدة التمثيل ، أو أنها خشيت لقائى فاجتنبت موقفاً تعوزها فيـه تفسيرة ما لتبرير ما جنت

وقابلت جستون فى الطريق فجرى بيننا كلام وسوس الىّ به غرورى . سألنى

— من أين أنت قادم ؟

— من « الباليه روايال »

— وأنا من « الاوبرا » وقد ظننت أنى أجدك هناك

— لِمَ ؟

— لأن مرجريت كانت هناك

— آه ! أكانت هناك ؟

— نعم

— وحدها ؟

— لا بل مع احدى صواحبها

— وهذا كل شيء

— لم يبق الا أن الكونت دى ج . . . جاءها الى لوجها وظل برهة ولكنها برحت الملهى مع الدوق وكنت أتوقع ظهورك من آن لآن . وكان بجانبى كرسى ظل خالياً طول المساء فاعتقدت أنه كرسيك لا محالة

— ولكن كيف أتاك أنى لابد أذهب حيث تذهب مرجريت ؟

— يا الله ! ألست حبيبها

— ومن أنبأك هذا ؟

— أنبأني برودنس لما قابلتها بالأمس فهنيئاً لك ياعزيزي هذه الخليلة الظريفة التي لاينالها كل من شاء . احتفظ بها فانها ستشرفك

فبمثتُ في جملة جستون القصيرة هذه غضبا على ما كان مني من نزق لو أنه كان قابلني العشية الماضية وقال لي مقالته هذه لما كنت كتبت لها في الصباح ذلك الكتاب السخيف

وكنت على وشك أن اذهب الى برودنس فأبعث الى مرجريت بأني أود مكالمتها ، ولكني خشيت أن تنتقم مني فتجيب بأنها لاتستطيع لقائي ، فعدت الى داري متخذاً سبيلي من شارع انتين . وسألت البواب أجاءك كتاب لي فقال لا

وقلت لنفسي وأنا راقد في فراشي لقد ارادت ان ترى أيّ التدابير آتخذ بعد الذي كان ، وهل أسترد كتابي اليوم أولا فأرجأت الكتابة اليّ ولكنها غدا ستكتب لي

وزاد أسفي هذه الليلة على ما صنعت لمّا وجدتُني في بيتي وحيداً أرقاً ضجراً تبرّح بي الغيرة بريثما كان في استطاعتي اذا أنا كنت تركت الأمور تجري مجراها أن أكون في هذه الساعة الى جنب مرجريت أُسمعني كلماتها السواحر التي لم أحظ باستماعها الامرتين ، تلك الكلمات التي كانت تحز أذني ذكراها كلما استرجعتها في وحدتي في تلك الليلة

لقد كان أشق شيء عليّ في موقفي أني كلما حاججت نفسي أخذتني الحجة . ان الناس كلهم يقولون لي ان مرجريت تحبني ، وأول دليل على هذا تدبيرها قضاء صيف معي أنا وحدي في الريف ، وثاني الأدلة أنه

لم يكن شيء يكرهها على أن تكن خليلتي ، ولم يكن معى من المال ما يسد محض حاجاتها فضلا عن مطالب أهوائها ، فعلى هذا لم يكن بها سوى أمل فى حب خالص يكون لها منى ، يريحها من عناء حب يشترى بالثمن ظلت تعانيه حيناً ، ولكنى قضيت على أملها فى ثانى يوم من ايامنا ، ودفعتُ لها ثمناً عن حبها اياى ليلتين أهكومة بذيئة . فالذى أتيت لم يكن سخافة فحسب ، بل كان فوق ذلك قسوة وجحوداً . هل كنت أجرتُ هذه المرأة فيكون لى الحق فى لومها فى أمور حياتها ؟ ألم يكن مابى مثل ما بطفيلىٍّ تطفل على حب ثم انقطع عن صاحبه من ثانى يوم خشية أن تدفع اليه بطاقة بثمن غذائه ؟ يا لله كيف ساغ هذا ؟ لم يمر على معرفتى مرجريت سوى ست وثلاثين ساعة وتقبلتنى حبيبا لها ولم يمض من هذه الساعات غير أربع وعشرين حتى مثّلت دور الغيور ، وعوضاً عن أن أسعد بالنصيب الذى اعطته اياى طمعت فى كل الانصبة وأردتها على قطع كل العلاقات التى لها بماضيها ، وقد كانت مورد رزقها فى مستقبلها . ماذا كان عندى آخذه عليها ؟ لا شيء . لقد كتبتْ الىّ تقول انها مريضة وقد كانت قادرة على أن تقول لى بصراحة كريهة مرة كصراحة بعض النساء أنهم فى شغل عنى باستقبال حبيب غيرى . بدلاً من أن أصدق دعواها ، بدلا من أن أطوف فى كل شوارع باريس الا شارعها ، بدلاً من أن أقضى عشيتى مع أصدقائى وأذهب اليها فى الغد فى الموعد الذى ضربته ، بدلاً من كل هذا أرانى مثّلت « عُطيلا »[١]

---

(١) بطل رواية شكسبير المعروفة . ودوره من أكبر الادوار فى تمثيل الغيرة

وتجسست عليها وظننت انى أعاقبها بأن لا أراها ، وهى على النقيض لا بد سُرَّت من هذه القطيعة وألفتنى غايةً فى الحمق فسكت ، لا من حقد واضطغان ، بل من تحقير وازدراء

لقد كان يحسن بى عندئذ أن أُهدى لها هدية تشهد لى عندها بسخائى ومروءتى ، وتبرئ ذمتى أمام ضميرى اذا أنا اعتبرتها حظية . ولكنى لم أشأ أن أسىء الى حبى اياها ، ان لم يكن الى حبها اياى ، بأى مظهر مهما خف من مظاهر التجارة . ولما كان غرامى بها من النقاء والطهارة بحيث لم يأذن لأحد فى مشاركتى فيها ، كانت لا ترضينى الهدية مهما بلغت من الحسن أدفعها اليها ثمناً للسعادة التى حظيت بها مهما قصر مداها

فذلك ما كان يتردد فى خاطرى طول الليل ، وذلك ما هممت مراراً بالذهاب لتأديته الى مرجريت

وطلع النهار ولم تغمض لى عين . كنت محموماً لا أستطيع التفكير فى شىء غير مرجريت

وكان كما ترى لا بد لى من البتّ فى الأمر ، فاما أن أقطع ما بينى وبين هذه المرأة ، واما أن أقطع ما بينى وبين وساوسى اذا كان لى عندها بقية قبول

ولكنك تعلم أن المرء فى مثل هذه الأحوال يميل دائماً الى تأجيل البت فى الأمور . فلما لم أستطع أن أقرّ فى بيتى ولا أن أذهب الى مرجريت حاولت طريقة أخرى أصل بها اليها ، طريقة ان نجحت فليس بعزيز علىّ أن أتناسى انى أتيتها عمداً فلا أجرح بذلك عزتى وكرامتى

وجاءت الساعة التاسعة فجريت الى پرودنس فسألتني ما الداعي الى هذه الزيارة الباكرة ؟

فلم أجسر أن أصرح لها بحقيقة الداعي . فأجبتها بأني انا بكرت لاحتفظ بمكان في مركبة البريد المسافر الى مدينة ك . . . حيث يعيش والدي . فقالت لي

— ان من سعدك أن تبرح باريس في هذا الجو الصافي

فأحدقتُ في پرودنس أستشف منها دليلاً على السخرية مني ولكن وجهها لم تلُح عليه الا علائم الجِد . فأجابتني بجِدها المتواصل

— أتذهب لوداع مرجريت ؟

— لا

— تحسن

— أترين ذلك ؟

— بالطبع . اذا أنت قاطعتها فما الحاجة الى وداعها ؟

— علمتِ اذن بالقطيعة ؟

— لقد أرتني كتابك

— وماذا قالت لك ؟

— قالت لي : يا عزيزتي پرودنس ان صاحبك غير مهذب فان معنى هذا الكتاب قد يجول بالخواطر ولكنه لا يخط على الأوراق

— وبأية نغمة قالت ذلك ؟

— قالت ذلك وهي تضحك ، وعقّبت عليه تقول : انه تعشى معي عشوتين ولم يأت بعدهما على العادة يزورني

أنظر ماذا جرّ كتابي وغيرتي . لقد خاب ظني وذلت كبريائي الموهومة في هذا الحب

— وماذا كانت تصنع أمس في المساء ؟

— كانت في الأوبرا

— أعرف هذا ، وبعد ؟

— تناولت العشاء في بيتها

— وحدها ؟

— لا بل أظن تناولته مع الكونت دي ج . . .

فعلى هذا لم تغيّر قطيعتي شيئاً من عادات مرجريت

انه من أجل هذه الحوادث يقول لك بعض الناس انه يجب على المرء ألا يفكر في المرأة التي لا تحبه . فقلت لبرودنس على أثر ذلك وأنا أبتسم ابتسامة مصنوعة

— أنا مسرور لأن مرجريت لم تغتم من أجلي

— ولها الحق الأكبر في ذلك . لقد فعلتَ ما وجب عليك أن تفعله ، فكنت في ذلك أوفر منها عقلاً ، لأن هذه الفتاة أحبتك فلم تجد من القول إلاّ ما كان فيك وتهيأتْ لتأتي في سبيلك كل سخافة

— اذن فلم لم تجبني اذا كانت تحبني ؟

— لأنها أدركت انه من الخطأ حبك . وفوق هذا فالنساء قد تصفح عمّن خدعهن في حبهن اياه ، ولكن لا تأذن أبداً أن تُجرَح عزتهن وكبرياؤهن ، والمرء يجرح عزة المرأة وينال من كبريائها اذا قطع علاقته بها ولم يمض على عهد الوصال الا يومان ، مهما كانت معاذيره

عن هذه القطيعة . انى أعرف مرجريت وأعرف أنها تموت قبل أن تجيب عن كتابك

— فما العمل ؟

— لا شيء الا أن تنساها وتنساك ، فلا لائم ولا ملوم

— واذا كتبت لها اسألها الصفح ؟

— حذار فانها تصفح عنك

فكدت أثب الى عنق پرودنس من الفرح . وبعد ربع ساعة كنت فى بيتى أكتب الى مرجريت هذا الكتاب :

« رجل يُنيب اليك من كتاب كتبه بالأمس ، ويبرح باريس غداً اذا أنت لم تصفحى عنه اليوم ، يسألك أن تخبريه الساعة التى تأذنين له فيها بالتوبة عند قدميك »

« متى أجدك وحيدة ؟ فأنت تعلمين أن من شروط الاعتراف[1] ألا يكون فى حضرة شهود »

وطويت هذا الشعر المنثور وبعثته الى مرجريت مع يوسف ، فدفعهُ اليها هى نفسها فقالت له انها ستجيب بعد حين . فلم أغادر منزلى الا برهة ذهبت فيها للعشاء . ودقت الساعة احدى عشرة ولم يأتنى جواب فعزمت على الا آلم فوق ما ألمت وأن أسافر فى الغد

وعلى هذا العزم واعتقادى أن النوم لن يأتينى اذا رقدت هممت أهيئ حقائبى

---

(١) يشير الى اعتراف الكاثوليك بخطاياهم الى القسيس

الفصل الخامس عشر

لم يمض على أنا ويوسف دون الساعة فى تجهيز حقائبى للسفر حتى دق الباب دقاً شديداً ، فقال لى يوسف : أأفتح ؟ فقلت له : افتح ، وأنا أسائل نفسى من يكون الطارق فى هذه الساعة ولم أجسر أن أخاله مرجريت . فقال لى : يا سيدى انهما امرأتان . فنادانى صوت برودنس من عند الباب يقول

— الطارق نحن يا ارمان

فخرجت من غرفتى . ووقفت برودنس ترعى ما كان فى الثوى من قليل الطرف وجلست مرجريت على الأريكة مستغرقة فى أفكارها

فدخلت عليهما وجثوت أمامها وتناولت كلتا يديها وقلت لها وقد غلبنى التأثر : صفحاً . فقبلت جبينى وقالت

— هذه ثالث مرة أصفح فيها عنك

— لقد كنت على وشك السفر فى الغد

— وماذا فى زيارتى يبطل سفرك . انى لم أقدم اليك لأمنعك من مغادرة باريس وإنما أتيت الآن لأنه لم يكن لدى فراغ فى النهار لاجابتك عن كتابك ولم أشأ أن أتركك تعتقد انى على كدر منك وكانت برودنس تمانع مجيئى وتقول انى ربما أزعجتك

— أنت تزعجينى ! أنت يا مرجريت وكيف يكون هذا ؟ فأجابت برودنس

— أجل ، فانهُ ربما كانت لديك امرأة لا يكون من سرورها أن ترى اثنتين غيرها يقدمان عليك

وعندئذ لاحظتنى مرجريت بانعام تستيقن منى أمراً . فقلت

— يا عزيزتى برودنس انك تقولين ما لا تعقلين . فأجابت

— ما أظرف دارك هذه . أتأذن لى فى رؤية مخدع نومك ؟

— نعم

نخطت برودنس الى المخدع تقصد الى إصلاح ما أفسد لسانها ، والى تركنا وحدنا ، أكثر مما قصدت الى رؤية المخدع ذاته . فقلت لمرجريت

— لماذا أتيت ببرودنس معك ؟

— لأنها كانت معى فى دار التمثيل فأردت أن أصطحبها لدى ذهابى من عندك

— وأين أنا ؟ ألم أكن هنا ؟

— نعم . ولكن فضلا عن انى لم أود إزعاجك فانك إن ذهبت معى فلا شك سائلى الصعودَ الى منزلى ، ولما كنتُ لا أستطيع اجابتك فقد أردت أن أجتنب منك لائمة على رفضى لك سؤْلاً

— وما سبب امتناعك عن اجابتى الى الصعود اذا أنا سألته ؟

— لأنهم يراقبوننى أشد مراقبة واقل تهمة تجر علىَّ أكبر الضرر

— أهذا السبب الوحيد ؟

— لو كان سبب غيره لقلته لك فليس بيننا سر يخفى

— اسمعى يا مرجريت . لا أريد ن أتخذ سبلاً عدة للوصول الى ما أريد ، بل أسألك بصراحة : أتحبينى قليلا ؟

— لا بل كثيراً

— اذن فما تلك الخديعة السابقة

— أى صديق ، لو كنتُ اللدوقة فلانة أو فلانة ، أو كان لى مائة الف لأكون خليلتك وحدك فلا أتخذ غيرك خليلا ، إذن لكان لك الحق فى سؤالى لِمَ خدعتك ؟ ولكنى الآنسة مرجريت جوتيه ، علىّ أربعون ألف فرنك ديناً ، ولا أملك من ثروة درهماً ، وأنفق مائة الف فرنك فى السنة ، فسؤالك من بعد هذا لغوٌ وجوابى عنه باطل

فقلت لها وتركتُ رأسى تسقط على ركبتيها

— هذا حق ولكنى أحبك حب مجنون متهالك

— ليس لك يا صديق الاّ أن تَنْقُص من حبك قليلا، أو تزيد من فهمك إياى قليلا . إن كتابك آلمنى ايلاماً شديداً . انى لو كنت حرة لرفضت أولَ شىء أن أستقبل الكونت أول من أمس ،أو لو انى استقبلته لكنت أتيتك أسألك الصفح الذى سأتتيه الآن ولم يكن لى فى المستقبل سواك من حبيب . لقد خلتُ ساعةً انى أدرك سعادتى بك مدة شهور ستة ولكنك لم ترد ذلك وتشبثت بعلم الوسيلة اليه . يا لله ! كأن الوسيلة كانت خافية غامضة فلا تستطيع حَزْرها . إنها تضحية أضحّى بها فوق كل تضحية تعتقد أنى أهل لها . لقد كان فى وسعى أن أقول لك انى فى حاجة الى عشرين ألف فرنك ، وإذ كنت تحبنى فانك كنت لا شك ستحصلّها لى لترجع يا عزيزى باللائمة علىّ فيها بعد حين . فاخترتُ ألا أطلب اليك شيئاً فلم تفقه لرقة ذوقى وحسن رفقى بك معى . لقد كان ما فعلتُ من الرقة والرفق بمكان . انّا معشر الفتيات أمثالى اذا كانت لنا

بقية من قلب تجلّ الكلمات ونكبر الأشياء فوق ما يفعل غيرنا من الفتيات . لهذا أكرر على سمعك أن انتهاء مرجريت جوتيه الى الوسيلة التي ارتأتها لسدّ دينها دون أن تسألك سداده كان رقة ذوق وحسن رفق كان أولى بك أن تنتفع بهما . هب أنك لم تعرفني غير اليوم أفلا تكون سعيداً بما بذلت لك من تلك المتاعة الموعودة ، وهل كنت تسألني ماذا صنعت أول من أمس . انا معشر الخطيات قد نبذل أجسامنا ونمتهن أجسادنا رجاء سلوة نفسية ولبانة روحية ، فانظر كم يكون ألمنا اذا ولّت هذه السلوة ونحن على كثب منها وأفلتت هذه اللبانة من بين يدينا

أصغيت الى مرجريت إصغاء ، ولاحظتها اكباراً ، وأخذت أمعن النظرة في هذه المخلوقة البديعة فذكرت انى بالأمس ربما غبطت من يقبل قدميها ، وأنى اليوم قد أذن لى في الدخول الى فكرتها فشغلت حيزاً من رأسها ، وأنها سمحت فأعطتني دوراً ألعبه في حياتها ، ثم قرنت هذا بأني لم أرض بعد بما كان فسألت نفسي أيكون لأماني ابن آدم حدّ بعد أن نلت قصارى ما أملت هكذا سريعاً ، فلم أجدني به قانعاً ، بل وجدتني الى غيره مشرئباً توّاقاً

واسترسلت مرجريت تقول

— انه الحق . انا معاشر المخلوقات الموكّلات الى لأقدار لنا من الأهواء أعاجيب ، ومن الحب صنوف لا يتصورها انسان . طوراً نهب أنفسنا لأمر وتارة نهبها لغيره . ومن الناس من يفلس نفسه ولا ينال منا قليل شيء ، ومن الناس من ينالنا أجمع بباقة زهر . قلوبنا بها أهواء

هى وحدها عزاؤها ، وهى وحدها معاذيرها . وقسماً لقد وهبتك نفسى أسرع مما وهبتها لأحد غيرك . ولم ؟ لانك وجدتنى أبصق الدم فأخذتَ يدى ، لأنك بكيتنى ، لانك المخلوق الوحيد الذى رحمنى . لا بأس عليك من السخافة التى سأذكر : كان لى فى زمانى جَرْوٌ كان يلحظنى لحظ الحزين عند ما أسعل ، فهذا من الخلق أجمع مَنْ أخال انى أحببته . ولما مات بكيته فوق ما بكيت أمى . لست أنكر أنه عاش معى اثنتى عشرة سنة من حياته . والآن قد أحببتك سريعاً قدرَ ما أحببت كلبى هذا — ألا لو عرف الناس ما وراء دمعة تُسبل لكانوا أسرع فى الدخول الى قلوبنا مما هم ، وكنا أبطأ فى إخراجهم مما نحن

لقد فضَحك الكتاب الذى كتبته الىَّ فكشف لى منك عن ذكاء قلب قليل ، وأصاب الحب الذى بى لك إصابة أبلغ من أية جريمة تجنيها يداك . لا أرتاب فى أن الذى أثارك الى ما كتبت غيرة ، ولكنها غيرة مازجها تهكم وتوقح . لقد كنت حزينة قبل ورود كتابك وكنت أداور فى حُسبانى أنى سأراك فى الظهر وأتغدى معك فأمحو برؤيتك فكرة الحتّ علىّ لم تكن تقلقنى قبل عرفانك

واستطردت مرجريت :

— وبعدُ ، فقد كنتَ الوحيد الذى حسبته يستطيع فهم آرائى وأقوالى سريعاً اذا أنا فكرت صريحاً أو تكلمت بلا كُلفة ، على حين أن من يلتفّون حول فتاة مثلى لا يفوتهم أن يُمعنوا فى كل كلمة تفوه بها ويستنتجوا أعقد الأمور من أتفه أقوالها . نحن بالطبع ليس لنا أصدقاء بل أحباب انانيّون ينفقون أموالهم لا علينا كما يدّعون ولكن على

أهوائهم . وهم لا يرضيهم منا الا أن نظهر بابتهاج إنْ كانوا مبتهجين ، أو بالصحة والشهية إنْ أرادوا المشاء معنا ، وإلاّ أن نظهر بالشك مثلهم فى كل قضية وحقيقة من حقائق الكون وقضاياه . ونحن غير مأذون لنا فى أن تكون لنا عاطفة أو بقية من قلب ، ومن أذِن لنفسه منا بشىء من ذلك فسرعان ما تضيع الثقة فيه ويُطارد بالصياح خلفه والنباح . لم نعُد بعدُ ملكا لأنفسنا . لسنا من الأحياء ولكننا من الأشياء . اذا تولى الناسَ حبُّ ذواتهم ، وملكتهم سورة شهواتهم ، وضعونا فى المكان الأسمى والذّروة العليا . حتى اذا جاءت ساعة التوقير والاحترام فلنا المكان الأسفل والمرتبة الدنيا . لنا صديقات ولكنْ كپرودنس ممن كنّ بالأمس حظيات ولا يزال بهن الى اليوم حب النفقة ومنهن لا تسمح لهن بهن ، فهؤلاء يصادِقننَا أو بالحَرِىّ يكنّ جلساءنا أكلاءنا ندماءنا . وقد تذهب صداقتهن الى حدّ العبودية ولكن لا تصير الى إخلاص نزيه أبداً . وهن لا يُشرّن علينا الا بالرأى الرابح مالاً ، ولا يعبأن أن يَزيد أحباؤنا عشرةً ما دُمْنَ ينلْن من وراء ذلك ثوبًا أو إسورة ، أو يركبْن فى مركباتنا اذا ذهبنا للرياضة من آن لآن ، أو يذهبن معنا الى التمثيل يَشركْننا لوجنا ويكون لهن بعد انقضاء السهرة طاقات الزهور التى تهدَى الينا ، ويقترضن منا كشاميرنا ولا يقمن لنا بخدمة مهما صغرت حتى يُنقَدْن ضعفىْ أجرها . ولقد شهدتَ أنت بنفسك ليلة جاءتنى پرودنس بستة الآلاف فرنك التى سألتها طلبها من الدوق ، وشهدتَ اقتراضها منى خمسمائةٍ لن تردها الىّ أبداً أو تردها الىّ قبعاتٍ مما تصنع لا تصلح لشىء فلا أُخرجها قط من صناديقها

على ذلك ليس لنا ، بل أولى من ذلك ليس لى أنا الآ هناءة واحدة وتلك هى أنى على ما ينتابنى من الحزن أحيانا وعلى أوجاعى الدائمة من دائى أودّ العثور على رجل راقٍ سامٍ . بلغ من سموّ نفسه ألا يحاسبنى حساب حياتى التى أحيا ، ويقدر انفعالاتى وعواطفى ، ويحبها قبل أن يحب جسدى . لقد كنتُ وقعت من الدوق على رجل كالذى أطلب ، ولكنهُ شيخ ، والشيخوخة لاسلوة فيها ولا غَناء . وكنت حسبت معه أنّ فى طاقتى أن أجرى على حياة العزلة التى رسمها لى أولاً ، ولكنى كنت أقضى من السآمة والضجر ، وقلت ان كان لا بد من الهلاك فلأقذف بنفسى فى لهب الحريق أولى من الموت البطئ فى غازات فحمه الخانقة . ثم لقيتُك شاباً نشيطاً سعيداً فاجتهدت أن يكون لى منك ذلك الرجل الذى طلبت فى عزلتى وسط الزياط والجلبة ، وما أحببت منك عندئذ شخصك الذى كان بل شخصك الذى حسبته أن يكون . انك اطرحت الدور الذى أردتك على تمثيله وقذفت به قذف شائن مزرٍ . فأنت محب كعامة المحبين وغوغائهم ، فاصنع مثلهم وانقدنى كما ينقدون ولنحبس لساننا عن هذا الأمر من الآن

وارتمت مرجريت الى ظهر الأريكة وقد أجهدها هذا الاعتراف الطويل . وجاءتها نوبة سعال خفيفة فرفعت منديلها الى شفتيها ثم الى عينيها فتمتمتُ اليها

— صفحاً ، صفحاً . لقد علمت كل هذا ولكنى أردت أن أسمعه منك يا حياتى . فلنتناسَ كل شىء الا شيئاً واحداً : ذلك أنك لى وأنى لك ، وأنّا فى ظلال الشباب الوريفة يلفُّنا الهوى . أى مرجريت إصنعى

بي ما تشائين . أنا طوعك . أنا عبدك . ولكن بالله أسألك أن تمزقي الكتاب الذي كتبته اليك وألا تدعيني أرحل في الغد فني البعد عنك موتي وهلاكي

فأخرجت مرجريت من صدر ثوبها كتابي ودفعته الي وقالت وهي تبتسم ابتسامة بها نوع من حلاوة لا توصف: هذا كتابك أرده اليك

فمزقت الكتاب وقبلت اليد التي حملته الي والدمع يترقرق في عيني

وعندئذ عادت برودنس الينا فقالت مرجريت لها

— أتعلمين ما الذي طلب الي ؟

— طلب الصفح

— هو ذلك

— وقد صفحت ؟

— لقد وجب الصفح . ولكنه يريد شيئاً عداه

— وما هذا ؟

— يريد العشاء معنا

— وهل أجبته اليه ؟

— ما رأيك ؟

— رأيي انكما طفلان لا عقل لك ولا له . ولكن من رأيي أيضاً أن بي جوعاً شديداً وانت كلما أسرعت الى إجابة طلبه أسرع الطعام الي .

فقالت مرجريت

— فهيا نحن الثلاثة الى مركبتي .

ونظرت الي تقول

حياة البطالة والتراخي . وكانت نفقتي معتدلة ، غير أني كنت أنفق مال العام في ثمانية أشهر وأقضي أربعة أشهر الصيف عند أبي ، ومعنى هذا أني زدت دخلي من ثمانيـة آلاف الى اثني عشر ألفاً . وكنت نعم الولد الطيب عند الناس . وفوق هذا لم يكن عليّ دين ما

هذه هي الحال التي كنت عليها لما عرفت مرجريت

لا يغيب عنك أن نمط حياتي بعـد ذلك رَقَّ بالرغم مني فرقيتُ معه نفقتي . وكانت طبيعة مرجريت هوائية الى الغاية، وكانت تصطحب نساء ينفقن بلا حساب ، ولا يَقدِرن ما يُنفَق في سد الـكثير الجم من مطالبهن ، وفي الاجابة الى العدد العديد من أهوائهن . وأرادت مرجريت أن تقضي معي أطول ما يمكن من وقت ، فكانت تكتب في الصباح انهـا ستتغذى معي ، لا في بيتها ، ولـكن في مطعم في المدينة أو في خارجها بين خضراء المروج ، فأغدو اليها للذهاب بها فنتغذى ونذهب الى التمثيل ونتعشى غالباً ولا يختم المساء حتى أكون قد أنفقت أربعة جنيهات أو خمسة ، فتكون نفقتي في الشهر على ذلك خمسة وعشرين وألفي فرنك أو ثلاثة آلاف ، فلا يمضي من العام غير ثلاثة أشهر ونصف حتى ينفدَ دخلي وأقعَ في حيرة بين ثلاثة أمور : إما الافلاس أو الدين أو الذهاب عن مرجريت

فاحتملت كل أمر سوى هذا الأخير

عفواً اذا وجدتني أثقلت عليك بذكر هذه التفصيلات الـكثيرة ، فسترى أنه لم يكن بدٌّ منها وقد كانت أسباباً لمـا تبعها . إن الذي أقص عليك قصـةٌ حقة ساذجة لا أسلبها بساطتها التي تجدها في دقائقها ،

فى الدور الذى رضيت بتمثيله ، فانى على الكره منى أحزننى هذا الدور حزناً دخيلاً . وبدأتُ أتدرّب على الحياة فى جلبة واختلال نظام ، وقد كنت لا أعرفهـا إلاّ هادئة وادعة . لا تذهبْ الى أن ترى أن حب حظية لك لا يكلّفك شيئاً مهما تنزه هذا الحب عن الأغراض ، فليس لى شىء أكبر كُلفة من متطلبات أهوائها ، فمن زهور ، الى ألواج ، الى دعوات العشاء ، الى خروج بها فى رُفقة للتنزه الى الريف ، الى غير ذلك مما لا يستطيع إنسان أن يمتنع عن إجابة خليلته اليه

وكنت كما قلت ليس لى مال . وكان أبى لا يزال رئيس الجباية فى مقاطعة ج . . وكانت له سمعة طيبة واخلاص معروف ، حمداً لله عليهما ، فلولاهما ما استطاع أن يقترض مبلغ التأمين الذى كان لا بد له أن يقدّمه وديعةً حتى يتسلّم زمام أعماله . وكان له من عمله هذا دخلٌ أربعون ألفاً من الفرنكات فى السنة . وسعى فى رد ما اقترض للتأمين الى مقرضيه فأتم ذلك . وبذل وسعه فى اقتصاد جانب لسدّ ركن من مهر أختى . إن أبى أشرف رجل وجدتُ فى الدنيـا . وماتت أمى وتركت لى أنا وأختى ريعاً سنوياً ستةَ آلاف من الفرنكات قسمها بيننا من اليوم الذى نال فيه وظيفته التى طلب . ولمـا بلغتُ الحادية والعشرين ريعاً أضاف الى دخلى الصغير من عنده خمسة آلاف فرنك ، وأكّد لى أنى بمـا صار لى من الثمانية الآلاف أستطيع العيش الهنىء فى باريس لو أنى خلقتُ لى الى جانب دخلى هذا مكانة سواء أفى الطب أم فى المحاماة . فذهبت اليها ودرست الحقوق ونلت شهادة المحاماة وفعلت ما يفعـله الكثير من الشبان فطويت شهادتى فى جيبى وأسلمت نفسى

ولكني دسستها في جيبي كما يفعل سائر الشباب .. وانصرفت إلى حياة اللهو والعبث والبطالة .

وكانت نفقاتي غاية في الاعتدال وحسن التدبير .. ولكني كنت أنفق كل إيرادي السنوي في ثمانية شهور .. ثم أقضي أربعة شهور الصيف في بيت أبي .. وبذلك استطعت أن أوفق بين قلة إيرادي وواجبي كولد بار بأبيه .

على أنني لم أكن مديناً بسنتيم واحد .. لكائن من كان .

وقد كان ذلك حالي إلى أن عرفت مرغريت .. فعندئذ تضاعفت نفقاتي على الرغم مني .

وقد كانت مرغريت امرأة ساهية القلب .. من أولئك النساء اللاتي لا يعتبرن تكاليف الملاهي وضروب التسلية .. وآلاف التوافه التي تتألف منها حياتهن .. شيئاً ذا قيمة .. وكانت النتيجة أنها إذا أرادت أن تقضي معي أطول وقت ممكن .. فإنها تكتب إليّ في الصباح قائلة إنها تريد تناول الغداء معي .. ليس في منزلها .. وإنما

في هذا المطعم أو ذاك .. في باريس أو في الضواحي .. فأذهب إليها .. وأصطحبها إلى المطعم الذي ذكرته .. ثم نقصد معاً إلى المسرح .. ثم نتناول معاً طعام العشاء .. ولا ينقضي المساء حتى اكون قد أنفقت أربعة أو خمسة جنيهات .. أي بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ فرنك شهرياً .. وهكذا أصبح إيرادي السنوي لا يكاد يكفي نفقات ثلاثة شهور .. وصار يتعيّن عليّ .. إمّا أن أستدين وأغرق في الديون .. أو أهجر مرغريت .

وطبيعي أنني كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء وكل شيء إلاّ أن أهجرها .

ومعذرة إذا كنت أطيل في هذه التفاصيل .. فإنها ـ كما سترى ـ نواة الحوادث التالية .. ثم إني أسرد عليك قصة حقيقية جديرة بأن تحتفظ بكل بساطتها الطبيعية .

اقتنعت عندئذ أنه ليس فى العالم قوة فى قدرتها إنسائى حبيبتى ، فنظرت أطلب وسيلة لسد النفقة التى تطلبها . ونال منى هذا الحب مناله ، فارتأيت البرهات التى كنت أقضيها بعيداً عن مرجريت سنوات ، وأحسست بحاجة ماسة الى دعق هذه البرهات أو حرقها باصطلاء لهو كائناً ما كان و بضرورة أن أحياها حياة سريعة لا بل أحياها فى لمحة فلا أدرك أنى حييتها

فبدأت أقترض خمسة آلاف أو ستة ضمانهـا رأس مالى الصغير ، وأخذت أقامر وما أيسر هذا السبيل فى البلد ، فمنذ أغلقوا دور الميسر عمدت النـاس الى المقامرة فى كل مكان . وكان المرء فيما مضى يدخل « فراسكاتى » يؤمل الثروة فيلعب ، فاذا خسر سلّى نفسه بأنه كان يجوز أن يكسب . أما فى هذه الأيام فى منازل الميسر سوى القليل منها فيدخل المرء فان ربح مبلغاً ذا بال فقلما يثق بقبض ما ربح ، وما إدراك سبب هذا بعسير

إن الميسر لا يعالجه غير شبان ألحّت الحاجة عليهم وأعوزتهم كفاية من مال للنفقة على الحياة التى يحيون : فيلعبون وينتج بالطبيعة عن هذا أنهم اذا ربحوا قام الخاسرون بالنفقة على خيولهم وخليلاتهم وهذا على النفس ثقيل ، فتقع الديون على الديون ، ولا يرفضْ الاجتماع حول الرقعة الخضراء الا بشجار ينال الشرفَ والجسمَ دائماً بعض الأذى . واذا كان المرء هنا لك شريفاً ذا نخوة فلا يلبث أن يقضى على نفسه و يفلس افلاساً

وما قضى عليه الا شاب شريف ذو نخوة مثله لا ذنب له الاّ أنْ ليس له من الدخل مائتا الف جنيه فى العام

لا أحدثك عن الذين يسرقون فى اللعب فيلقون يوماً ما جزاءهم المنتظر من وراء ذلك ، فاماَّ الرحيل المخزى أو حكم القضاء وإن تباطأ عنهم طويلاً

قذفت بنفسى فى أحضان هذه الحياة السريعة النارية البركانية ، وقد كنت قديماً أفزع من هولها اذا ذكرها ذاكر ، فأصبحتْ تتمة لا بد منها لحبي مرجريت . ماذا كنتَ ترى لى غير هذا السبيل ؟

لم يزر النوم جفنى قط فى الليالى التى لم أقضها فى شارع أنتين عند مرجريت وقضيتها فى بيتى وحيداً . وكانت تسهدنى الغيرة وتحرق دمى كلما فكرت . وما روّح عنى الاّ الميسر يذهب بالحمّى من قلبى ويذهله عن الألم بما يبثه فيه من ولع بلهوه الحاضر الى الساعة التى ألقى فيها حبيبتى ، وعند هذه الساعة وحدها عرفت مقدار حبي

فعندها كنت أهمّ بالرحيل همّا غير راحم نفسى ان كنت خاسراً ، ولا غيرى ان كنت رابحاً ، نادباً حظ من خلّفت ورائى لأنهم لم يقوموا الى مثل سعادتى

كان الميسر لأكثر من حضر ضرورة من عوَز ، أمّا لى فكان شفاء وسلوى

والآن إذ برئت من مرجريت برئت من الميسر

لهذا كنت أهدأ ما أكون وقت اللعب ، فلم أخسر الاّ ما قدرت على دفعه ، ولم أربح الاّ بمقدار ما خسرت

وأسعدني الطالع المبخوت فلم أستدن بل كنت أنفق في أيام اللعب ثلاثة أضعاف ما كنت أنفقه في غيرها . ولم يكن من السهل عليّ أن أحجم عن متابعة حيـــاة يسّرت عليّ السبيل الى اجابة مرجريت الى أهوائها العديدة دون إحراج وضيق . أما هي فأحبتني حباً جماً وزاد حبها إياي على الأيام

ذكرتُ لك أنها بدأت تأذن لي في الوجود معها في دارها من منتصف الليل الى الساعة السادسة صباحاً ، ثم أخذتْ بعد ذلك تأذن لي من آن لآن في الدخول اليها في لوجها لدى التمثيل ، ثم كانت تأتي أحياناً تتغدى معي ، وأتى عليّ معها أخيراً صباح لم أخرج من دارها حتى الساعة الثامنة ، وأعقبه آخر لم أغادرها فيه حتى الظهيرة

وبينا كنت أنتظر منها رِدّة اخلاقية كانت تجرى في جسمها ردّة جثمانية . لقد كنت أخذت على عاتق شفاءها ، وأدركَتْ الفتاة المسكينة مني نيّتي فأعطتني عرفاناً لجميلي ، فكان من ذلك أني نجحت في الحيلولة بينها وبين الجم الكثير من عاداتها السابقة دون مجهود مني أو إزعاج لها ، وقال لي طبيبي وقد ذهبت به اليهـــا ان الراحة وحدها والهدوء يستطيعان أن يردّا عليها صحتها ، فعمدتُ فاستبدلت لها بأكلات الليل الأخيرة وسهراته الطويلة نظاماً صحياً ونوماً باكراً مطرداً ذا أوان لا يختلف . وانصاعت مرجريت مختارة لهذه الحياة الجديدة وتقبلت أنماطها لمّا أحست فيها سلامتها ، فشرعَتْ تقضي ما بعـد العشيات في دارها ، وان كان الجو صحواً جميلا تلفعت بكشمير وتنقّبت وخرجت معي نسير على الأقدام ونجرى جرْيَ طفلين في الشانزيليزيه ، في طرقاته المُعتمة ،

ثم نعود وقد نال منا التعب فنتناول خفيفاً من الطعام وقليلا من الموسيقى أو تقرأ يسيراً ثم ترقد فتنام . وهذا شيء لم تكن أتته ولا عرفته من قبل قط . وذهب عنهـــا السعال الذي كنت كلما سمعته أحسست أن رئتي تتمزقان

وفي ختام ستة أسابيع كانت أنهت قطع علاقتها بالكونت ، وضحت به في سبيلي ، ولم يبق سوى الدوق من أحد يضطرني الى ستر علاقتي بها . على أنه جاءها مراراً وأنا لديها ، فأسرّت الى الخدم بصرفه بحجة أنها لا تزال نائمة ، وأنها منعت كل أحد من إيقاظها حتى تستيقظ من تلقاء نفسها

وألفت مرجريت رؤيتي بالعادة ، وأحست أن رؤيتها إياي أصبحت ضرورة لازمة لها ، فكنت أغادر قاعة الميسر في الوقت الذي يغادرها فيه لاعب ماهر . وأجريت حسابي فوجدتني ربحت اثني عشر ألفاً من الفرنكات وهذا رأس مال كبير لا ينفد بالنفقة أبداً . وآن أوان عودتي الى أبي وأختي فلم أعد ، وأخذت ترد عليّ الرسائل منهما يرجوان مني الذهاب اليهما ، فأجبت عن كل رسالة بأحسن ما استطعت ، وكررت لهما كثيراً أني في خير وعافية ، وأن عندي كفاية من مال — شيئان خلتهما يعزّيان أبي قليلا عن تأخري عن موعد زيارتي السنوية اياه

وحدث في غضون ذلك ان استيقظت مرجريت صباح يوم ضاحٍ ، بارزة شمسه ، صافية سماؤه ، فوثبت عن سريرها وسألتني قضاء سحابة هذا النهار في الضواحي بين المزارع

فبعثنا في طلب برودنس ، وخرجنا نحن الثلاثة وقد عهدت مرجريت الى نانين بأن تقول للدوق اذا أتى أن جودة الجو أغرتها بقضاء اليوم كله

فى الحقول فخرجت اليها مع مدام دوفرنوا

وكان وجود مدام دوفرنوا معنا أمراً لا بد منـــه لطمأنة الدوق العجوز . وفوق هذا كانت مدام دوفرنوا احدى هؤلاء النساء اللاتى خُلقن خصيصات بهذه النُّزهات ، فابتهاجها الدائم لم يترك لجليسها برهة يناله السأم فيها ، ونَهَمُها المستمر جعلها جدّ ماهرة فى تجهيز البيض والكريز واللبن والأرانب المحمرة وكل لون من تلك الألوان التى اعتاد الناس بالتوارث تضمينها أكلات النزهة فى ضواحى باريس .

وبعد ان تهيأنا للرحيل لم نَدْرِ الى أين نذهب ، واستغلقت علينا السُّبُل ففتحت برودنس لنا كلَّ مغلق . فسألتنا

— أتريدان نزهة طيبة

— نعم

— اذن فهيا الى « بوجيڤال » الى « پوان دى جور » عند الأرملة أرنوله ، فاذهب يا أرمان واستأجر لنا عجلة خفيفة . وبعد ساعة ونصف وصلنا الى الأرملة أرنوله

لعلك تعرف هذا الخان فندقَ الاسبوع وحانةَ الأحد . ففى بستانه العالى علوَّ طابق فى دار يُشرف المرء على منظر للطبيعة بديع ، فتجد الى يسارك تُرعة «مارلى» تمتد فتتصل بالافق ، والى يمينك ينكشف المنظر عن تلال متتابعة لا حصر لها . والنهر فى هذه الناحية لا تيار فيه فيزعجه ، فتراه يفيض بمائه كما نشرت شريطاً مطوياً موشى بين سهل « جابيون » وجزيرة « كرواسى » ، يترنح الى الأبد على جانبيه شجرُ حوره العالى ، ويناغيه صفصافه بحفيفه المتواصل .

وترى على المدى منــازل صغيرة بيضاء ، ذات سقوف حمراء ، ومصانع ستر البعد طبيعتها التجارية الجافية فتم بها جمال الناحية . وباريس بعيدة تتراءى من خلال الضباب

لقد أصابت پرودنس فى اختيارها ، فانهذا الموقع كان موقعاً ريفياً على أحسن ما يهوى المتنزهون . والأكلة التى جهزتها كانت كأطيب ما يود الآكلون

لا أتمدح « بوجيڤال » هذا التمدح عرفاناً بجميل ما أسدته الىّ من الهناءة ، ولكن لانها بالرغم من اسمها الثقيل مكانٌ جميل كأبدع مايتخيل الخيال . لقــد ضربت فى الارض ، وجبت البلاد ، ورأيت من الأبنية أضخمها ، ومن المدن أفخمها ، ولكنى لم أقع على مثل جمال هذه القرية فى سفح ذلك التل ، وقدْ حنا عليها فرقدت فى كنفه جذلةً مطمئنة

وتكرمت علينا مدام أرنولد بنزهة فى قارب فأجابتهــا مرجريت وپرودنس اليها بفرح زائد

جرت العــادة بقرْن الحب بالخلاء ومزارع العراء ، وأحسِنْ بمــا جرت به العادة ، فانه ليس ثمةَ من إطار يتأطّر حول الفتاة الحبيبة أبهج من السماء الزرقاء ، ولا أشهى من الروائح العــاطرة الفيحاء ، والزهور الغضّة اليــانعة ، والنسائم الرخيّة ، والمكان المُوحَد ، تملؤه الأضواء بين الحقول أو فى الغابات . وعدا هذا فالمرء اذا أحب حباً صادقاً فَلَيجدنّ الغيرة فى قلبه قليلة أو كثيرة مهما بلغت ثقته بحبيبته أو طمأنه ماضيها على مستقبلها ، وان كنت أحببت مرة فأنت لا شك تدرك معنى الحاجة الدفّاعة التى لا تفتأ تدفع بالحب الى فصل حبيبته عن الدنيا بأسرها

لتكون له وحده ، فانه ليخال أنها تفقد جزءاً من طيبها الفائح ، وينحل شيء من وحدتها الكاملة بسيرها فى المدن بين الناس ، واحتكاكها بالأشياء . وقد يتجسد له هذا الخيال فيكاد يلمسه ولو كانت هى قليلة المبالاة عن تلق ، عديمة الاحتفاء بما حولها . ولقد أحسست أنا ذلك فوق ما أحس إنسان ، فان حبي لم يكن حباً عادياً . أجل انى أحببت كأقصى مايستطيع أن يحب مخلوق من المخلوقات . ولكن مَن التى أحببت ؟ انها مرجريت جوتيه . أعنى امرأة لا أخطو فى باريس خطوة حتى تأخذ عيناى رجلاً كان عشيقها بالأمس أوسيكون فى الغد . أما فى الريف بين قوم لم نرهم قط ، ولم يعرفونا من قبل ، فى حجر الطبيعة قد زانها الربيع ، مغفرةُ العام ورحمته ، بعيدَين عن جلبة المدينة وضوضائها ، فهنا لك يخفى على القوم حبّى وأحب لا خجلا ولا مرتابا ولا هيّاباً

هنا لك فى الريف فتشت حولى عن البنىّ القديمة فلم تظفر بها عينى ، وانما ظفرت الى جانبي فى مكانها بفتاة جديدة جميلة أحببتها وأحبتنى تدعى مرجريت . هنالك ذهبت عنى أشباح الماضى المريعة ، وتقشعت من المستقبل سحبه السوداء ، وأضاءت الشمس حبيبتى كما أضاءت أعف خطيبة ، وطُفنا سوياً فى تلك البقاع التى كانما أبدعها مبدعها ليستميد بها الرائى ذكرى أشعار « لامارتين » وألحان « أسكوده » . وكانت تلبس مرجريت حُلّة بيضاء ، فالت على ذراعى وأعادت علىّ فى المساء تحت نجوم السماء ما كانت قالته فى العشية القائمة . وجرت الدنيا مجراها من الحياة بعيدةً عنا ، وتولّت أشغالها دون أن تنال بالأذى صحيفتنا البيضاء الباسمة ، قد بيّضها الشباب وأبسمها الهوى

هذا هو الحلم الذى بعثته الىَّ شمس ذلك اليوم الدافئة من خلال أوراق الشجر ، وقد أرخيتُ العنان لفكرتى تجرى فتجنى من ثمرات الآمال ما تلقاه دون كُلفة وعناء . هذا هو الحلم الذى ارتأيته مطروحَ الجسد ممدودَه على حشيش الجزيرة التى أرسينا عندها ، مطلقا من كل قيد تقيدتُ به فى المدينة فيما تقيّد الناس

ونظرت من حيث كنت فأخذت عينى بيتاً صغيراً على الشاطئ بطابقين وسور مستدير ، وتراءت من خلال قضبان السور أمام بنيـة البيت ساحة من حشيش تجوَّدوا فى قصه ، فكان كخَمل القطيفة استواء . وكان وراء هذه البنية غابة بها مخابئ للعزلة مستورة هائلة ، وبها الطحلب سرعان ما ينمو فيذهب فى اليوم بما انطبع فيه بالأمس من آثار أقدام

وظلّلت السلَّم الخارج للبيت الخالى أشجار بأزهار تسلقت الحوائط واستطالت حتى طوّقت الطابق الأول كأنما أخذته فى أحضانها

طال ترداد بصرى على هذه الدار حتى وقع عندى أنها دارى ، واتسق هذا الخال مع أحلامى اتساقاً ، فرأيتنى فيهـا مع مرجريت تقضى النهار فى الغابة على أكمتها ، ونقضى العشية جالسين على الحشيش فى ساحتها ، وسألت نفسى أمخلوقٍ أرضىٌّ كان أو هو كائن من السعادة مثل مالنا

وتابعت مرجريتُ ببصرها بصرى ولعل فكرتها كانت تابعت فكرتى فقالت لى :

— ما أجمل الدار ! فصاحت برودنس

— أين ؟

— هنالك

وأشارت مرجريت بأصبعها صَوْبَ الدار. فقالت پرودنس

— أجل ما أبدعها! هل أعجبتك؟

— كثيراً

— اذن فاسألى الدوق استئجارها فانه يستأجرها لك يقيناً، وان شئتِ توليتُ أنا سؤاله

فنظرتْ اليَّ مرجريت كأنها تسألني رأيي في هذا المقترَح الجديد

لَسَرعانَ ما أيقظني هذا المقترَح من حلمي اللذيذ وأسقطني بلا رحمة من علياء الخيال الى حضيض الحقيقة، فظللت حيناً مشدوخ الرأس دائرَه من أثر السقطة. فتمتمت اليها متلعثماً وأنا لا ادرى ما اقول: انه رأى سديد. فأوّلت مرجريت كلامى على ما تهوى وقالت لى وقد أخذت يدى بين يديها: إذن فهلُمَّ نرى أيؤجروننا الدار ام لا يفعلون

فوجدنا الدار خالية وأجرها ألفا فرنك. فقالت لى مرجريت

— أيحلو لك المُقام هنا؟

— أوَ أيقنت قبل هذا السؤال أنه سيكون لى مُقام هنا

— إذن فا دعاني الى قبر نفسى هنا اذا كنت لا ازمع أن تكون معى؟

— إذن فدعيني أستأجر الدار أنا نفسى

— أجُنِنْت؟ أى فائدة من استئجارك إياها؟ وعدا هذا ألا تدرى أنك بذلك تعرضني لخطر كبير وانه ليس لى أن أظهر بغير رجلى الوحيد؛ فاترك لى الأمور أيها الطفل ولا تقل شيئاً. فقالت پرودنس: أما وقد اتفقتما فسآتى لدى فراغى أقضى لديكما في هذه الدار ما تيسر من أيام

وغادرنا الدار واتخذنا سبيلنا الى باريس نتحادث في عزمنا الجديد،

وظلت مرجريت بين ذراعي في العجلة طويلا ، حتى إذا حان نزولنا نزلنا منها وقد نشط الحب بيننا فأخمد بعض اخماد نار الغيرة التي كانت تأججت في صدري

الفصل السابع عشر

وفي صباح الغد صرفتني مرجريت من بيتها باكراً ، واعتذرت بأن الدوق سيأتيها ضحى ، ووعدتني أن ستكتب الي بعد انصرافه بالموعد الذي اعتادت أن تضربه لي كل مساء

وفي النهار جاءتني منها هذه الكلمة :

« أنا ذاهبة مع الدوق الى بوجيفال ، فكن عند پرودنس في الثامنة مساء »

وفي الساعة المضروبة عادت مرجريت الى مدام دوفرنوا فابتدرتني وهي داخلة تقول

— بشرى فقد تمّ كل شيء . فسألتها پرودنس .

— هل استؤجرت الدار ؟

— نعم ، ولقد أجاب سريعاً

لم أكن أعرف الدوق ولكني استشعرت خجلاً شديداً من خداعي اياه هكذا

ثم قالت مرجريت

— ولكن ليس هذا كل شىء

— فماذا بعد هذا ؟

— انى قلقة لمسكن أرمان . فسألتها برودنس وهى تضحك

— فى نفس الدار ؟

— لا بل فى « بوان دى جور » حيث تناولت الغذاء أنا والدوق ، فبينما كان هو يستطلع الدار سألتُ مدام أرنولد — أليس اسمها مدام أرنولد ؟ — سألتها جناحاً طيبة فى منزل فوجدت لديها طلبتنا المنشودة — غرفةَ استقبال وبهوا ومخدعاً للنوم ، وهذا كل ما يلزم على ما أرى ، وكراها فى الشهر ستون فرنكاً ، وأثاثها متّسق بديع يفرح الحزين

فوثبتُ الى جيد مرجريت . فاستطردت تقول :

— ستجد كل شىء جميلا . لكَ مفتاح الباب الصغير وقد وعدت الدوقَ مفتاح باب السور ولن يأخذه فانه لن يأتى اذا هو أتى إلاَّ فى النهار . وأقول لك فيما بيننا أنه اغتبط كثيراً بهذه النزعة الطارئة التى ستبعدنى عن باريس حيناً فتُسكت عنه ألسنة أهله قليلاً . ومع هذا فقد سألنى كيف أتانى أنا التى أُغرمتُ بباريس كل الاغرام أن أفوتها لأندفن فى ذلك الريف . فأجبته إن المرض يتحرّك علىّ وأوجاعه تتتابع فللراحة ما قصدت اليه من العزلة . فصدّقنى ولكنْ تصديقَ الشكاك المرتاب . إن الوساوس لا تفارق هذا الشيخ المسكين ، فعلينا بالحذر الزائد يا عزيزى أرمان فانه سيتجسّس هنالك . وليس كل ما أرجوه منه أن يكرى لى هذا المنزل فحسب ، بل يلزم أن يسدد لى ديونى فانى وا أسفاه علىّ ديون ليست بالقليلة . فهل أنت راض عما كان وما يكون ؟

فأجبتها أنْ نعم وأنا أجاهد أن أخرس كل الوساوس التى اعتادت أن تنطق ألسنتها فى ضميرى من آن لآن كلمـا أنعمت النظر فى ذلك الثوب الجديد من الحياة التى أنا قادم على ارتدائه . فقالت

— لم نغادر ركناً من أركان الدار حتى فحصناه ، وسنكون هناك على أتم راحة ، ولقد اهتم الدوق بكل صغيرة وكبيرة .

واستتبعت المجنونة تقول وهى تقبلنى :

— أى عزيزى ، كُتِب الشقاء ولكنْ لا عليك ، فما أسعدك والقائم فى تجهيز فراشك صاحب آلاف مؤلفة . فسألتها پرودنس

— ومتى تنتقلين هناك؟

— فى أقرب وقت

— وهل تنتقلين بمركبتك وخيلك؟

— سأنقل كل شئ وتحتفظين أنت بالدار مدة غيبتى

وبعد ثمانية أيام تسلّمت مرجريت دارها الجديدة فى الريف ، وسكنتُ أنا فى « پوان دى جور »

وعندئذ بدأت حياة أعجز عن وصفها . ففى الأيام الأولى من المُقام فى « بوچيڤال » لم تقوَ مرجريت على النزع عن عاداتها المألوفة ، وكان المنزل فى موسم دائم وعيد منصوب لا ينفض ، فكانت لا تفتأ الأصدقاء تتوارد لزيارة مرجريت ، فلم يمض من الشهر الأول يوم إلا كنت تجد فيه على المائدة أشخاصاً ثمانية أوعشرة ، وكانت پرودنس تأتى بكل من عرفت وتحتفى بهم فى الدار احتفاء صاحبها

وكانت كل هذه النفقة بالطبع من مال الدوق ، ومع هذا كانت

تسألني پرودنس من آن لآن باسم مرجريت ألفاً فألفاً من الفرنكات .
وكنتُ كما تعلم ربحت في الميسر مالا فأسرعت الى اجابة پرودنس الى
ما سألتهـــا مرجريت مني . وخشيت أن تطلب فوق ما بقي عندي
فذهبت الى باريس واقترضت مبلغاً كالذي كنت اقترضته قديماً وسددته
على التمام .

فوجدتني من جديد أملك اثني عشر ألفاً من الفرنكات فضلا عن
دخلي السنوي

وحدث أن أخذ يتناقص البشر والسرور اللذان استقبلتْ بهما
مرجريت أضيافها لمّا أحست بالشفقة الباهظة التي يتطلبهـا هذا البشر
والسرور ، ولاسيما لما أحست بالحاجة تدفعها الى أن تطلب اليّ مالا . أما
الدوق فقد استأجر لها الدار كي تجد الراحة فيها واختفى عنها خشـية أن
يلتقي عندها برُفقة عديدة من رفاق الطرب ، وتحاشياً من أن يراه لديها أحد
من أمثال هؤلاء . وبالغ في اجتناب دارها على أثر حادث أليم . ذلك أنه
أتى مرجريت يوماً على وعد أن يتناول الغداء معها وحدها ، فبكّر في المجيء
فقدم وفي البيت رُفقة من خمسة عشر كانت لا تزال على المائدة ، ففتح باب
غرفة الطعام وهو لا يتوقع أمراً ، فانطلقت ضحكة عامة قصفت بها المكان
للقائه ، فاضطرّ الشيخ الى رجوع القهقرى سريعاً أمام هذا السرور البذيء
والبهجة النابية ممن صادف من فتيات .

فقامت مرجريت عن المائدة ولحقت به في الحجرة المجاورة ، وبذلت
جَهدها تأسو جرحه ، وهيهات أن تلاءم عزته الداميـــة ، فقسا للفتاة
المسكينة في القول . قال لها ان صبره عيل ومات نفسه النفقةَ على حماقات

امرأة تعجز أن تبذل له ولو من احترام عوضاً عما يبذل لهـا من مال .
وخرج عنها جد غاضب

ومن هذا اليوم لم نعد نسمع عن الدوق شيئاً. وصرفت مرجريت أضيافها ، وغيّرت من عاداتها . وعبثاً فعلت كل ذلك ، فالدوق لم يبعث لها بخبرمنه . وكنت أنا الفائز في هذا ، فان خليلتي أصبحت لي وحدي، وبدأ حلمي يتأول أخيراً . ثم أخذت مرجريت تحس أن لا حياة لها بغيري ، فجهرت بعلاقتها بي غير مبالية بمـا يتبع ذلك ، فلزمتُ دارها ولم أفارقها ساعة واحدة ، ودعاني الخدم سيدهم دعوتهم صاحبَ الدار

وأخذت برودنس تحاضر مرجريت محاضرات في حيـاتها الجديدة لتفرّق بيننـا وتؤثر فيها بكل ما أوتيت من ذلاقة لسان وقوة بيان ، ولـكن مرجريت أجابتها بأنها تحبني وأنها لن تحيى بغيري ، وأنها تهيأت لتلقي ما يكون من وراء سعادتها بقربي من أعقاب الأمور كائنة ما كانت ، وزادت لها ان من لا يرضى بما ترضى ففي وسعه الرحيل عنها

هذا ما سمعته أذني من وراء الباب يوماً جاءت فيه برودنس تقول لمرجريت ان لديها أمراً خطيراً تسره اليها

وبعد ردح من الزمن عادت برودنس

وكنتُ في أقصى البستان لما دخلتْ فلم ترني . وارتابت نفسي من هيئة مرجريت عند لقائها ، وحسبت أن حديثاً جديداً كالذي فات لا بد واقع فأردت تسمّعه

فاختلنا في مخدع وبدأتُ أتسمّع

فقالت لها مرجريت :

— خيراً

— خيراً ، لقد قابلت الدوق

— فاذا قال ؟

— قال انه يغفر لك الفعلة الأولى بارتياح كبير ، ولكنهُ سمع أنك تجهرين بالعيش مع سيد يدعى أرمان دوفال ، فهذا لا يغفره لك أبداً . وقال لى أدّى اليها أن تقطع صلتها بهذا الشاب فأعود كسابق عهدى الى اجابتها الى كل ما تطلب منى ، وإلاّ تفعل فلا تسألنى شيئاً مهما هان

— وبم أجبت ؟

— أجبته بأنى سأؤدى ما اعتزمه اليك ، ووعدته أن أسعى فى اقناعك بالصواب . فأنعمى النظر يا بنيتى العزيزة فى مركزك الذى تفقدين ولا يستطيع أن يخافه عليك أرمان . انه يحبك من قلبه الصميم ، ولكنه ليس من الغنى بحيث يسد مطالبك كلها ، ولا بد من يوم يرحل عنك فيه ، ويكون قد فات الوقت فلا تستطيعين للدوق طلباً . أتودين أن أخاطب أرمان فى هذا الشأن

فلم تجب مرجريت ، فخلت أنها تفكر ، ودق قلبى دقاً سريعاً فى انتظار رد الجواب . فأجابت : لا ، لن أقطع صلتى بأرمان ولن أتستر للعيش معه . ربما كان ما آتى ضرباً من الجنون ولكنى أحبه فاذا بعد ذلك ؟ انه اعتاد الآن أن يحيي رغم كل شيء على الحال التى أرضاها ، وانه يألم غاية الألم اذا اضطررت الى إبعاده عنى فى اليوم ساعة واحدة ، وعدا ذلك فليس لى من عمرى متسع لاحتمال شقاء والاجابة الى رغائب شيخ تبعث الشيخوخةَ فىّ مجرّد رؤيتهُ . فليحتفظ بماله فانى عنه فى غناء

— ولكن ما مصيرك بعده ؟

— لا أدرى ولا أريد أن أدرى

وأرادت پرودنس لاشك أن تجيب بشيء ، ولكني لم أمهلها فدخلت بغتة وجريت فارتميت على أقدام مرجريت ، وبللت يديها بما أسبلتُ من دموع ، أسبلها فرحي باطلاعي على حبها اياى هذا الحب كله

— لك حياتي يا مرجريت . لا حاجة لك الى هذا الرجل بعد اليوم . ألستُ الى جانبك ؟ لا فارقتك أبداً ا وهيأتْ لى الأقدار أن أردَّ عليك هذه السعادة التي تخلعين اليوم عليَّ ! لا قيد بعد الساعة يا مرجريت ، إنى أحبك وانك تحبيني وكفى بالحب شاغلا عما سواه . لا يهمنا بعد الحب من الدنيا شيء فتمتمتْ اليَّ

— أي نعم انى أحبك وأطاحت ذراعيها حول رأسي وعقبْت :

— نعم أحبك فوق ما ظننتُ أنى أهل له . سنحيا سعيدين ؛ سنعيش فى عزلة عن الناس وادعَين ، فوداعاً أيتها الحياة المضطربة ، وداعاً يا حياة الرذيلة التي يحمرّ لها الآن وجهي . وأنت يا أرمان ألا تزال ذاكراً لى هذه الحيـاة ؟ أتعيد على سمعي فى المستقبل آلام ماض رهيب ؟ سننسى كل شيء ، أليس كذلك ؟

فحبس الدمع صوتي فلم أُحر جواباً غير ضمّى مرجريت الى قلبي ، فاتجهتْ الى پرودنس تقول بصوت متهدّج

— هيا فاحملى هذا المشهد الى الدوق وقولى له ليس لنا اليه حاجة بعد الساعة

فمن ذلك اليوم انحلت عقدةٌ بينهـا وبين الدوق ، ولم تعُد

مرجريت تلك الفتاة التى كنت عرفتها ، وحاذرت أن تأتى شيئاً يكون من شأنه تذكيرى حياتها الماضية التى التقيتُ بها على قارعتها ، ولم يَحفظ زوج من زوجته ولا أخ من أخته بتلك العنـاية التى كانت لى من مرجريت . لقد كانت هذه الطبيعة المريضة متهيأة لقبول كل الآثار الطيبة ، واستثمار كل العواطف النبيلة ، ففضت ما بينها وبين أصدقائها كما فضت ما بينها وبين عاداتها ، ونكبت عن لغة كانت لها بالأمس كما نكبت عن نفقة باهظة أثقلت عاتقها أياماً سلفت . واشتريت قارباً صغيراً كنا نخرج للنزهة فيه وهى الى جانبى فى حلة بيضاء وقبعة كبيرة من القش ومعطفاً بسيطاً من حرير تحمله على ذراعها لتتقى به رطوبة الماء ، فلو رأيتها ما دار فى خلدك أن هذه المرأة هى مرجريت جوتيه التى امتلأت الدنيا من أشهر أربعة بأحاديث بذخها وأخبار فجورها

وأسفاه ؟ لسرعانَ ما هوينـا الى السعادة هُوِيا ، وسُرعانَ ما انقضضنا عليها نختطف منها اختطافاً ، كأن محدثاً من وراء الغيب حدثنا أن المُقام فيها لن يطول ، وأن المُتع الحاضرة لا تلبث أن تزول

ومرَّ شهران ولم نعد الى باريس ، ولم يطرق بابنا أحد الا بِرودنس وجوليت دوبرا التى حدثتك عنها ، والتى دفعَتْ اليها مرجريت فيما بعد الختامَ الأليم للقصة التى أقصها عليك

وكنت أقضى سحابة أيام كاملة عنـد قدمَىْ حبيبتى ، وكنا نفتح النوافذ المطلة على البستان فنرعى الصيف يدبُّ فرِحاً فى الزهرات المُغْمَضة فيوقظها ، وكنا نجلس فى ظلال الاشجار الوريفة نستنشق صدراً الى صدر تلك الحياة الحقة التى ما فقهتها ولا فهمتْها مرجريت الا عندئذ

وكانت لهذه الفتاة دهشات الاطفال تدهش لقليل الأمر، فكانت تجرى كابنة عشر وراء فرفور. وأصبحت هذه البغى، التى كانت تنفق على طاقات زهورها ما تنفقه أسرة بأسرها لتعيش فى هناءة ورخاء، تجلس على الحشيش الأخضر تفحص زهرة من الزهرات سميأتها

وفى هذا الزمن كانت كثيراً ماتطالع « مانون لسكو » وكثيراً ما دهشت لتعليقات كنت علقتها على الكتاب وأنا أقرؤه، وذكرت لى ان المرأة اذا أحبت فلن تفعل إلا مافعلت « مانون »

وكتب لها الدوق مرتين أو ثلاثا فكانت تعرف خطه فتدفع الىّ بكتبه أقرؤها دون أن تفضها. وكانت لهجة كتبه أحيانا تبعث الدمع فى عينى

اعتقد الشيخ التعس انه إن أغلق خزانته دون مرجريت فسترجع اليه راغمة، ولكنه استبان بطلان هذه السياسة، ولم يستطع صبراً، فكتب اليها يسألها أن يعود اليها وأن تملى عليه ما تشاء من شروط

قرأت هذه الكتب المؤثرة المتوالية ولم أخبر مرجريت بما احتوته، ولا نصحت لها بالسماح له فى رؤيتها، ولو أن دافعاً من رحمة بالبائس المتوجع كاد يحملنى على ذلك، ولكنى خشيت أن تفهم من هذه النصيحة أنى أصبحت أرغب فى زيارات الدوق ليحمل نفقة البيت عنى، وخشيت فوق كل شىء أن يدور فى خلدها أنه فى الامكان أن أتخلى عن احتمال أعباء الحياة التى ساقها حبها إياى اليها مهما كانت أعقابها

فلما لم يأت الدوق جواب عن كتبه قطع الكتابة. وبقيت مع مرجريت نتساقى كؤوس العيش سائغة حلوة ولم نشغل بالنا بالمستقبل قط

الفصل الثامن عشر

ليس من السهل ذكر حياتنا الجديدة ذكراً مفصلا ، فانها كانت سلسلة من أعمال صبيانية تافهة تلذلنا وحدنا دون أحد . إنك تعلم ماحبُّ امرأة ، وما قِصَرُ الأيام معها ، وكيف يُسْلِم الانسان نفسه باطلا خمولاً الى اليوم ليحمله الى الغد ، ولست تجهل نسيانه الاشياء كلها اذا اشتد به حبٌّ ثابت متبادَل . انه لا يرى عندئذ من أشياء الدنيا وأجرامها سوى حبيبته ، وكل مخلوق عداها يكون عنده مخلوقاً لافائدة منه بين الكائنات ، وإن الأسف ليزيد به أن قد اقتطع من قلبه قطعاً لنساء سبقْنَ ، ولا يرى جائزاً في القدَر أن يسوق اليه غده حبيبة سوى حبيبة يومه يضم يدها بين يديه ، والمخ يَستجم فلا يقوى على عمل شيء ولا ذكر شيء ، ولا يستطيع أمرٌ مهما جل ان يشرد به عن دائرة واحدة حبسه الحب عليها ، ولا يزال العاشق يطّلع من عشيقته على جمال جديد بطلوع كل يوم جديد ، ويستكشف فيها منابع خبيئة للسرور لا تفيض ، فلا يصبح الوجود الا رغبات متواصلات إن انقضت رغبة أعقبتها رغبة ، ولا تصير الروح إلا قوّامة على نار الحب المقدسة إن خبا منها جانب أو قدت جانباً

وكنا كثيراً ما نذهب اذا جَنَّ الليل الى الغابة الصغيرة التي كانت تعلو البيتَ اشجارها ، فنجلس نستمع لألحان الليل المطربة ، ونرصد الساعة القريبة التي ستُلقي بعضها في أحضان بعض حتى مطلع الشمس . وكنا أحياناً نرقد النهار كله ولا ندع لنوره بصيصاً يدخل الينا في غرفتنا . وكنا نُحكِم إسدال الستائر فنقطع بذلك صلتنا بالدنيا حيناً ، ولا نسمح لأحد أن

يفتح علينا الباب إلا نادراً ، وذلك لتأتى الينا بالطعام . وكنا نتناوله راقدين نضحك أثناءه ونلعب ونمزح كالمجانين المهوسين . وكنا نتبع ذلك غفوة لانجعلها تستمر طويلا ، فقد كنا غارقين من حبنا فى لجة متلاطمة الامواج عميقة ، تشبثنا عناداً بالبقاء فى مائها ، ولم نصعد الى سطحه الا ريثما نستنشق الهواء

ومع هذا كانت تدهشنى من مرجريت سويعات يلوح فيها على محياها سمات حزن دخيل يبعث فى عينها قطرات من دموع ، فسألتها مبعث همها فأجابتنى

— ليس حبنا عاديا ياعزيزى ارمان . انك تحبنى حتى كأنى لم أكن لأحد من قبلك ؛ فواخشيتى من يوم تستيقظ فيه من غفلتك عن حبك إياى ، وتتخذ لى ماضىّ جرما ؛ فلا يكون لى الا أن أقذف بنفسى الى الحياة الأولى التى لقيتنى فيها . تأمل يا ارمان ، انى الآن تذوقت طعم حياة جديدة ، وانى لا بد قاضية قبل أن أواصل حياتى القديمة ، فطمئنى وقل لى انك لن تفوتنى أبداً

— قسما لافتك أبداً

وعندها أنعمت مرجريت نظرها فى عينى تقرأ فيها آية اخلاصى فى قسمى ، ثم سقطت على ذراعى وسترت وجهها فى صدرى وقالت

— انك لاتعلم قدر حبى اياك

وذات مساء كنا مرتفقين على النافذة نرعى القمر يخرج ويبدأ من فراشه بين السحب ، ونتسمع هزيز الرياح وحفيف الشجر ، فأمسك كل منا يد صاحبه ولزمنا السكوت ساعة . ثم قالت مرجريت

— هذا الشتاء أنى فهل تود الرحيل ؟

— والى أين ؟

— الى ايطاليا

— أسئمت المقام اذن ؟

— أخشى الشتاء وأخشى فوق ذلك العودة الى باريس

— ولم ذلك ؟

— لأمور عدة

وعقبت فجأة دون أن تذكر لى سبب خشيتها

— أتود الرحيل ؟ إنى أبيع كل مالى وتذهب معاً وتقيم هناك فلا يكون على أثر لما كان ، ولا يدرى أحد من أكون ؛ فهل تود ؟

— نرحل يامرجريت إن كان هذا يزيد فى سرورك . نرحل لغير اقامة ونعود . ولكن ما الذى يدعوك الى بيع كل أشيائك وهى لك مسلاة وغبطة لدى عودتك اليها . لستُ كبير الغنى حتى أتقبل منك تضحية كهذه ، ولكن لى من الغنى ما يفى بنفقة سياحتنا خمسة أشهر أو ستة ، فهل يروقك هذا ولو بعض الشىء ؟

فقالت وهى تغادر النافذة المضيئة بالقمر لتجلس على الأريكة فى الظلمة داخل الغرفة

— لا ، لا يروقنى ذلك أبداً . ليس من الحسنى أن تنفق هناك مالا . انى كلفتك الى الآن كثيراً

— أتبكتيننى يامرجريت ؟ فما هذا من كرم الخلال فى شىء

فقالت ومدت الى يدها تصافحنى

— عفوا ياصديق فهـذا الجو العاصف يؤثر فى أعصابى فلا أرانى أقول ما أريد . ثم قبلتنى وأسلمت نفسها لهواجس طويلة

وحدث لى معها مثل هذا المشهد مشاهد جهلت بواعثها جميعاً ، وجهلت كذلك باعث قلق للمستقبل آنسته من مرجريت . لم يداخلنى لاشك الريب فى حبى ، وكيف وقد كنت أراه يزيد على الايام ، ولـكنى ما فتئت ألقاها حزينةً ، فاستفسرها علةَ حزنها فلا تعزوه لغير انحراف مزاجها

وخشيت أن يكون أضجرها نمط واحد من الحياة ، ووتيرة مطّردة لا تتنوع من العيش ، فاقترحتُ عليها العودة الى باريس فرفضت مرارا ، وأكّدت لى انها لن تجد هنالك من الغبطة عشر معشار ما تجده فى الريف

ولم تأت برودنس غير مرات قليلة ، إلا أنها بعثت بكتب كثيرة لم أسأل قط مرجريت قراءة أحدها ، ولو ان الـكتاب كان يرد فيشغل بالها شغلا كبيرا . ولـكنى حزرت

ودخلت يوماً على مرجريت غرفتها فوجدتها تكتب فسألتها : لمن تكتبين ؟ فقالت : لبرودنس . أتود أن أقرأ لكَ ما أكتب ؟

ولـكنى كنت أهاب كل شىء يريها الريبة عندى فأجبتها أن لا حاجة بى الى عرفان ما تكتب ، وفوق هذا كنت موقناً أن هذا الكتاب لن يفشى الىّ سر أحزانها الحقة

وأسفر الغد عن سماء صافية وجو جميل ، فاقترحتْ علىّ نزهة فى القارب وزيارة لجزيرة « كرواسى » . وفى هذا اليوم وجدت الفرح يملؤها ، وعدنا من نزهتنا فى الخامسة ، وابتدرتنا نانين ونحن داخلون تقول

— جاءت مدام دوفرنوا فسألتها مرجريت

— فهل عادت أدراجها ؟

— نعم عادت ولكن فى مركبة سيدتى ،وقد سألتها ما ذلك فقالت إنه أمر مُبيّت

فصاحت مرجريت بصوت ملؤه الحياة : هيئوا الطعام

وبعد يومين جاءها من پرودنس كتاب ومضى خمسة عشر يوماً ولم يعاود مرجريت حزنُها الغريب ، وأخذت أثنائها تسألنى الصفح عن اكتئابها فى حين أنه كان قد زال عنها

والمركبة لم تعد . فسألتها يوماً : لم لم ترجع پرودنس اليك مركبتك ؟

فقالت ان أحد الحصانين مريض والمركبة للأصلاح ، ولقد آثرت أن يطبَّب الحصان وتُصلح المركبة ونحن هنا لاحاجة بنا اليهما على أن أرجىء ذلك حتى نعود الى باريس

وجاءت پرودنس تزورنا بعد أيام ، وأمّنت لى على ماقالت مرجريت وخرجا وحدهما الى الجنينة فأتيت أتصل بهما فغيرا مجرى الحديث . وفى المساء حانت عودة پرودنس الى باريس فشكت شدة البرد واستعارت من مرجريت كشميرها

ومضى على هذا شهر نما فيه سرور مرجريت نماء كبيرا ، واشتد اجتذابها للقلوب فوق ما كان فى أى وقت

والمركبة لم تعد . وكذلك الكشمير لم يعد

فاختبلتُ لذلك كرهاً ، وعرفتُ فى أى الأدراج تضع مرجريت كتبها التى تأتيها من پرودنس،فأفلت من لحظة كانت فيها مرجريت

فى أقصى البستان فجريت الى الدرج فحاولت فتحه عبثاً لانها كانت أغلقته بالمفتاح غلقتين

وفتشت سريعاً عن جواهرها وماساتها حيث كانت تضعها ، فهذه هان فتحها ، ولكني وجدت أحقاق الحلى ذهبت وذهب بالطبع منها حُليُّها

فكبس على قلبي كابس من خوف

وكدت أسأل مرجريت عن سبب إختفاء حليها ، ولكني أيقنت أنها لن تبوح ، فقلت لها : ياعزيزتى مرجريت ، جئت أستأذنك فى الذهاب الى باريس فانهم فى دارى لايعلمون الى الآن مستقرى ولا بد قد ورد لى عندهم كتب من أبى ولا بد أنه قلقٌ لسكوتى فلا مندوحة من اجابته . فقالت لى : اذهب ياصديقى وعد وشيكاً

فذهبت وجريت من فورى الى پرودنس ، فابتدرتها بلا سلام ولا فاتحة كلام

— صارحينى أين حصانا مرجريت ؟

— بيعا

— والكشمير ؟

— بيع

— والماسات ؟

— رُهنت

— ومن باع ومن رهن ؟

— أنا

— ولِمَ لَمْ تخبرينى ؟

— لأن مرجريت حظَرَت عليّ إخبارك

— ولِمَ لَمْ تسألينى مالا ؟

— لأنها لم تشأ سؤالك

— وفيم أنفق الثمن ؟

— في سداد دينها

— أكان دينا كبيرا ؟

— وبقى عليها منه ثلاثون ألف فرنك أو زُهَاؤها . أى عزيزى ، قلت لك فلم تسمع لى قولا ، واليوم لقد رأيت بعينَىْ رأسك . ذهب النجاد الى الدوق ، وكان هذا يتولى النفقة على أثاث مرجريت ، فطرده الخدم . وكتب له الدوق فى الغد يقول انه أصبح لا صلة له بالآنسة جوتيه ، فجاءنى يطلب ماله فدفعت له بعضه وهو الألف الذى سألتك اياه . ثم أعلنه بعض من دخلت الرحمة الى قلوبهم كل مدخل عما كان من أمر مرجريت [١] ، وقال له إن مَدِينتَه لما هجرها الدوق ذهبت تعايش شابا لا مال له . وأعلن بمثل ذلك دائنوها الآخرون فطلبوا أموالهم وأوقعوا الحجز ، فأرادت مرجريت أن تبيع كل شيء ولكن كان الوقت فات . وعدا هذا فانى عارضتها فى البيع ، ووجب الدفع ، ووجب كذلك أن لا تسألك مالا ، فآثرت بيع حصانيها وكشاميرها ورهن حليها . أتريد أن تستيقن قولى برؤية عقود البيع واعتراف دار الرهونات دار «مونت دى بيتييه» ؟

وفتحت برودنس درجا فأرتنى الاوراق ، واندفعت فى القول اندفاع

---

(١) تهكم

المرأة تريد أن تقول إن رأيها كان الحق وان رأيي كان آفنا

— أي عزيزي ، الآن أيقنت أنه لا يكفيك أن تُحِب وتُحَب لتذهب عن المدينة وتعيش في الريف عيشة الخيال . لا ، لا ، ياعزيزي ، ان الى جانب عيشة الخيال عيشةَ الحقيقة والمال ، وان أطهر العواطف وأعف النزعات وأسمى الرغائب ليحبسها بالأرض ويشدها الى ظهر البسيطة خيوط رفيعة غيرُ ذات بال ، ولكنها من حديد لا يهون كسرها . ان مرجريت إنْ أحجمت عن خياناتك ألف مرة فذلك لانها طينة عجيبة ، وطبيعة جد غريبة . ولم أكن أخطأتُ في نصيحتها التي علمتَها ؛ لأنه آلمني مرأى هذه المسكينة إذ تتعرى من كل شيء لها . إنها أبت نصيحتي وقالت إنها تحبك ولن تخدعك بملء الدنيا ذهباً . لا أحسن من هذا ولا أجمل ، ولكنه شِعْر ، وما بالاشعار تُسَدّ مطالب الدائنين ، وها هي اليوم لايخلصها من ضيق دون الثلاثين ألفاً من الفرنكات أعيدها على سمعك مرة أخرى

— سأعطيها إياها

— أتقترضها ؟

— بالطبع نعم

— لله درك ، ستغاضب أباك وتستنفد مواردك ، وان وجدت اليوم ثلاثين الفاً فلن تجدها كل يوم . أطعني ياارمان فاني أعلم بالنساء منك . لاتأت السخافة التي أنت آتيها اليوم ونادمٌ عليها غداً . الحزم ! الحزم ! أنا لا أقول لك غادر مرجريت ، ولكن عش معها كما عشت في مطلع الصيف ، وافتح لها الطريق لتتنفس من ضيق ، فالدوق يعود لها

رويداً، والكونت دى ن . . . قال لى أمس انه يرجع اليها، ويؤدى عنها ديونها، ويُجرى عليها فى الشهر أربعة آلاف أو خمسة من الفرنكات، فان ريعه فى العام مائتا ألف جنيه . فهذا يسترجع مركزها الذى أضاعته . أما اذا اعتمدتْ عليك وحدك فانك لامحالة ستضطر يوما الى فراقها . لا تصبر حتى تُفلس فتقع الواقعة . انَّ الكونت دى ن . . أبله ولك من بلهه ميسرة الى حب مرجريت . انها ستبكى قليلا فى البدء، ولكنها ستنتهى الى اعتياد الحال، وتشكر لك ماصنعت يوماً ما . افرضْ أن مرجريت مُحصَنَة وخنت زوجها فيها، فما ضُرُّ هذا؟ لقد سبق ان قلت لك من زمن كلّ هذا ، ولكن قولى كان بالامس نصيحة لك الخيار فيها، فامّا أخذتها وإما اطرحتها، ولكنه اليوم ضرورة لا بد لك منها

ألا ما أقسى برودنس وما أقسى ماقالت من حق! وردّت الاوراق الى مكانها وأغلقت عليها ثم قالت

— ان الخطايا تتوقع دائماً أن تُحَبّ ولا تتوقع أبداً أن تُحِب، ولو انها توقعت هذا لاستبقت من مالها حتى بلوغ عامها الثلاثين ما يكفى للنفقة على بذخها وتقبُّل حبيبها بالمجّان . آه لوكنت عرفت أنا ذلك فى صباى . وأخيراً لا تقل لمرجريت شيئا، وارجع بها الى باريس . لقد قضيت معها وحدك أربعة أشهر أو ستة ، وهذا معقول ، فأغمض عينيك بعد ذلك وهذا كل ما نسألك اياه ، وفى خلال خمسة عشر يوماً ستعود هى الى الكونت ، وتقتصد فى هذا الشتاء ثم ترحل معك رحلة الصيف ، فهذا مايصنع الناس ياعزيزى

وظهر على برودنس انها اغتبطت بنصيحتها التي نبذتها نبذ النعل الخلق .

ولم يكن ذلك لأن حبي وعزتي يأبيان على ذلك فحسب ، بل وليقيني كذلك ان مرجريت ، وقد بلغت ما بلغت من حبي ، لا ترضى بهذه القسمة الشائنة فقلت لبرودنس

— كوني مزحا . كم دين مرجريت ؟

— قلت لك ثلاثون الفا

— ومتى يجب دفعها ؟

— قبل شهرين

— ستعطاها

فهزت برودنس كتفيها فقلت لها

— سأدفعها اليك ، ولكن أقسمي لي انك لن تبوحي لمرجريت بأني دفعتها

— اطمئن

— واذا أتت تسألك بيعا أو رهنا فأدي خبر ذلك الي

— لا تشغل بالك فلم يبق ما يباع أو يرهن

فانصرفت وذهبت أولا الى بيتي اسأل عن كتب من والدي فوجدت أربعة

الفصل التاسع عشر

سألني أبي في الكتب الثلاثة الأولى عن علة سكوتي وقلق من جرائه ، وفي الرابع قال إنّ قوماً أبلغوه أني سلكت في الحياة مسلكا جديداً وأعلنني بقرب قدومه

وكنت ولا أزال أحترم أبي احتراما كبيراً وأحبه حباً خالصاً . فكتبت له أعتذر بأن رحلة صغيرة أسكتتني عنه حيناً،ورجوته أن يعين لي يوم قدومه حتى أستطيع استقباله ، وأعطيت خادمي عنواني ببوجيفال وأمرته أن يحمل لي أول كتاب يأتيني من مدينة ك . . . ثم عدت سريعاً الى مرجريت

فكانت تنتظرني عند باب البستان

وكان القلق باديا في عينيها ، فوثبتْ الى عنق ولم تتمهل حتى سألتني

— أرأيت برودنس ؟

— لا

— لقد غبت في باريس

— لأني وجدت كتبا من والدي فكان لا بد من الاجابة عنها

وبعد برهة دخلت نانين تلهث من التعب ، فقامت اليها مرجريت وتسارا قليلا ، ولما خرجت نانين عادت مرجريت الى مكانها جانبي وأخذت يديّ وقالت

— لِمَ خدعتني ؟ لقد ذهبت الى برودنس

— من قال لك هذا ؟

— نائين

— ومن أين علمت ؟

— تبعتك

— أأمرتها باتباعي ؟

— نعم ، فقد عرفت ان الدافع الى ذهابك فجأة الى باريس وأنت لم تغادرني منذ أربعة أشهر لا بد أن يكون خطيراً ، وخشيت عليك سوءاً ، أو انك ذاهب الى امرأة غيري

— يالك من طفلة !

— لقد اطمأننت الآن وعرفت أين ذهبت ، ولكني لا أدري بعدُ ماذا قيل لك

فأريت مرجريت كتب والدي

— ما اردتُ علمَ هذا ، ولكني أردت علم مادعاك الى الذهاب الى برودنس

— ذهبت لأزورها

— انك تكذب ياصديق

— إذنْ فذهبت أسألها عن صحة الحصان وهل لا تزال بها حاجة الى كشميرك والى جواهرك

فاحمرت مرجريت وسكتت فاستتبعت أقول

— ولقد عرفتُ ماصنعت بها جميعاً

— وهل تأخذ عليّ فيما صنعتِ مأخذاً ؟

— آخذ عليك انه لم يخطر ببالك ان تسأليني ما احتجتِ اليه جميعاً

ـــان فى وصالى كوصالنا، اذا كان للمرأة بقية عزة، آثرت كل تضحية على ان تسأل حبيبها مالا، فتصبغ حبها صبغة من تجارة . انى موقنة انك تحبنى ، ولكن ليتك تعلم أى خيط واهن ينيط حب الفتيات أمثالى الى قلب الرجال من يدرى؟ لعلك فى يوم عسر أو يوم سأم لا ترى حبى الا خدعة جيدة تلفيقها لكسب مالك. ان برودنس ثرثارة . ما كانت حاجتى الى الأحصنة ؟ لقد قصدت فى بيعها ، وها أنا أعيش فى غنى عنها، واست انفق بعد عليها قليلا ولا كثيراً . انك ما احببتنى فلن أسأل غير حبك شيئا ، وانك تحبنى بلا أحصنة ولا كشامير ولا ماسات

قالت ما قالت بصوت أرسلته الطبيعة ارسالا، فأحسست الدمع يترقرق فى عينى عند استماعه . فأجبتها وأنا أهز يدها بين يدى

ـــ ولكنك ياطيبة القلب لاشك علمت انه لابد يأتى يوم أعلم فيه هذه التضحية ، وانى اذا علمتها فلن أرضاها

ـــ ولم هذا ؟

ـــ لانى ياعزيزتى الصغيرة لا اريد ان يكلفك حبك اياى فقدان جوهرة واحدة انا مثلك لا اريد انك فى ساعة عسر او ساعة سأم تفكرين فتذكرين انك لو كنت عشت مع رجل غيرى ماجاءت عليك تلك الساعة المشؤومة . أخشى ان تندمى ولو برهة واحدة على الزمن الذى أضعته هكذا فى العيش معى . لا ياعزيزتى ، بعد أيام قلائل سيرد اليك الحصانان والجواهر والكشامير فانها ضرورات لاغنى لك عنها ، كالهواء والماء . قد يظهر منى لك السخف فيما أقول ، ولكنى أوثر ان احبك على الزهو والفخامة ، على ان احبك على الضعة والبساطة

— اذن فانت لم تعد تحبنى

— يا للمجنونة !

— لو كنت تحبنى لتركتنى أحبك على ما أهوى ، ولكن على النقيض لاتزال ترى فىّ امرأة لا بد لها من البذخ ولا بد لك من اجرها . انك تخجل من قبول تقدمات منى إنما اقدمها لك آيات على صدق حبى، وانها على الرغم منك تخطر عليك الخاطرة بفراق يوما ، فتتشبث بحفظ كرامتك مما لعله يدور حولك من التهم عند هـذا الفراق . لك الحق يا صديق ، ولكنى كنتُ أملت منك خيراً من هذا

وأرادت مرجريت النهوض فأردتها على البقاء ، وقلت لها

— ما أردت غير هناءتك وان لا يكون هنالك شىء تأخذيننى به

— سنتفرق فصرختُ :

— ولِمَ يامرجريت ؟ ومن الذى يفرق بيننا ؟

— أنتَ يامن لا تريد أن أرى لك مكانك الحق الذى أنت فيه من الغنى ، ويذهب بك الغرور فتحاول أن تحفظ لى مكانى الذى أنا فيه منه . أنت يامن يريد أن يُبقى على نعيم تقلبتُ فيه دهراً فيـُبقى على مسافة الخُلف الادبى بيننا . أنت يا من لا يثق بصدق محبتى، ولا يفقه خلوص نيتى فى غرامى ، فيرفض أن يكتفى بشركتى اياه فى ريعه الذى به نستطيع أن نعيش به معاً فى راحة وهنـاء ، ويأبى الا افلاس نفسه لفكرة سخيفة استعبدته . أتظن انى اعدل بحبك مركبة وجواهر ؟ أتعتقد ان سعادتى فى هذه التنزهات التى تكبرها القلوب خالية وتُصغرها اذا ملأها الهوى ؟ تريد أن تدفع عنى ديونى وتستعجل قبض مالك

نسيئة ثم تنفق على بعد ذلك ؟ فكم يدوم هذا ؟ شهرين أو ثلاثة، ثم يكون الوقت فات لأخذك برأيي ، لانك عندئذ لايكون لك إلا أن تتقبل النفقة كلها مني ، وهـذا الذي لايتقبله رجل شريف النفس عفيفها . أما الآن فلك دخل في العـام ثمانيـة آلاف أو عشرة من الفرنكات ، وسأبيع فضل ماأملك وأحصل من هذا البيع وحده في العام دخلا قدره ألفا جنيه ، ثم نستأجر شقة صغيرة جميلة نعيش فيها سوياً ، في الصيف نرحل الى الريف، لاالى مثل هذا المنزل الفخم، ولـكن الى منزل يتسع لاثنين . أنت حر وأنا حرة ، وكلانا لايزال في ريعان الشباب ، فباسم الله يا ارمان لاتدفع بي الى حياة دفعني القدر اليها في زمان مضى

فلم أستطع جواباً ، وفاضت من عيني دموع بعثها الحب وعرفان الجميل ، وأسلمت نفسي بين ذراعي مرجريت . فقالت

— لقد كنت أردت أن أهيء كل شيء وأنت لاتدرى ، وأدفع ديني وأجهز شقتي الجـديدة فلا يأتي اكتوبر حتى نعود الى باريس وقد تم الامر . أما وقد أطلعتك برودنس على الامر كله ، فيلزمك ان ترضى الآن عما كنت سترضى عنـه فيما بعد . أفيبلغ حبك لي منك أن أسألك هذا ؟

لم يكن في طوق أن اعترض سبيل هذا الاخلاص ، فقبلت يد مرجريت متأثراً هائماً وقلت لها : أنا طوعك فافعلي ماتشائين . فأقررتها بذلك على رأيها ، وطار بها الفرح ، وخف بها المرح ، وأخذت ترقص وتغني وتلهج مبتهجة ببساطة منزلهـا الجديد ، وأخذت تستشير في أي حي يكون وعلى أية حالة ينظم

رأيتها مسرورة مُعجبَة بهذا المقترَح الجديد الذي خيلناه يقرّب ما بيننا فيذهب بمسافة الخُلف التي ظلّت تفصلنا زمنا

أما أنا فأردت ألا يقصرّ جميلي عن جميلها ، فأمضيت عزيمتي في لمحة على ما يكون فيما بعد من حياتي ، فأجريت حِسْبة مالي فصمّمت على أن أهَبَ لمرجريت الدخل الذي ورّثته لي أمي ، ولو أني خلته قليلا لا يَعدل ما ضحّت به في سبيلي . وعندئذ تبقى لي الخمسة الآلاف التي أجراها أبي على فيكون لي فيها غناء مهما جرّت الأيام من حوادث

ولم أعلم مرجريت بعزمي موقنا أنها لن تقبل عطيتي بحال . وكان مصدر الدخل الذي أصبتُ من أمي أنها ارتهنت من بعض الناس بيتاً وأقرضته بارتهانه ستين الفاً من الفرنكات . على أني لم أر البيت قط وكل ما عرفت من الأمر أني كنت أذهب كل أشهر ثلاثة الى مُسجل عقود أبي ، وكان صديقاً قديماً لأسرتي ، فأتسلّم منه خمسين وسبعمائة فرنك وأوقع بتسلّمها

وفي اليوم الذي ذهبت فيه أنا ومرجريت الى باريس نفتش لنا عن شقة جديدة ذهبت الى مسجل العقود هذا وسألته ما الرسوم التي أجريها لأخرُج بها عن ريع الرهينة لشخص غيري

فخال الرجل الطيب أني أفلست ، وسألني سبب هذا ، فقلت في نفسي انى لا بد بائح له اليوم أو غداً باسم التي أخرج لها عن مالي ، فآثرت أن أعجل له بذكر الحقيقة . فلم يعترضني في شيء . وهو مسجل العقود وصديق معاً ! وغاية ما ذكر أنْ وعدني بانجاز ما سألته خير انجاز

فسألته بالطبع ألا يبلغ أبي شيئاً من ذلك ، وعدت الى مرجريت عند

چوليت دوبرا حيث نزلت مؤثرة اياها على پرودنس واستماع محاضراتها الأخلاقية

وهببْنا نفتش عن مسكن . وكنا كلما وقفنا على مسكن حسبته مرجريت كبير الأجر وحسبته قليله . وانتهينا الى وفاق ، واحتجزنا داراً فى أهدأ أحياء باريس ، وهى دار صغيرة تتبع دارة كبيرة منفصلة عنها . وكان وراء هذه الدار الصغيرة جنينة لها جميلة تحوطها حائط تعلو بحيث تحجبنا عن جيراننا ولا تحجب عنا منظر ما وراءنا . كانت هذه الدار فوق ما تمنينا

وبينا ذهبت أنفض يدى من دارى القديمة ، ذهبت مرجريت الى رجل أشغال قالت لى إنه سبق فأجرى لاحدى صواحبها ما تسأله اجراءه لنفسها .

وأتت الىّ فى شارع پروڤنس مسرورة لأن الرجل وعدها سداد ديونها وأعطاها ورقة ببراءة ذمتها ، وأن يدفع لها فوق ذلك عشرين ألفاً من الفرنكات ، وكل هذا بديلا من أثاثها فحسب

فاذكرْ الى كم صعِد ثمن هذا الأثاث فى معرض البيع الذى رأيته أخيراً ، تعلمْ أن هذا الرجل الأمين كان نوى أن يكسب من صفقته فوق الثلاثين ألفاً

ورحلنا من باريس سوياً الى بوچيڤال فرحَين نتبادل الحديث فى مستقبلنا الذى لم يظهر لنا بفضل حبنا وقلة مبالاتنا الا ذهبياً براقاً

وبعد ثمانية أيام بينا كنا على المائدة للغداء دخلت نانين الينا تقول إن خادمى أتى يطلبنى ، فأمرتُ بادخاله فقال لى

— سيدى ، قدم والدك باريس ، وهو يسألك الذهاب اليه سريعاً في دارك حيث ينتظرك

كان هذا الخبر أهون شيء في الدنيا ، ولكنه لم يطرق أذني ولا أذن مرجريت حتى تلاحظنا بالنواظر

لقد أنبأنا متبئ من وراء الغيب أن شيئاً لا بد واقع

فأسرّت مرجريت عني ما أحست من توقع سوء شركتها في احساسه . فقلت وأنا آخذ يدها

— لا خشية من شيء فتمتمت الىّ تقول

— عُدْ أبكر ما تستطيع . انى أنتظرك عند النافذة

ثم قبلتني ، فبعثت يوسف يقول لوالدى إني حاضر

و بعد ساعتين وصلت الى شارع پروفنس

الفصل العشرون

كان أبى فى بذلة البيت جالساً فى البهو يكتب فتبينت سريعاً من رفعة عينيه الىّ لمّا دخلت عليه أن أمراً جللاً سيكون ، فدنوت منه كأنْ لم أُوجس من وجهه خيفة شىء وقبّلته

— متى قَدِمت يا أبى ؟

— مساء أمس

— ونزلت فى دارى كالعادة ؟

— نعم

— آسفٌ أنى لم أكن هنا فأستقبلك

قلت هذا وأنا أتربص أن يزأر فى وجهى بما استتر تحت صفحة وجهه الهادئة ، ولكنهُ لم ينبس بكلمة ، وأطرف الكتابَ لما أتمه ثم دفعه الى يوسف ليحمله الى البريد

ولما خلا بنا المكان قام والدى واتكأ على المِدفأ ، واستهل يقول لى

— أنا يا عزيزى أرمان على وشْك الحديث فى أمر جليل

— أنا مصغ اليك يا أبى

— أتعدنى بالصراحة فى القول ؟

— تلك عادتى

— أحق انك تعايش امرأة تُدعى مرجريت جوتيه ؟

— نعم

— أتعلم ما كانت هذه المرأة ؟

— كانت حظية

— وهى علة إغفالك زيارتى هذا العام وزيارة أختك ؟

— نعم يا أبى أُقرّ بذلك

— إذنْ فأنت تحب هذه المرأة حباً شديداً ؟

— لاشك انك ترى ذلك يا أبى . كيف لا ، وهى قد أنستنى واجباً مقدساً أستصفحك عنه اليوم وأنا خاضع أرتجى

لم يتوقع أبى منى هذه الأجوبة الصريحة فخار يفكر قليلا ثم قال

— أظنك اقتنعت مما كان بأنك لاتستطيع العيش على هذه الحال طويلا

— لقد خشيت أن لا أستطيع ، ولكنى لم أقتنع للآن أنى لا أستطيع فقال لى أبى بصوت فيه جفاف الغضب

— ولكن كان يجب أن تقتنع بأنى لا أرضى هذه الحال أبداً

— انى قلت لنفسى انى ما دمت لا أمس اسمك بسوء ، ولا حسن سمعة أسرتى المأثورة بأذى ، فلى أن أعيش كما أهوى ، وهذا ما هدأ ارتياعى قليلا

ما أشد دوافع الغرام اذا هى ثارت ، وما أقل ماتكترث بالعواطف ولو كانت أبوية . لتهيأت نفسى للنزال فيما يكون من وقائع ، وأخذتُ أُهبتها لتحمل على أبى ما تحمل احتفاظاً بمرجريت

— لقد آن أن تعدل عن عيشتك التى تعيش

— ولِمَ يا أبى ؟

— لانك على وَشك أن تأتى أموراً تُزرى بشرفٍ لأسرتك تقول إنك ترعاه

— لا أفهم ما تقول

— سأوضح لك غامضاً من قولى . أنْ تكون لك خليلة شىء لا عاب فيه ، وأن تدفع لها ما يدفع الرجل الغَزِل فى حب حظيته شىء لا أحق منه ولا أبدع ، ولكن أن تنسى أقدس الأمور من أجلها ، وأن ترسل سمعتك الفاجرة تطوى الأرض الى أقليمى ، وأن تُصيب اسماً شريفاً خلعته عليك بأذى أو بعض أذى ، فهذا الذى لا يمكن أن يكون ، هذا الذى لن يكون

— أتأذن لى يا أبى أن أقول إن قوماً أدّوا اليك بخبرى فأساءوا أداءه . إنى أحب الآنسة جوتيه وأعايشها معايشة فحسب ، وهذا أهون ما يكون من شىء . إنى لم أخلع على مرجريت اسماً خلعتَه علىّ ، ولا أنفق عليها الا ما يفى به دخلى ولم أستدن شيئاً ، ولم آت أمراً يُخوّل لأبٍ أن يقول لابنه ما قلت لى الساعة

— ان الأب مُخوّل دائماً أن يُقوّم ابنه اذا اعوجّ فى سبيل الحياة . انك لم تأت بعدُ أمراً إذاً ، ولكنك قادم على إتيانه

— أبى !

— سيدى ! انى أفقه من الحياة ما لا تفقه . لا عاطفة يتم صفاؤها الا لدى امرأة تم عفافها ، وكل « مانون » فى وسعها أن تخرج « دى جريو » . على أن الزمن دار ، والفلك استدار ، والعادات حالت ، ولا

فائدة من شيخوخة الدنيـــا ان كانت بالشيخوخة لا تصحو من حماقة وأفن . ستغادر خليلتك

— انى آسفٌ أنى أعصيك ، فلا مندوحة لى عن العصيان

— بالرغم تطيع

— لسوء الطالع لم يبق من جزيرة « القديسة مرجريت » باقيــة يبعثون اليها البغايا . ولوأنها كانت وسعيت فى نفى مرجريت اليهـا لتبعتُها ، فاذا بعد ذلك ؟ قد أكون خاطئاً ، ولـكنى لا هناءة لى الا فى قرب مرجريت وحبها .

— استمع لى يا ارمان ، وافتح عينيك ، وانظر أباً أحبك ويحبك ، ولا يريد لك الا الخير ما استطاع . أترى من شرفك أن تعيش فى الحرام مع فتاة نالها من قبلك كل الناس ؟

— ماضَرٌ هذا اذا كان لن ينالها بعد الذى كان أحد ؟ ماضَرٌ هـذا إذا أحبتنى هذه الفتاة واستبدلتْ من البلى جدَّة من حب لى عنـــدها وحبٍ عندى لها ؟ ماضَرٌ هذا اذا اهتدى ضال ، وأناب مُنيب ؟

— أترى ياسيدى أن الرجل الشريف بُعث فى هذه الدنيا لهداية البغايا ؟ أترى ان الله نصب مانصبتَ له نفسك ليكون غرض الحياة فلا يَشغَلَ قلبَ المرء أملٌ سواه ؟ أى عظيم يكون من وراء هـذه الانابة الـكبرى ، وكيف ترى ما تقول اليوم اذا أنت بلغت الاربعين ؟ انك عندئذ لاشك تضحك استخفافاً بحبك هذا ، ان كان يترك لك الزمن بقيةً من ضحك ، ولا يَسِمُ لك ماضيك وسمة سوداء لا تأذن لك فى ابتسام . وما كان ما آلك أنت هـذه الساعة لو أن أباك كان استسلم

صغيراً لمثل آرائك ، وأجاب لكل صرخة هوى ، ولم يَشِدْ حياته على عَمَدٍ من شرف واستقامة ؟ إقدحْ فكرتك ياأرمان ، ولا تعد تسمعنى شيئاً من سخافاتك التى سمعت . ستغادر هذه المرأة . إن أباك ليرجوك أن تغادرها

فسكتُّ واستطرد أبى يقول

— باسم المرحومة أمك يا أرمان ارفض هذه الحياة ، وأنا ضمين لك انك تنساها اسرع مما تخال . إن الذى يعلقك بها فكرة نظرية باطلة . لك من العمر أربع وعشرون ، فانتقل بنظرك الى المستقبل تجدْ انك لن تستطيع ان تحب هذه المرأة الى الأبد ، وانها كذلك لن تستطيع . انكما كليكما تبالغان فى حبكما . انك ستسُد على نفسك منافذ السبل فى هذا الوجود . انها خُطوة واحدة بقيت لك ، لو انك خطوتها لما استطعت ان تنزع عن سبيلك التى سلكتها ، ولا يبقى لك طول حياتك الا ذكرى شبابك الاليمة . فهيا معى وقضّ شهراً أو شهرين الى جانب شقيقتك ، فالراحة وحب الاسرة المقدس يكفُلان لك الشفاء سريعاً من الحُمّى التى تجد ، فليس بك غيرحمّى . وفى هذه المدة تكون سلت خليلتك واتخذت لها حبيباً غيرك ، وتكون أنت قد صحوت فتبينّت مَن هى التى كدت تغاضب أباك وتفقد محبته من أجلها ، فعندئذ تأتينى تقول لى إنى فعلت بك خيراً لما جئت أفتش عنك ، وعندئذ أسأل الله أن يبارك فيك يا بنى . فهيا فستذهب معى . أليس كذلك يا ارمان ؟

لقد أحسست بأن مايقول أبى حقٌّ غير مجحود فى كل النساء ، ولكنه باطل مدفوع عن مرجريت . ومع هذا كانت نغمة صوته فى

كلماته حلوة ، ورأيته مستعطفاً ، فلم أقو على اجابته . فقال لى بصوت متأثر :

— وبعدُ ؟ فقلت بعد حين

— وبعدُ فلا أستطيع يا أبتاه أن أعِدَك شيئاً . فانك تطلب منى غير مستطاع . فتحرّك حركة الضّجَر ، واستتبعتُ فى قولى

— إنك يا أبى لتبالغ فى أعقاب هذا الوصال . ليست مرجريت بالمرأة التى تخال ، وليس حبى لها بالذى يحيد بى عن سواء السبيل ، بل على النقيض إنه يُنمّى فىَّ أشرف العواطف ، فان الحب الحق لا يُورث إلا خيراً مهما كانت صفة المرأة التى تبعثه . إنك لو عرفت مرجريت لعرفت انى لا أعرّض نفسى لخطر ما . انها نبيلة كأنبل النساء ، وعلى قدر ما عند غيرها من جشع تجد عندها من زهد وتضحية

— زهدٌ جعلها تتقبل منك كل مالك تخرج لها عنه . أجل كل مالك ، فانه ليس لك من المال غير الستين الف فرنك التى تركتْها لك أمك ، فاعتبر ذلك ، واعتبره مراراً

لعل أبى استأجل هذا التهديد للختام ليضربنى به الضربة الأخيرة ، ولكنى كنت أجلد لتهديده منى لرجائه ، فقلت له

— من أنبأك انى سأهَب لها هذا القدر من المال ؟

— مسجل عقودى ، فهل كنت تظن ان رجلا أميناً يُقدِم على مثل ما سألتَه دون إشعارى . انى ما أتيت هنا الا لأقيك من إفلاس من أجل امرأة . إن أمك ماتت وتركت لك ما تعيش به عيشة الأشرفين لا ما تتكرم به على خليلاتك

— أقسم لك يا أبي أن مرجريت لا تعلم شيئاً من هذا

— إذن فلم تهبها مالك ؟

— لأن مرجريت ، تلك التي تتجنّى عليها ، وتريدني على تركها ، قد ضحّت بكل مالها لتعيش معي

— وهل قبلتَ منها هذه التضحية ؟ أي رجل أنت ياسيدي وقد سمحتَ لامرأة هي الآنسة جوتيــه أن تضحي لك بشيء . هيّا فكفى فضيحة وعاراً . ستترك هذه المرأة . منذ قليل كنت أرجو ، أما الآن فآمرك . لا أرضى بهذه الدنايا تكون في أسرتي . جهّز حقــائبك وتهيأ للرحيل معي

— عفواً يا أبتاه فلن أرحل

— لِمَ ؟

— لأني بلغت السن التي عندها لا أطيع أمراً

— فامتُقِع لون والدي لدى هذا الجواب ، وقال : حسن يا سيدي . سأعرف ما أصنع بعد .

ودق الجرسَ فحضر يوسف فقال له :

احمل حقائبي الى فندق باريس .

وخطا الى غرفته فارتدى ملابسه . ولما خرج من الغرفة ــــ اليه وقلت له : تعدني يا أبي ألا تأتي شيئاً يؤلم مرجريت ؟

فوقف أبي هنيهة يلمحني شزْراً ، ولم يرد علي ، ثم قال لي : انك مجنون ! وخرج وردّ الباب وراءه ردّاً عنيفاً ، وخرجت فركبت مركبة الى بوجيفال ، فألفيت مرجريت تنتظرني عند النافذة

الفصل الحادي والعشرون

وثبت الى عنقى وصاحت

— أخيراً جئت يا أرمان ، ما أشد اصفرارك !

فقصصت لها ما كان بينى و بين أبى . فقالت

— آه ! رباه ! لقد حدست ذلك . لقد ارتجفت لما جاء يوسف ينبئنا بقدوم والدك ارتجافى لمصيبة نازلة . مسكين يا صديقى ، تقاسى كل هذه الكروب من أجلى . لعل من الخير لك أن تتركنى ولا تغاضب أباك . ولكن ماذا أذنبت اليه ؟ انا نعيش وداعين ، وسنعيش أودع فى المستقبل . إنه يعلم أنه لا بد لك من امرأة تسكن اليها ، فما كان أولاه بالسرور إذ علم أنى تلك المرأة ، لأنى أحبك ، ولا أطمع منك فى غير ما تستطيع . أقصصت عليه كيف رتبنا الحياة للمستقبل ؟

— نعم ، وهذا الذى أهاجه فوق كل شىء ، فانه ارتآه أمارة حب بيننا أكيد متبادل

— فما العمل ؟

— لا عمل الا أن نبقى معاً يا عزيزتى مرجريت حتى تسكن هذه العاصفة

— وهل تراها تسكن ؟

— لكل عاصفة سكون

— ولكن أبوك لا يقف عند الحد الذى بلغه

— اذن فما يصنع وراءه ؟

— ومن أين لى علمُ هذا . إنه يصنع كل ما يصنعه أبٌ ليطيعه ابنه ، وسيذكر لك ماضيّ ، وربما أدّاه كرمه أن يزيد عليه أموراً يبتدعها لينفرك منى

— ولكنك تعلمين أنى أحبك

— نعم ، غير أنى أعلم أيضاً أنه لا بد أن يطيع ابنٌ أباه اليوم أو غداً ، وعندئذ تنتهى الى أن تقتنع بما يقول

— لا يا مرجريت، فانى أنا الذى سينتهى الى إقناعه . انها أحدوثة جرت بين طائفة من أصدقائه فأثارت غضبه ، ولكنه رجل سليم الطوية وعادل ، وسيرجع الى الحق بعد حين . وعلى كل حال ما الذى يضيرنا رجع الى الحق أو لم يرجع

— أمسكْ عن هذا يا ارمان ، فان كل شىء يهون علىّ الا أن أراك تنشقّ على أهلك من أجلى . دعْ هذا النهار يفوت وعد فى الغد الى باريس فيكون قد تبصّر أبوك وتبصّرت ، فتستطيعان أن تتفاهما خيراً مما فعلتما اليوم . لا تعترضْ آراءه ، واظهر بأنك تساير رغائبه بعض المسايرة ، ولا تُرِه انك تتشبث بى ، فبذلك يترك لك الأمور تجرى مجراها . تعلّقْ بالأمل يا صديقى وثق بشىء واحد ، ذلك انه مهما يكن من الأمر فرجريت لك دوماً

— أتقسمين ؟

— أبكَ حاجة الى قسمى ؟

ألا ما أحلى إسلام المرء نفسه لصوتٍ حبيبٍ اليها يغريها بما يغرى

وقضينا النهار كله نتذاكر ما اتفقنا على ترتيبه من أمور حياتنـــا فى المستقبل ، وأخذنا نُبدى ونُعيد فيه كأننا أحسسنا ضرورة تحقيقه سريعاً قبل الفوات ، وأخذنا نرتقب من دقيقة لأخرى وقوع حادث ، ولـكن لسعدنا مرَّ النهار ولم يقع فيه سوء

وفى الغد سافرت فى الساعة السادسة صباحاً ، ووصلت الفنـدق قرب الظهر فوجدت والدى قد خرج ، فذهبت الى دارى ظناً منى أنه ذهب اليها ولـكن علمتُ أنه لم يطرق بابى أحد

فلعله عند مسجل العقود ، ولـكن هذا أيضاً لم يلقَ أبى . فعدت الى الفندق ، وانتظرت الى الساعة السادسة والسيد دوڤال لم يعد

فاتخذت طريق الى بوچيڤال ، فألفيت مرجريت لا تنتظرنى كأمس ، ولـكنى وجدتها جالسة الى النار التى بدأت توقدها لدخول الشتاء . وكانت مستغرقة فى فـكر عميق . فاقتربت من كرسيها فلم تسمع خُطاىَ ولم تلتفت الىّ ، ووضعتُ فمى على جبينها ، فراعتها قُبلتى وفزعت مستيقظة من سُباتها وصاحت :

— لقد رُعتنى . وأبوك ! ما أبوك ؟

— لم ألقَه ولم أدر سراً لذلك فانى لم أجده فى الفندق ولا فى دارى ولا فى مكان حسبته يكون فيه

— اذن تعود غداً فتفتش عنه

— لا بل أجدنى أميلَ الى انتظار دعوته اياى ، فانى قد فعلت كل ما وجب علىّ

— لا يا صديقى ، لم تفعله كله ، فلا بد لك من العودة الى أبيك ، ولا بد أن يكون ذلك غداً

— ولِمَ الغد والايام كثيرة . فأجابت وقد احمرّت لسؤالى قليلا

— لأن أباك يغتبط بالحاحك فى لقائه فيكون أسرع الى الصفح عنى

وانقضت بقية اليوم ومرجريت مشغولة البـــال مشتتة الفكر حزينـــة ، فكنت اذا سألتها سؤالا سألتها إياه مرتين حتى تنتبه لى وتجيب ، وعزتُ ذلك الى غشية غشيتها من حوادث اليومين الفائتين ، والى ما أورثته اياها هذه الحوادث من خشية . فقضيت الليل أطمئنها . وفى الغد ألحّت علىَّ فى الرحيل الى أبى الحاحاً لم أدر سرّه ، فألفيت أبى كأمس خرج ولكنه ترك لى كتاباً يقول لى فيه

« اذا حضرت تزورنى اليوم فانتظرنى الى الساعة الرابعة ، فاذا لم أعد عندها فارجع الىَّ فى الغد نتناول العشاء فان لك عندى قولا »

فانتظرت الى الساعة المضروبة فلم يعد أبى فرحلت

بالأمس وجدت مرجريت حزينة ، أما اليوم فوجدتها مضطربة محمومة ، ولحتنى داخلا فوثبت الى عنقى وأخذت تبكى أحر البكاء على صدرى

فسألتها عن مبعث ألمها الفاجئ وقد راعتنى هذه المرة شدته ، فأخذت تلفق لى ما تلفقه امرأة لا تريد أن تبوح بالحق

ولما سكنتْ رائعتها قليلا ، قصصت لهـــا ما كان من سفرتى ، وأطلعتها على كتاب أبى ، وأريتها من تضاعيف سطوره مطامع للرجاء

وما أطلعتها على الكتاب ، ومنّيتها خيراً ، حتى تضاعف بكاؤها ، وانصبت دموعها انصباباً . فاستدعيت نانين وخشيت أن تنتابها نوبة عصبية ، فأرقدنا المسكينة فى فراشها ، والدمع لا يفتأ ينهمر من عينيها ، وقد خرِست وأخذت تقبل يدى فى كل حين . فسألت نانين هل أتى سيدتها كتاب أو زارها زائر فأهاجها هذا الهياج كله ، ولكنها أجابتنى بأنه لم يزرها أحد ولم يأتها كتاب

ولكن لا بد أن يكون قد حدث منذ الأمس حادث ، وزاد قلقى منه أن مرجريت أسرته عنى . وظهرت فى المساء بهدوء قليل ، فسألتنى أن أجلس عند قدميها من سريرها ، وأخذت تؤكد لى حبها وتبتسم ، ولكنها ابتسامات مصنوعة لم تمنع الدمع أن يترقرق فى عينيها . فطرقت كل باب وولجت كل سبيل لأكشف منها سر هذا الهم الخفى ، ولكنها عندت فلم تطلعنى على غير علل مبهمة لا طائل تحتها . وانتهت الى أن نامت على ذراعى ، ولكنه نوم يحطم الجسد ويضعضعه . وكانت تستيقظ صارخة من آن لآن ، حتى اذا اطمأنت الى بقائى بجانبها استحلفتنى أن أقيم على حبها ما حييت

لم أفقه شيئاً من نوبات الألم هذه التى أخذت تنتابها حتى الصباح ، ولما طلع النهار جاءها شىء من نعاس ، وكان لها يومان لم تذق النوم فيهما ولم يطل هذا النعاس

وفى زهاء الساعة الحادية عشرة استيقظت مرجريت ، فلما لم تجدنى الى جانبها فتشت حولها ، وإذ أخذتنى عينها صرخت الى

— أتهيأت للذهاب ؟

— لا . وأخذتُ يديها وعقّبت :

— لا يزال فى الوقت سَعَة ، وانما أردت ألا أزعج نومتك

— ففى أى ساعة تذهب الى باريس ؟

— فى الرابعة

— أبهذا البكور ياربّاه ، وتبقى معى هنا الى هذا الأجل ؟

— لاشك

— ما أسعدنى بك ! ثم استطردت وقد تشقّت عقلها

— وتمشى معاً ؟

— نعم اذا شئتِ ذلك

— وتقبلنى وتحسن التقبيل اذا حانت ساعة ذهابك عنى ؟

— نعم وأعود اليك على أسرع جَناح

ثم قالت وعيناها زائغتان كعينى وحش ينظران الىّ

— أتعود ؟

— بالطبع

— حقاً ، حقاً ، ستعود فى هـذا المساء ، ستعود فتجدنى انتظرك كالعادة ، وسنحيي بحبنا سعيدين كما كنا من يوم تعارفنا

قالت ماقالت بصوت متهدج آنست من دونه أمراً خبيئاً ، وفكرة أليمة عَلِقت برأسها . واخذت فرائصى ترتعد خشية ان يسلمها الحال الى الهذيان فقلت لها

— اسمعى . إنك مريضة فلا استطيع تركك على هـذه الحال ، وسأكتب الى والدى اعتذاراً عن ذهابى اليه .

فصاحت صيحة غليظة جافية :

— لا . لا . لاتفعل فان اباك يتهمنى بأنى حبستك عنه وقد أراد أن يراك . لا . لا . لا بد من ذهابك ، لا بد ، على انى لست مريضة ، ان صحتى غاية فى الجودة ، وان كنت رأيت منى شيئا فما ذلك الآ لحُلْم راعنى ولم اكن بعد استيقظت منه

ومن هذه الساعة ظهرت مرجريت بالعافية والبهجة ولم تذرف دمعة . ولما حانت ساعة رحيلى قبلتها وسألتها صُحبتى الى القاطرة ، وأمَّلت من ذلك أن تروّح الغدوةُ والروحة عنهـا ، وان ينعشها هواء الطريق . وفوق كل هذا أردت ان تكون معى اكبر زمن مستطاع . فقبلت صحبتى واخذت معها رداء ، واصطحبت نانين حتى لاتعود وحدها

لَهَمَمْتُ مراراً ان اقعد فلا ارحل ، ولكن ردّنى أملى أنى سأعود سريعاً ، ورغبتى فى ألا اغاضب ابى فوق مافعلت . فقلت لمرجريت والقطار يتحرك

— الى المساء

فلم تجب شيئا

تذكرت أنها لم تجب مرة عن هذه الكلمة نفسها يوم جاء الكونت دى ج . . . وقضى عندها الليلة ، ولكن كان ذلك اليوم البعيد قد طال عهدى به فامّحت ذكراه بالنسيان من ذاكرتى ، ولو أنى ذكرته لخشيت من مرجريت ماشئت من أمر سوى أنها تخوننى هذه المرة . ولما وصلت

الى باريس جريت الى پرودنس أسألها أن تذهب الى مرجريت ، راجياً ان يكون من توقد قريحتها وابتهاجها الدائم مسلاة للحزينة المسكينة . فدخلتُ دون استئذان فوجدتها في مُتزَيّنها . فقالت لي بلهجة مضطربة

— أهذا أنت ؟ أمرجريت معك ؟

— لا

— فكيف حالها ؟

— تتوجع

— إذن فلن تجيء اليوم ؟

— هل كان عليها أن تجيء ؟

فاحمرّ وجه پرودنس ، وأجابتني بحرج واضطراب

— أردت أن أقول : إذ جئت أنت الى باريس فهل تجيءُ هي أيضاً لتلحق بك ؟

— لا

فحدّقتُ في عينيْ پرودنس فأزاحتهما عني ، وقرأت من وجهها أنها تخشى أن يطول مُقامي عندها ، فابتدرتها أقول

— إنْ أخطرَ ما أبديت أسألك اياه أن تذهبي الى مرجريت هذا المساء اذا لم يكن ما يَشغلك فتؤنسيها بصحبتك ، وأنت تستطيعين النوم عندها هذه الليلة. انى لم أرها على حال أسوأ مما رأيتها اليوم وأخشى عليها المرض . فأجابتني پرودنس

— انى سأتعشّى اليوم في المدينة فلا أستطيع الذهاب الى مرجريت هذا المساء ، وسأذهب اليها غداً

فاستأذنت فى الانصراف بعد أن ألفيت پرودنس شتيتة العقل شتاتَ مرجريت ، وذهبت الى والدى فأنعم فىّ أول نظرة انعاماً ، ومد الىّ يده يصافحنى

— زيارتك سرتنى يا ارمان ، ورجوت منهما أن تكون اهتديتَ بالتفكير كما اهتديتُ الى أمر

— أفتأذن لى يا أبى أن أسألك إلامَ هداك تفكيرك ؟

— انتهيتُ الى انى بالغت فى تقدير ما سمعتُ من الناس ، وعزمت على ألاّ أكون معك صُلب القناة . فصرخت فرحاً

— ما تقول يا أبى ؟

— أقول يا بنىّ العزيز ان كل شاب لا بد له من امرأة يسكن اليها ، وبعد البحث آثرت مرجريت لك على غيرها

— أبتاه ! ما أسعدنى بك يا أبتاه

وأخذنا نتحادث فى هذا الشأن بُرهات ، ثم جلسنا الى المائدة ، وكانت ملامح السرور تتراءى على محيا أبى مدة الطعام ، وكنت أستعجل الرجوع الى پوچيڤال لأخبر مرجريت بما كان من سعادة غير منتظرة ، فأخذت أطالع ساعة الحائط مراراً ، فقال لى والدى

— انك تطالع الساعة ، أستعجالا لفراقى ؟ يا للشباب ! لشد ما ضحيتم بحبٍ أكيد ، واستبدلتم به حباً جدّ مُريب

— لا تقل ذلك يا أبى ، فان مرجريت تحبنى حباً أكيداً لا ريبة فيه

فلم يجب أبى ، ولم يظهر بتصديق أو تكذيب ، وألحّ جهده فى أن أقضى المساء لديه . فقلت له انى غادرتها تتوجع واستأذنت منه فى الرحيل

على أن أعود اليه فى الغد

كان اليوم صحواً فرغب فى صحبتى الى رصيف المحطة . لم يمرّ على وقت أسعد من هذا ، وتراءى لى المستقبل على الحال التى رجوتها من زمن بعيد

وأحببت والدى عندئذ فوق ما أحببته . وساعة فراق اياه ألحّ مرة أخرى فى استبقائى ولكنى أبيت ، فسألنى

— أبلغ حبك إياها هذا المبلغ ؟

— وأىّ مبلغ !

— فدونك فاذهب اليها . ثم أمرّ يده على جبينه كأنما يطارد من رأسه فكرة ، ثم فتح فاه وأراد أن يقول شيئاً ، ولكنه آثر السكوت ، وصافحنى ثم أسرع فى الذهاب عنى وهو يصيح

— الى الغد

الفصل الثانى والعشرون

خلت أن القاطرة لا تسير بى ، ووصلت بوچيڤال فى الحادية عشرة مساء ، فلم أجد نافذة واحدة من البيت مضاءة ، وطرقت فلم يجبنى أحد هذا حادث جديد لم يحدث لى من قبل . وأخيراً أتى الجنّان طرق فدخلت فصحبتنى نانين بمصباح حتى وصلت الى غرفة مرجريت

— أين سيدتك ؟

— سافرت الى باريس

— الى باريس !

— نعم يا سيدى

— متى ؟

— بعدك بساعة

— ألم تترك لى عندك خبراً ؟

— لا

وانصرفت تاين عنى ، فأخذت أفكر : لعل الهواجس لعبت بعقل مرجريت فذهبت الى باريس لتستيقن أن ارتحالى كان لأبى حقاً ولم يكن حجة باطلة لأخلص من قيدها يوماً . أو لعل پرودنس كتبت لها فى أمر خطير ، ولكنى زرت پرودنس عند وصولى باريس فلم تقل لى ما يثبت ذلك . فانبعث فى ذاكرتى أنى عند ماقلت لپرودنس أن مرجريت مريضة سألتنى « اذن فمرجريت لاتأتى الى باريس اليوم ؟ » وانبعث كذلك فى ذاكرتى اضطراب پرودنس وربكتها عندمارشقتها بنظرتى بعد هذا السؤال ، وقد رأيت من ثناياه موعداً مضروباً بينهما تخفيه عنى . وأضفت الى هذه الذكريات دموعاً لم تفتأ مرجريت ترسلها طول النهار المنصرم أنسانى اياها بعضَ الشىء حسنُ لقاء أبى وترحيبه بى

وأخذتْ حوادث النهار تتوالى علىّ من كل فج ، وتتجمع فى ازدحام حول رأسى ، وقامت جميعها شواهدَ صدق تحقق ارتيابى فى ما ارتبتُ فيه أولا ، حتى ارتيابى فى مالقيت من والدى من ترحيبه بى فى المرة الأخيرة وما أبداه لى من عطف أبوى

واقترحت عليها البقاء الى جانبها لما رأيتها مهتاجة ثائرة فسرعان

ماظهرت بهدوء كاذب وسكون مفتعل ! أوقعت في فخ ؟ أخانتني مرجريت ؟ أم حسبت أنها تستطيع الذهاب الى باريس فالعودة قبلي فلا أعلم بذهابها ، ثم أخطأ حسبانها فاحتبسها في باريس حابس باغت ؟ ولكن ان كان هذا صحيحاً فلِمَ لم تقل لتابين شيئاً ، أو لِمَ لم تترك لي عندها خبراً ؟ ماتلك الدموع التي أسبلتها ؟ ماهذه الغيبة ؟ ماهذا السر الغامض ؟

هذا ما كنت أسائل به نفسي وأجيب في تلك الحجرة الخالية وعيناي لاتبرحان تطالعان ساعة الحائط . ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل كأنما تقول لي لا تُطل فالوقت فات ، ولوكان لمرجريت في العودة لعادت

ولكن أبعد الترتيب الذي اتفقنا عليه ، ومع التضحية التي ضحّت بها الىّ وتقبّلتُها منها يجوز أن تخونني ؟ . لا . . واطّرحتُ وساوسي الأولى .

لابد أن تكون البنيّة المسكينة وجدت مشترياً يشتري أثاثها فذهبت الى باريس لتتمّ البيع ، ولابد أنها لم تشأ السبق بأخباري لأنها عرفت أن هذا البيع اللازمَ لسعادتنا المستقبلة يؤلمني ولو رضيت به ، وأنها إذا حادثتني في أمره فهي تجرح احساسي وتهيج عزة نفسي ، فآثرت أن تغيب حتى يتم كل شيء . وما كان موعدُه بينها وبين پرودنس إلا لانجاز هذا البيع ، وهي لاشك لم تستطع إنجازه اليوم فباتت عند پرودنس لتنجزه في الغد ، أو لعلها ستحضر الساعة ، فهي تعلم قلقي واضطرابي ولا تود لي قلقاً ولا ترضى اضطراباً

ولكن ماتلك الدموع الأخيرة التي أراقت ؟ لعلها دموع كان لابد للمسكينة من إراقتها على الرغم من حبها وقد عقدت نية صادقة على بيع أثاث عاشت تتقلب فيه على البذخ حيناً

واغتفرت لمرجريت على هذا الزعم ما كان من غيابها ، وترقبتُ الساعة التي تعود فيها لأسرع اليها أقول لها إني عرفت بفضل ذكائي سر هذا الغياب الذي شاءت أن تُسره عني

ولكن أخذ الليل يتصرّم ومرجريت لم تعد ، وشد الضجر نطاقه على رأسي وقلبي . لعل نازلة نزلت بها ! لعلها جُرحت ! لعلها ماتت ! لعل قادماً يقدم الآن يُنهي إلى فاجعة أليمة ! أو لعل النهار يطلع وأنا على ما أنا عليه من قلق وخوف !

لم تعد اليّ الفكرة بأن مرجريت خانتني وأنا أنتظرها في مخاوف تكتنفني من جراء غيابها . لابد وقع حادث لا إرادة لها فيه حجزها بعيداً عني . وكلما فكرت في الأمر اقتنعت أن هذا الحادث شرٌّ ما . يا لَغرور الانسان ! لكم يتراءى له في كل ثوب

ودقت الساعة واحدة ، فقلت اصبر ساعة ، فاذا دقت الساعة الثانية ولم تعد مرجريت رحلت أفتش عنها في باريس

وفي هذه الفترة بحثت عن كتاب أقرؤه أحبس فيه فكري الشرود ، فكان أمامي « مانون ليسكو » مفتوحاً على المنضدة ، فتصفحته فخلت على صفحاته بللا من آثار دموع ؛ وقلبته فلم استفد من سطوره معنى ، وكيف وقد حجبت فكري الشكوكُ والريب

وتباطأت الساعة في سيرها ، وسترت السماء سحبُ الخريف ،

وأمطرت فتساقط القطر ينقر زجاج النافذة . ومرت بى لحظات ارتأيت فيها السرير المقفر قبراً فارتعت

ففتحت الباب وتسمّعت فلم اسمع إلا صوت الريح فى الشجر؛ ولم أجد مركبة واحدة على طول الطريق الخالى . ودقت ساعة الكنيسة فى برجها العالى نصفاً ، فكانت دقة حزينة انتشر صداها وئيداً فى الناحية الهادئة يعلوها حزناً

وأتت علىّ برهة حسبت فيها أن أحداً يُقبل علىّ ، وأحسست أن قادماً يَقدم الىّ فى مثل هذا الوقت العبوس لا يحمل إلا شراً

ودقت الساعة الثانية ، فقلت اصبر بعدها قليلا ، فلم يعكّر هـذا السكونَ سوى ساعة الحائط تتتابع بنظام واحد ، ونغمـة لا تختلف . وانتهيت إلى مغادرة هذه الحجرة لما رأيت كل شيء فيها جليلا أو صئيلا يلبس ثوب حزن ، شأنُ القلب القَلِق المُوحَد أن يخلعه على ما حوله من الأشياء

فوجدت فى الغرفة المجاورة نانين قد جاءها النوم وهى قائمة فى أشغالها فأيقظها صرير الباب ، فسألتنى هل عادت سيدتها

— لم تعد ، وإذا عادت فقولى لها انى لم أستطع صبراً ، فقصدت الى باريس

— أفى هذه الساعة ؟

— نعم

— ولـكن كيف ؟ انك لن تجد مركبة تذهب بها اليها !

— سأذهب على قدمىّ

— ولـكن السماء تمطر !

— وما بال هذا ؟

— إن سيدتى ستعود ، فاذا لم تعد فلا نزال فى النهار فسحة من زمن تذهب فيها تتساءل عما احتجزها ، أمّا إنْ ذهبت الآن فلن تأمن القتل فى الطريق

— لاخطر علىّ ياعزيزتى نانين ، فالى الغد

فسارعت طيبـة القلب إلى ردائى تحمله إلىّ ، وطرحته على كتفى وسألتنى أن تذهب فتوقظ الأم « أرنولد » وتسألها أفى الامكان تجهيز عربة . ولـكنى أبيتُ عليها ذلك ، لأن زمناً تنفقه فى البحث عن عجلة قد لا تجدها كفيلٌ بقطعى نصف الطريق الى باريس . وفوق هذا فقد كانت بى حاجة الى الهواء والى تعب جثمانى يذهب عنى بثائرةٍ نفسية بالغة ألحّت علىّ آلامها

فأخذتُ مفتاح شقة مرجريت التى بشارع أنتين ، وصحبتنى نانين الى سور البيت فودعتها ورحلت

فأخذت أجرى بادئ بدء ، وكان المطر قد هطل وابلا فزلق الارض فتعبت من ذلك أيما تعب . ولم يمض غير نصف ساعة من جريى حتى أعجزنى الجهد الجهيد ، فوقفت فوجدتنى غارقاً فى عرقى ، فتنفست ثم تابعت السير فى طريقى . وكان الليـل حالـكاً فخشيت أن تصدمنى أشجار الطريق ، وقد كانت تظهر فجأة أمام عينى ، فأخالها شبحا هائلاً يجرى الىّ

ولحِقت فى الطريق بعجلتين تُجران بالأيدى فما أسرع ماخلفتهما ورائى

وصادفت مركبة قادمة نحوى متجهة الى بوجيڤال تنهب الأرض نهباً ، فلما حاذتنى انبعث فى قلبي الأمل فحسبت أن مرجريت فيها ، فوقفت وصحت : مرجريت ! مرجريت ! فلم يجبنى أحد ، وتابعت المركبة سبيلها ، فظللت أرعاها حتى ابتعدت عنى ثم اتخذت سبيلى .

واستغرقت ساعتين حتى بلغت ظاهر باريس ، فبعث مرأى المدينة قوة فى نفسي فجريت مندفعاً أقطع الطريق الطويل الذى طالما قطعته اليها .

ولم ألق من أحد فى هذا الطريق ، فكان أشبه بطريق الى مدينة الأموات

ولاح فجر النهار

ولما وصلت شارع أنتين تحركت المدينة فى فراشها ايذاناً باليقظة ، ودقت الساعة الخامسة من كنيسة القديس رك وأنا أدخل دار مرجريت

فأعلنت البواب باسمى ، وكان قد نال منى الجنيه إثر الجنيه فعلمه ذلك ان لمثلى الحق فى غشيان دار مرجريت ولو فى الساعة الخامسة صباحاً

فمررت بلا تعويق

كان يحسن بى أن أسأله أمرجريت فى الدار ، ولكنى خشيت أن يقول : لا ، فآثرت أن أظل على ريب دقيقتين ، فان المريب يؤمل ما ارتاب

فتسمعت من الباب ، وجاهدت أن يصل أذنى حس أو جرس فلم أسمع شيئاً ، كأن سكون الريف تابعنى هناك . ففتحت الباب ودخلت فوجدت الستائر مسدلة أيما إسدال ، فهصرتها عن نوافذ غرفة الطعام ، وذهبت الى غرفة النوم فدفعت بابها ففتحته

ووثبت الى حبل ستارتها فجذبته جذباً

فأسفرت الستارعن النافذة ، فنفذت منها الى الغرفة أضواء ضعيفة من النهــار الطالع . فجريت الى السرير فكان خالياً . ففتحت الأبواب باباً إثر باب ، ودخلت كل حجرة ، فلم أجد أحداً !

أمور تُذهب اللب وتُفقد الصواب !

فخطوت الى منزلنا وفتحت نافذته وناديت برودنس مرات ، فظلت نافذة برودنس مغلقة

فنزلت الى البوّاب وسألته أجاءت مرجريت الى بيتها فى النهــار الفائت ، فأجابنى

— نعم جاءت مع مدام دوفرنوا

— ألم تقل لك شيئاً عنى ؟

— لا شىء

— أتدرى ماذا صنعتا بعد ذلك ؟

— ركبتا مركبة

— أى نوع من المركبات ؟

— مركبة من مركبات الأعيان

ما سرّ كل هذا ؟ !

فطرقت باب الدار المجاورة ففتح لى البواب وسألنى

— الى أين يا سيدى ؟

— الى مدام دوفرنوا

— ليست فى الدار

— أموقنٌ أنت ؟

— نعم يا سيدى ، وهذا كتاب دفعه بعضهم الىّ لأحمله اليها ولم أحمله بعد .

وأرانى البواب كتاباً أجريت عليه نظرتى اجراء فعرفت فيه خط مرجريت . فأخذت الكتاب ، فكان عنوانه « الى مدام دوفرنوا لتحمله الى السيد دوڤال »

فقلت للبواب وأريته العنوان

— هذا الكتاب لى ، فأجابنى

— ألك هذا ؟

— نعم

— نعم هو لك فأنت الذى كنت تجىء كثيراً الى مدام « دوفرنوا »

وما خطوت الى قارعة الطريق حتى فضضت ختام الكتاب

فلو أن صاعقة انقضت على الأرض عند قدمى لما كنت أكثر ذعرا منى عند قراءة مافيه :

« فى الساعة التى تقرأ فيها هذا الكتاب يا أرمان سأكون خليلة غيرك ، ويكون قد انقطع مابيننا وتم الأمر

« إرجع ياصديقى إلى جوار أبيك وأختك ، إلى جوار فتاة عفيفة تجهل صنوف أبؤسنا ، وأنت إلى جانبها لاشك ستنسى سريعاً آلاماً حملتك اياها فتاة ضالة يسمونها مرجريت جوتيه ، كان من كرمك المشكور أن أحببتها ساعة ، واليك ترى مرجع الفضل فى سويعات سعيدة هى كل ما كان لها من سعادة فى حياتها التى لاترى حبلها اليوم يطول كثيراً »

وما أتيت على آخر كلمة حتى أحسست الجنون يدخل إلى رأسى ومرت برهة خفت أن أسقط فيها إلى أرض الشارع ، وغامت سحابة على عينىّ ، وانبعث الدم الى صدغىّ غزيراً

وانتهى بى الحال إلى أن تملكت قواى قليلا ، ونظرت حولى فعجبت للناس كيف جرّوا مجراهم من الحياة ولم تستوقفهم فاجعتى

لم أكن من القوة بحيث أحتمل وحدى النازلة التى أنزلتها علىّ مرجريت

ثم ذكرت أن والدى فى نفس المدينة التى أنا بها ، وأنى فى عشر دقائق أستطيع أن أبلغ الى جانبه ، وانه مهما كان من سبب افتجاعى فهو لاشك شاركى فيه

فجريت كالمجنون أو السارق إلى فندق باريس ، فوجدت المفتاح فى باب الغرفة التى بها أبى فدخلت

كان يقرأ

ألا ما أقلّ ما كان من دهشه لدى دخولى عنده . لحسب حاسبٌ أنه كان يتوقّع مجيئى . فوقعت على ذراعيه دون أن أنبس ببنت شفة ، ثم دفعت اليه كتاب مرجريت وسقطت امام سريره ابكى أحر بكاء

الفصل الثالث والعشرون

ولما بدأت مياه الحياة تعود الى مجاريها ، لم استطع أن أعتقد أن اليوم الذى ستطلع الشمس به سيختلف عن أيامى السابقة . ومرت بى سويعات فى غرفة والدى حسبت فيها أنه انما أقصانى عن مرجريت داع من الدواعى نسيته ، وأنى اذا عدت الى بوجيڤال فسأجدها قلقة لتأخرى كما كنت قلقاً لتأخرها ، وستسألنى ما الذى احتبسنى عنها

إن المرء إذا اكتسب فى وجوده عادة من العادات كعادة الحب ، فانه يرى أن من المستحيل نزعها منه ، وأنها ان هى نُزعت كرهاً فانما هى لولب من لوالب الحياة تهشم ، فلابد ان يُعقبه فى التهشم جميع ما بقى من لوالبها

لذلك كنت أضطر من آن لآن الى معاودة كتاب مرجريت أقرؤه لأقنع نفسى ان الذى كان لم يكن حُلْماً

سقط جسدى على أثر الصدمة النفسية الهائلة فلم يستطع حراكا ، وقام قلق الذى كان فى بوجيڤال ، وتطاولُ الليل الأخير علىَّ فيها ، وخبرُ الصباح الاسود فى باريس ، قامت كلها على استنفاد قواى جميعاً . وافاد أبى من استرخائى الزائد وضعفى البالغ فسألنى أن أعده بالرحيل معه

فوعدته بكل ماشاء لأنى كنت لا أطيق مناقشة ما ، وأشعرنى الشقاء واليأس حاجةً الى قلوب صحيحة الود ، خالصة الحب ، تعيننى على الحياة بعد الذى جرى

وأحسست السرور يسيل دافئاً الى قلبي لما آنست ان ابي يريد تسليتي عن مثل مابي من الهم

وعدا هـذا لا اذكر من ذلك النهار شيئاً ، إلا في زُهاء الساعة الخامسة ، فعندها أصعدني ابي معه في مركبة للبريد ، وكان جهز حقائبي دون ان يقول لي شيئاً فشفع بها حقائبه في مؤخر العربة ثم سار بي عن باريس

ولم أتنبه الى ماصنع بي حتى اختفت المدينة . وذكّرني خلوّ الطريق خلوّ قلبي ، وعندئذ عاد البكاء فأخذني

وعلم أبي أن القول ولو منه لا يجدى في مثل حالي نفعاً ، فتركني أبكي دون أن ينبس بكلمة سوى أنه كان يهز يدى أحياناً كأنه يذكرني بأن لي منه دوما صديقاً الى جانبي

وجاء الليل فلم أنم الا قليلا ، ورأيت في النوم مرجريت ثم استيقظت فزعاً دهشاً من وجودى في مركبة . ثم رجعت حقيقة الحال الى نفسي فأطرقت حزيناً ولم اجسر ان احادث ابي قط خشية ان يقول لي : لعلك عرفت الآن ان رأيي كان الحقّ لما انكرت عليك حب هذه المرأة

ولكنه لم يتخذ من نُصرته عليّ سبباً لايلامي ، ووصلنا الى بلدتنا بلدة ك . . . ولم يحادثني الا في كل شأن لاعلاقة له برحلتنا

ولقيت أختي فقبّلتها وذكرت بها الكلمات التي خصتها من كتاب مرجريت . ولكن سَرْعانَ ما أدركتُ ان أختي على طيبتهـا الزائدة وحنوّها الكبير لاتكفي لانسائي حبيبتي

وحل فصل الصيد فرأى والدي فيه مسلاة لي ، فهيّأ رُفقة للصيد

من الجيرة والصحاب . فذهبت مع الذاهبين لا كارهاً ولا راغباً ، بل اتقدت لهم بهذا الجمود الذى كان صفة لى فى كل أعمالى منذ رحلتى عن باريس

وجروا فى الصيد على أسلوب المطاردة ، فاوقفونى فى موقف خصونى بحراسته ، فوضعت بندقيتى فارغةً الى جوارى وأخذت أحلُم يافظاً

فراعيت السحب تتقاطر فى السماء ، وأرخيت العنان افكرتى تهيم فى السهول الموحشة ، ونبهتنى من ساعة لأخرى صيحات أحد الصائدين يلفتنى الى أرنب على عشر خطوات منى

لم تفت أبى ملاحظة شىء من ذلك ، ولم ينخدع بهدوئى الظاهر ، واعتقد ان قلبى مهما بلغ اليوم من ركود على اثر سقطته ، فلا بد له من غدٍ يَهُمّ فيه همّةً مريعة ربما تضمّنت خطراً من الاخطار ، فاخذ يُسْليني ويحاول أن يذهب بفكرى عما يشغله دون ان يرينى ذلك من نفسه

اما أختى ، ولم تكن تعلم بالطبع من حوادثى شيئاً ، فلم تفهم لذلك الغالى فى السرور زمناً مضى كيف جاءه الحزن ولزمه الوجوم

وكنت أوخذ احياناً وانا مستغرق فى حزنى بنظرة قلقة من ابى ، فامد له يدى أهز بها يده ، كأنى استغفره بذلك استغفاراً صامتاً من القلق الذى جررته عليه على غير عمد منى

ومر على هذا شهر فضقت عن احتمال شىء عداه

وتابعتنى ذكرى مرجريت حيثما ذهبت . لقد أحببت فبالغت . أجل أحببت هذه الفتاة حباً ليس من الهيّن أن انزع عنه سريعاً ، فالفيتُنى لا بد لى من ركوب احدى خطتين ، إما حبها واما بغضها ،

وألفيتني فوق ذلك لامناص لى من رؤيتهـا ، وأنه سريعاً يكون لابد ذلك مهما كان نوع العاطفة التي لها فى قلبي

فانبعثت هذه الرغبة فى رأسى ، وقام يتشبث بهـا فى نفسى عزمٌ أى عزمٍ ، شأنه أن يولد فى الجسم إذا طال به الجمام ، وألحّ عليه الجمود

لم يكن نفاذ هذه الرغبة حتماً فى المستقبل ، أو بعد شهر أو أسبوع ولكنَّهُ تحتم عندى أن يكون نفاذها فى غدِ اليوم الذى انبعثت فيه ، فذهبت الى والدى أعلنه بفراقه ورحيلى الى باريس لقضاء أشغال بها ، وقلت له إنى سأعود سريعاً

فعرف أنى لاشك دافعى الى الذهاب ، لأنه ألحّ فى استبقائى ، ولكنه عاد فارتأى أنه إذا منعني وأنا هائج الحال على هـذا النحو فانما يستعجل لى الفناء ، فقبّلني وارتجاني بصوت كاد يَدمَعُ أن أرجع اليـه سريعاً

لم أنم حتى وصلت الى باريس

رغبتُ فى العودة اليهـا ، وها قد عدت فماذا أصنع ؟ لم أدرِ ، ولكني دريت أن مرجريت كانت كل مقصدى

فذهبت الى دارى ، وارتديت غير لباسى ، وكانت السماء صحواً والوقت باكراً فذهبت الى الشانزيليزيه ، وبعد نصف ساعة رأيت مركبة مرجريت تأتى من بعيد

لقد عادت الى باريس فاسترجعت حصانيها ، لأن المركبة كانت هى هى مركبةَ أيام فائتة ، ولكني لم أرها داخلها

وما كاد يستقر فى نفسى أن المركبة خالية فأدير رأسى حولى حتى

وجدت مرجريت تتبع المركبة على قدميها مع امرأة ماعهدتها قط معها

ولما مرّت عليّ امتقع لونها ، وقبّضت شفتيها ابتسامةٌ مصنوعة أما أنا فأخذ قلبي يدق دقاً حثيثاً ، وكاد يحترق صدري بناره ، ولكني قويت على امتلاك وجهي فكسوته مسحة من هدوء وقلة مبـــالاة ، وأشرت إلى حبيبتي السالفة اشارة هينّة بالسـلام ، لم تلبث بعدها أن صعدت الى مركبتها مع صاحبتها وتولّت

لقد عرفتُ ما مرجريت ، فعرفت أنها لابد منزعجة للقاء باغت مني . لاجَرَم أنها علمت أني رحلت فهدّأتها رحلتي عما يكون من وراء قطيعتها اياي ، ولكني عدت اليوم من رحلتي وقابلتها وجهاً لوجه أصفرَ اللون ، ففقهتْ من ذلك أن وراء عودتي ما وراءها ، فأخذت لاشك تتساءل ما الذي يكون مني بعد هذا

لو أني عدت فوجدت مرجريت بائسة شقية فانتقمت لنفسي منها بعدّي يدي بالمعونة اليها ، لكان في ذلك لِغُلّي ارتواء ، ولنفسي اشتفاء ولم استرسل أفكر في أضرار تنالها . ولكني وجدتهـا سعيدة هنيئة ، إذا صدق الفؤاد ما رأى ، ووجدت رجلا غيري ردّ اليها نعيما لم أستطع حفظه عليها ، فتبين لي أن القطيعة التي استفتحتْ هي بها كانت من حقارة النفس بمكان ، واني امتُهنت في حبي وجُرحت في عزّتي ، فلزمها أن تَنقُدني عن آلامي آلاماً

لم استطع أن أخلي بالي مما تصنع مرجريت أو أقلل من مبالاتي بها ، ولكن تراءى لي أن قلة المبالاة هي التي تورثها أكبر الآلام ، فهي

هى التى لابد أن ألبس لَبوسها وأدّعيها وأظهر بها ، لا على عينها فحسب بل على أعين الناس جميعاً

فجاهدت أن ابسُط وجهى، وأبسم مُحيّاى، وذهبت الى برودنس فأتتنى الخادمة وذهبت تعلن لسيدتها مقدمى ، وأراحتنى سُوَيعة فى البهو

ثم جاءتنى مدام « دوفرنوا » بعـــد حين وأدخلتنى مَخدعها ، وما جلست حتى سمعت باب البهو ينفتح ، وسمعت خُطُوات خفيفة صَرَّ لها خشب الأرض ، ثم سمعت باب الشقة أغلِق بقوة . فقلتُ لبرودنس

— لعلى أزعجتك

— لا ، لم يكن عندى من أحد سوى مرجريت سمعَت أنك قادم فنجت بنفسها ، وهى التى سمعتَها تخرج

— فأنا أصبحت أريعها ؟

— لا ، وانما هى تخشى ألا يسرّك مرآها

فقلت وأنا أجهد نفسى فى دفع الهواء إلى صدرى لأتنفس ، وقد خنقنى انفعالى

— ولِمَ كل هذا ؟ إن الفتاة المسكينة قطعتنى لترد على نفسها مركبتها وأثاثها وماساتها ، فهى لم تصنع الا خيراً ، وليس فيما صنعت مأخذٌ لى عليها

وعقّبت أقول بلا عناية ولا اهتمام : على أنى قابلتها

فقالت برودنس وهى ترمقنى رَمقةَ من تسائل نفسها أحقا هذا هو الفتى الذى عهدته متيما فى غرامه :

— أين قابلتها ؟

— فى الشانزيليزيه ، وكانت تصحبها امرأة غاية فى الجمال ، فمن هذه المرأة ؟

— ما صفتها ؟

— امرأة نحيفة القوام ، ذهبية الشعر ترسله ملوى على جانبى صدرها ، ولها عينان زرقاوان . انها بديعة الجمال

— انها أولانب ، وهى بديعة الجمال حقا

— مع من تعيش ؟

— لا تعيش مع أحد ، بل تعيش مع كل أحد

— فأين تسكن ؟

— فى شارع « ترونشيه » رقم . . . أتريد منازلتها ؟

— من يدرى ما تأتى به الأيام ؟ !

— ومرجريت ؟

— كذب أن أدعى أنى نسيتها كل النسيان ، ولكنى من الرجال الذين تؤثر فيهم عند القطيعة صيغتها أكبر أثر . ان مرجريت جرت فى قطيعتى على أسلوب غاية فى البساطة تخلتنى أبله إذ أحببتها قدرما أحببت ، فانى بحق أحببتها حبا لا حب فوقه

فهل تحدس على أية حال قلت لبرودنس ما قلت ؟ قلته والعرق يتصبب من جبينى

— إنها أحبتك يا أرمان ، فهيا اليها فستحبك دائما ، وبرهان ما أقول أنها بعد التقائها بك اليوم جاءت مسرعة الىّ تشركنى فى خبر ذلك

ودخلت الىّ وهى ترتعد ارتعاداً ، وتكاد تقع من مرض وإعياء

— فما قالت لك ؟

— قالت لى : لا شك انه سيجيئك ، وارتجتنى أن أسألك الصفح عنهـــا

— لقد صفحتُ عنها فأدّى اليها خبر ذلك . انها فتاة طيبة القلب ولـكنها لا تزال فتاة ، وكل ما صنعتَ توقّعتُه . على أنى معترف لها بجميل فيما صنعت ، لأنى اليوم تبيّنت استحالة إنقاذ ما كنا أزمعناه من عيشى معها وحدها . إنه كان جنونًا

— ما أكبر سرورها اذا هى علمت أنك اقتنعت بصحة ما أتته من الامر . إنها ما فاتتك الا عند ما حان وقت فواتها اياك ، فان الـكلب الذى عرضَتْ عليه شراء أثاثها ذهب الى دائنيها يسألهم كم لهم من الدين وارتاع الدائنون واعتزموا توقيع البيع بعد يومين

— والآن هل سُدّد دينها ؟

— كاد

— فمن سدّده ؟

— الـكونت دى ن . . . أى عزيزى إنّ فى الـكون أناساً خُلقوا خصيصين بذلك . لا أطيل عليك ، لقد دفع الـكونت عشرين الف فرنك ولـكنه وصل بدفعها الى أمانيه . إنه يعلم ان مرجريت لا تحبه ، ولم يمنعه هذا من شىء ، فاشترى لها حصانيها وردّهما اليها ، وردّ كذلك جواهرها . وهو يعطيها من المال ما كان يعطيها الدوق ، واذا هى لازمت هذا الـكون معه فلن يغادرها الا بعد أجل طويل

— وماذا صنعت هي ، أقصرت سكناها على باريس ؟

— لم تشأ قط أن ترجع الى بوجيڤال منذ رحلت عنها ، وأنا الذى ذهبت بدلا منها أفض أمورها هنـاك ، وأمورك أيضا ، وتلك حقيبة من أشيائك هيأتها لك فاحملها الآن ان شئت ، وهذا كل مالك سوى محفظة عليها اسمك تعلقت مرجريت باحتفاظها عندها ، على انك ان شئتها فأنا أسألها ارجاعها

فقلت لها بصوت خافت

— فلتحتفظ بها

ولم أرد بكلمة فوق ذلك لأنى أحسست أن الدمع ينبعث من قلبي الى عينى على ذكرى القرية التى غادرناها، مهبط سعادتى ، وعلى ذكرى مرجريت وقد تشبثت باحتفاظ أثر من آثاري تذكرني به

لو أنها كانت دخلت علىّ فى تلك الساعة لذاب فى قلبى اعتزامى على الثأر منها وارتميت على أقدامها . فعقبت پرودنس تقول

— على أنى لم أرها على حال أسوأ مما أراها عليه الآن . انها تبالغ فى السهر فلا تكاد تذوق النوم ، ولا تتمشى فى دارها مرة ، ولا تغدو الا الى مرقص ، ولا تروح الا من مرقص ، وتشرب حتى يذهب الشراب بصوابها ، ومنذ قريب رقدت على أثر عشوة أياما ثمانية فى دارها ، وما سمح لها الطبيب بالقيام عن فراشها حتى استأنفت ما كان ، ولم تخش فى ذلك حتى الموت . أتذهب فتراها ؟

— ولم ؟ انى ما أتيت الا لأراك أنت ، أجل أنت لأنى ما عهدتك الا أمينة على صحبتى ، ولأنى عرفتك قبل عرفانى مرجريت واليك يرجع

الفضل فى اتصالى بها كما اليك يرجع الفضل كذلك فى انفصالى عنها ، أليس كذلك ؟

— أجل ، ولن أنكر ذلك ، لقد أفرغت وسعى عندها لتفوتك وانى على يقين من أنك فى مستقبل الأيام لن تأخذ علىّ ما تأخذه اليوم .

فقلت لها وأنا أقوم

— لا ، إنى أعرف لك الجميلين على السواء ، لأن هذه الفتاة البلهاء نَبَتْ عن ذوقى أخيراً لما وجدتها تصدق كل ما كنت أقوله لها

— أمنصرفٌ أنت ؟

— نعم ، وذلك لانى فرغت من علم ما أردت علمه فقالت

— فمتى نراك

— قريباً ، فالى الملتقى .

— الى الملتقى

— وصحبتنى برودنس إلى الباب ، وذهبت إلى دارى ، وفى عينىّ دمعة الغضب ، وفى قلبى حمّى الانتقام

فعلى ما رأيت وسمعت أصبحت مرجريت بيقين فتاة كغيرها من الفتيات أمثالها ، وعلى هذا لم يقف حبها الشديد الذى كانت تجده لى فى سبيل هوى لها فى الرجوع الى سابق حياتها واسترجاع مركبتها والاسراف فى النهم

هذا ما خطر لى وأنا مشدوخ الرأس من الأرق المتواصل ، ولو أنى استجمعت وفكرت فى هدوء بال كالذى ادّعيته ، لرأيت من بين ألسنة

اللهب التي رمت مرجريت بجسمها فيه أنها إنما دفعت بنفسها فيما دفعت أملا في تخدير ضمير قوّام على إيلامها ، و تناسياً لذكريات مرّة لا تفتأ عالقة برأسها

ولكن وأسفاه ، تسلط الشر عليّ فلم أفتش إلا عن وسيلة أُولم بها هذه المخلوقة المسكينة

أواه ! ما أصغر المرء وأدناه ! بل ما أضيق عقله إذا جُرحت عاطفة من عواطفه .

كانت أولانب هذه التي رأيتها مع مرجريت صديقة لها ، وإلا فلا أقل من أن تكون المرأة التي ترددت عليها كثيراً منذ عودتها إلى باريس . وكانت أولانب أزمعت اقامة حفلة للرقص ، وخلت أن مرجريت لا محالة تحضرها فسعيت لتنالني الدعوة فنجحت

ووصلت الى الحفلة تملؤني الآلام ، وكان الرقص قد حمي وطيسه ، والسرور ملأ الفضاء ضجيجه ، فلمحت مرجريت ترقص مع الكونت دي ن . . . ضمن فرقة راقصة من أزواج أربعة في أركان أربعة ، وكان الكونت يباهي بالتي كان يخاصرها كأنه يقول للناس هذه المرأة لي وحدي

فذهبت الى المُصطلَى أستند بظهري اليه في وجه مرجريت ، ونظرت لها وهي ترقص ، فلم تأخذني عينها حتى اضطربتْ ، فأشرت لها بالسلام بيدي وعيني إشارة المشغول عنها غير الآبه بها

وأخذت أفكر، فذكرت أن هذه الفتاة لن تكون لي بعد ارفضاض المحفل وأنها ستكون لهذا الأبله الغبي ، وذكرت ما لحدث

بعد ذهابه بها إلى بيتها ، فانبعث الدم غزيراً الى وجهى واندفعت أريد تمكير صفوهما

و بعد رقصة ريفية ذهبت أختى ربة الدار ، وقد كشفت على أعين الناس كتفين غضتين غاية فى الجمال ونحراً ناصعاً باهراً

كانت هذه الفتاة جميلة ، وإذا اعتبرنا مقطع الجسم فهى أجمل من مرجريت ، وزادنى عرفان ذلك نظرات ألقتها مرجريت إلى هذه الفتاة وأنا أحادثها . وكان الرجل الذى ينال وصل أولانب يستطيع أن يكون تياهاً تيه الكونت ، فقد كانت من الجمال بحيث تبعث فى النفس ما بعثته مرجريت فى نفسى

ولم يكن لها فى هذا الوقت حبيب فكان من السهل أن أكونه وما ذلك إلا أن أبذل من الذهب ما يلفتها إلى . فصممت على أن تكون هذه المرأة خليلتى . فطلبت الرقص معها فقمت بذلك بالمشهد الأول من الدور الذى اعتزمت تمثيله

و بعد نصف ساعة علت مرجريت صفرة الموت ، فتناولت كركها وغادرت الدار

الفصل الرابع والعشرون

لقد كان فيما نالها من الأذى الى هذا الحين شفاء لغليل نفسى ، إلا أنى لم أجد فيه الكفاية . علمتُ أيّ سلطان لى على تلك المرأة فأسأت استخدامه بنذالة وجبن

أنى كلما ذكرت الآن أنها أصبحت رهينة التراب ساءلت نفسى أيغفر الله لى ما أتيت اليها من ضروب الاساءة

ولما انفضّ طعام العشاء ، وكان من أكثر الأطعمة جلبة ، قام القوم إلى رقعة الميسر ، فجلست منها الى جوار أولانب ، وقامرت عالى بجسارة لقنتها الىّ ، وما هى الا برهة قصيرة حتى كسبت خمسين ومائة جنيه نشرتُها أمامى فرمقتها بشراهة وطماعة

وكنت من بين الحاضرين الوحيدَ الذى لم يذهب اللعب بكل باله ، فاشتغلتُ بها ، وأخذتُ أكسب طول الليل ، وأقرضتها مالا تقامر به لما خسرتْ كل ما كان أمامها ، ولعله كان كل ما تملك من مال

وفى الساعة الخامسة صباحاً أخذ الجمع يرفضّ . وكنت ربحت ثلاثمائة جنيه

ونزل الجميع من الدار ، وتخلّفت وحدى فلم يشعر أحد بتخلّفى ، لأنه لم يكن لى فيهم صديق يصطحبنى

وكانت أولانب تنير السلّم بنفسها ، فرأيت أن أنزل خلف

النازلين ، ولما بلغتها على السلّم وفتّها رجعتُ اليها فقلت لها

— لى معك حديث . فقالت

— غداً

— لا بل الآن

— وماذا عندك

— ستعلمين

— ودخلت دارها مرة أخرى ، ولما رجعتُ قلت لها

— لقد خسرتِ

— نعم

— كلّ ما لديك . فترددتْ

— صارحينى

— اذن فنعم

— لقد كسبت أنا ثلثمائة جنيه هى لك جميعها اذا رضيتِ أن أبيت عندك الليلة . وقذفتُ بالمال ذهباً على المنضدة

— ولم هذا الطلب ؟

— لأنى أحبك ، يا لله ؟

— لا بل لأنك تحب مرجريت ، وأنك تريد أن تثأر لنفسك منها بوصالى . ليس مثلى من ينخدع بهذا يا صديقى العزيز . إنى أرفض سؤالك أنفة ، لأنى لا أزال من الشباب والجمال بمنزلة رفيعة لا أرضى أن أنزل عنها لألعب دوراً خسيساً كالذى تعرضه علىّ

— إذن أنت ترفضين

— نعم

— أتفضلين أن تحبيني بلا ثمن ؟ انى عندئذ أكون أنا الرافض .
فكرى يا عزيزتى أولانب ، واذكرى أنه كان فى استطاعتى أن أبعث
اليك انسانا ما يعرض عليك هذه الثلاثمائة على شروط أمليها أنا عليك ،
واذكرى أنك عندئذ كنت لا شك ترضين ، واذكرى فوق ذلك أنى
أحببت أن أسلك أخصر الطرق فأفاوضك فنا لفن ، فاقبلى ما أقترحه
عليك ولا تبحثى عما دعانى اليه ، وقولى لنفسك إنك جميلة ، وانه لا
عجب أن يحبك مثلى

كانت مرجريت سرية كأولانب ، ومع هذا لم أجسر أبداً أن
أقول لها فى المرة الأولى التى رأيتها فيها مثل الذى قلته لهذه ، ذلك لانى
أحببت مرجريت ، وأنى تكهنت فيها غرائز أعوزت هذه المرأة التى
مججتها على الرغم من جمالها البارع حتى فى الساعة التى كادت تتم فيها
المفاوضة بيننا بالرضاء

وانتهى الأمر بالطبع الى أنها أجابتنى الى ما سألت ، وفى الظهيرة
خرجت من عندها عشيقاً لها ، وخلفت فراشها ورائى دون أن تحمل
نفسى ذكرى من ملاطفاتها وكلمات للحب اعتقدت ضرورة الاسراف
فى بذلها لى عوضاً عن الستة الآلاف من الفرنكات التى بذلتها لها

تلك هى المرأة التى أفلس كثيرون من أجلها !

ومن هذا اليوم أخذت أؤلم مرجريت ايلاماً كبيراً فى كل آونة ،
وانقطع ما بينها وبين أولانب ، وليس فهم السبب عليك بعسير .
ووهبت خليلتى الجديدة مركبة وحليا ، وقامرت ، وأتيت من السخافات

ما هو خليق بخليل امرأة كأولانب ، وشاعت شائعة عشق الجديد سريعاً

واتخدعت برودنس نفسها فاعتقدت أنى نسيت مرجريت كل النسيان ، أما مرجريت فكانت تستقبل إيلامى الدائم بشهامة عالية وعزة نفس رفيعة ، ولا أدرى أكانت انخدعت كما انخدع غيرها فى تفسير حالى ، أم خمنت سرّاً ما حدا بى الى إتيانى ما أتيته لها ، وانما عرفت من مرآها حينما قابلتها أنها تكابد أوجاعاً ، فان لونها كان آخذاً فى الشحوب ، ومظهرها فى الحزن يوماً يوماً . لقــد بالغ قلبى فى حبها ، ونمت عاطفة الغرام فيه نموّ جهالة وغَشَم حتى اختلط عليه الأمر فحسبها بغضاً ، فأخذ يطرب كل يوم لمرأى هذا الألم الدائم والعذاب المستمر . وحدث مرات وأنا أعالج هــذه القساوات المزرية والفجائع الفاضحة أنْ رفعت الىّ مرجريت جفنيها بنظرات مستعطفة راجيــة لم يسعنى معهــا الا الخجل ، فكنت على وشك أن أسألها الصفح عما أتيت ، وأعاهدها على التوبة عما جنيت

إلا أنها توبة لم تكن تمكث فى خاطرى الا كما يمكث البرق فى السحاب . وكانت أولانب فقدت من نفسها كل عزة وكرامة ، واعتقدت أنها اذا أساءت مرجريت نالت منى كل ما تطمع فيه ، فأخذت تثيرنى عليها ، وتقذفها بالمسبّات والمهـانات ما وجدت الى ذلك سبيلا ، وثابرت على هذه النذالة مثابرة امرأة فاجرة أغراها رجل

وأزمعت مرجريت أن تجتنب المراقص والمسارح خشية أنْ تلقانا هناك أنا وأولانب ، فلما انقطعَتْ عنها أرسلنا اليها مكاتيب متتالية غير ممضاة تحمل لها منّا وقاحات شتى ، وسفاهات عدّة ، ولم أغادر شيئاً من

ضروب الفضائح لم أعهد به الى خليلتى أو الى نفسى تقصه عن مرجريت فى الناس

لا بد انى كنت جننت حتى بلغت هذا الحد . لقد كنت كمن دارت برأسه خمر رديئـــة غشت على عقله فانطلقت يده تجرم بلا وازع من نفسه . وفى وسط هذه الأعمال كلها لم يفارقنى عذابى الأليم، وزاد هياجى على مرجريت ردها على وثباتى جميعاً بسكون لا يشوبه ازدراء ، وعظمة لا يخامرها احتقار، وتبينى من ذلك أنها أعلى منى محلا ، وأرفع كعباً ، وأسمى مكانة

وفى ذات ليلة ذهبت أولانب لا أدرى أين ، فالتقت بمرجريت . فلم تشأ مرجريت فى تلك المرة أن تتكرم بالصفح عن سباب أولانب الحمقاء اياها ، فكالت لها حتى اضطرتها الى مغادرة المكان هائجة ساخطة وسقطت هى مغشياً عليها فحملت الى دارها

ورجعت أولانب الىَّ تقص لى ما جرى ، وقالت ان مرجريت انتهزت وحدتها فأرادت أن تثأر منها لمخاللتهـا اياى ؛ وانه يجب علىَّ أن أكتب لها أن تحترم المرأة التى أحبها فى حضرتى وغيابى على السواء

لاحاجة بى أن أذكر لك انى أجبتها الى الكتابة ، وانى ضمنت الرسالة التى بعثتها باسم مرجريت فى نفس اليوم كلَّ ما مر فى خاطرى عندئذ من هجر فاضح ، ومقالة قاسية مريرة

فكانت الطعنة هذه المرة أوجع من أن تتقبلها المسكينة بسكوت وترقبت رداً يجىء منها فلم أخرج من دارى طول النهار . وحوالى الساعة الثانية دق الباب ، فدخلت برودنس ، فحاولت أن أظهر بقلة الاكتراث

وأسألها ماالذى استوجب زيارتها اياى . ولـكن كانت مدام دوفرنوا هذه المرة غير ضاحكة ، فقالت لى برنة جدّية متأثرة انى منذ عودتى الى باريس أى من ثلاثة أسابيع لم أدع فرصة لايلام مرجريت تمر إلا انتهزتها ، وان ذلك أمرضها ، وان المشهد الذى وقع لهـــا بالامس ، وكتاب الصباح الذى أرسلته اليها ، زاد كلاهما علتها فألزمها الفراش

واختصاراً بعثت الىّ مرجريت تسألنى الصفح والمرحمة دون أن تعتِب علىّ أمراً ، وتذكر أنها لم يعد بها من مرّة نفس أو قوّة جسم ما تحتمل به صنوف النقمة منى . فقلت لبرودنس

— ان صرف مرجريت اياى من بيتها حق من حقوقها لاينازعها فيه أحد ؛ ولـكن سبّها امرأة أحبها بدعوى أنها خليلتى أمر لا أُغمض عينى عنه أبداً . فأجابتنى برودنس

— يا عزيزى ، أرى امرأةً لا نفس لها ، ولا قلب عنـدها ، قد سيطرت عليك وتسلطت على فؤادك . حقاً إنك تحبها ، ولـكن ليس فى حب امرأة ما يبرر تعذيب امرأة غيرها لا تستطيع أن تدفع عن نفسهـــا

— اذن فلتُرسلْ الىّ الآنسة جوتيه كونتها الـكونت دى ن . . . .

فيتكافأ الخصمان

— انك تعلم حق العلم أنهـا لن ترضى ذلك ، فدعها بالله هادئة ياعزيزى ارمان . انك لو رأيتها لخجلت مما تصنع . انها شاحبة اللون ، انها لاتفتأ تَسْعَل ، انها أصبحت لاتعمّر طويلا ومدت برودنس يدها الىّ وعقّبت تقول

— إيت وانظرها فان زيارتك اياها تسعدها

— لا أودّ أن ألتقى بالسيد دى ن . . .

— ان السيد دى ن . . لايأتى اليها الآن أبداً ، فقد أصبحت لاتُطيق احتماله

— إن كانت مرجريت تتشبث بأن ترانى ، فهى تعلم أين مكانى فلتأتِ الىّ ، أما أنا فلن أطأ بقدمى شارع أنتين

— وإنْ فعلَتْ أتحسن استقبالها

— كل الاحسان

— اذن فهى لابد آتيه

— فلتأت

— أتخرج اليوم؟

— سألزم دارى طول المساء

— سأبلغها ذلك

وخرجت برودنس

ولم أكتب لأولانب بأنى لن آتيها اليوم ، فانى لم أكن أعبأ بالتزام المراسم مع هذه الفتاة . وكان يندر أن أقضى معها فى الاسبوع ليلة واحدة ، ولعلها كانت تستعيض عنى فى ذلك بممثل لا أدرى فى أى مسرح يلعب من مسارح البُلفار

وخرجت لتناول العشاء فى أحد المطاعم ، وعدت سريعاً ، وأمرت بايقاد النار للدفء فى كل مكان ، ثم أعفيت يوسف من عمله وصرفته بأجازة

لا أستطيع أن أصف لك احساسات شتيتة تناوبتنى فهدّتنى مدة

ساعة قضيتها فى الانتظار . وفى زُهاء الساعة التاسعة سمعت طارقاً يطرق فزادت هذه الاحساسات بى فبلغت منى أقصى مبلغ ، حتى انى ذهبت أفتح البـاب فاستندت مضطراً الى الحائط خشـية السقوط . ولحسن طالعى كان الضياء لدى البـاب ضئيلا فلم تستبِنْ العين بوضوح ما تغير من سحنتى .

دخلت مرجريت . وكانت من لباسها فى سواد شامل ، قد غطت وجهها بنقاب أسود ما كدت أرى وجهها من دونه إلا بعناء

وخطت إلى البهو ، ثم أسفرت عن محيا شاحب أبيض كالرخام لا أثر لحمرة الدم فيه وقالت

— أنا ذى يا أرمان ، لقد أردتَ أن ترانى فأتيت

وأسقطت رأسها فى كفّيها تبكى بكاء مراً

فاقتربت منها فقلت لها بصوت متغيّر

— ما بك ؟

فهزت يدى دون أن تجيبنى ، فالدمع كان لا يزال يحبس صوتهـا . وبعد برهة هدأت قليلا ، فقالت لى

— لشدّ ما أسأت الىّ يا أرمان ولم أسئك فى شىء

فأجبتها بابتسامة مُرّة

— فى شىء ما ؟

— فى شىء سوى ما دفعتنى الضرورة اليه

لا أدرى إن كان صادفكَ فى ماضى حياتك أو سيصادفك فى مستقبل أيامك أبداً أن تقاسى مثل الذى قاسيت من مرأى مرجريت

لقد جلست هذه المرة فى نفس الموضع الذى كانت جلست فيه فى المرة الأخيرة من زيارتها الماضية اياى . ألا شتان ما بين الجلستين ، فانها من ذلك الحين أصبحت خليلة غيرى ، وانطبعت على فمها قُبلاتٌ غير قبلاتى ، إلا أنه بالرغم من ذلك كله أحسست أن شفتىّ تمتدان إلى شفتيها بالقُبل كَرهاً منى ، وأنى أحبها قدرَ ما كنت أحببتها أو فوق ذلك قدراً

ومع هذا شق علىّ أن أفاتحها الحديث فى الأمر الذى جاء بها فعرفتْ منى ذلك فبدأتنى تقول

— أتيت أُثقل عليك يا أرمان فى شيئين أسألك اياهما ، أولهما الصفح عما قلت بالأمس للآنسة أولانب ، وثانيهما اعفائى مما ربما كنتَ على وشك أن تأتيه من الأسواء لى . إنك منذ عدت إلى باريس قصدتنى بالأذى الكثير مختاراً أو غير مختار ، حتى أصبحت الآن لا قِبَلَ لى باحتمال ما احتملتُ من الانفعالات الشديدة والهموم المبيدة إلى صباح هذا اليوم . ان لى أملا كبيراً فى رحمتك ، وفى أنك ستدرك وشيكا أن الرجل ذا القلب الحى له من الآمال الشريفة والأعمال النبيلة ما يشغله عن الثأر من فتاة مريضة حزينة مثلى . اليك يدى تجد الحمّى تحرقنى . لقد قمت عن فراشى لآتى اليك فأسألك لا ودّك بل حيادك وانصرافك عنى

فتناولت يدمرجريت فوجدتها مُحرقة ، ووجدت المسكينة ترتعد تحت ردائها الثقيل من القطيفة

فجررت الكرسي الذي كانت جالسة عليه تجاه النار ثم استأنفتُ الكلام لها

— أتعتقدين إذن أني لم أقاس ما قاسيتُ من عذاب ليلة انتظرتكِ في الريف فلم تأتي ، فذهبت أتفقدك في باريس فلم أعثر إلا على ذلك الكتاب الذي كاد يطير بعقلي ؟ كيف سوّلت لك نفسك يا مرجريت أن تخونيني أنا الذي أحببتك كثيراً ؟

— دعنا من هذا يا أرمان فما أتيت للخوض فيـــه ، وإنما أردت رجاءك ألا تقف لي موقف العدو الناقم ، ورغبت أن أحظى بمصافحتك مرة أخيرة . إن لك شابة ظريفة تحبها على ما يقولون فاسعد بها وانسني

— وأنت ؟ أراك لا شك سعيدة بعد ذلك

— أفي وجه السعيدة يا أرمان ؟ بالله لا تسخر من أوجاعي وأنت تعلم خيراً من كل أحد ما علتها وما مبلغها مني

— عليكِ وحدكِ تقع تبِعةُ ذلك إن كنت حقاً غير سعيدة كما تقولين

— لا لا يا صديقي فالضرورة كانت أقوى من إرادتي ، ولقد خضعت لا إلى ما بطبيعتي من غرائز السراري وأهوائهن كما تلمح الى ذلك ، بل خضعت الى ضرورة جدية وعلة ستعلمها يوماً فتصفح بها عني

— فلِمَ لا تذكرين لي هذه العلة اليوم ؟

— لأن ذكرها لن يجدي بيننا قرباً أصبح مستحيلا ، ولأنه ربما كان في هذا الذكر إبعاد لك عن قوم يجب ألا تبتعد عنهم

— ومن هؤلاء القوم ؟

— لا أستطيع لهم ذكراً

— إذاً أنت تكذبين

فنهضت مرجريت واتجهت نحو الباب . فلم أستطع أن أشهد هذا الألم الصامت الناطق دون أن اهتز له ، لا سيما حين قارنت فى أعماق نفسى بين هذه الفتاة الشاحبة الباكية ، وبين تلك الفتاة الرعناء التى سخرت منى أول مرة لقيتنى فى الاوپرا كوميك . فعارضتها فى طريقها لدى الباب وقلت لها

— لن تخرجى

— لم ؟

— لأنى لا أزال أحبك على الرغم من صنيعك لى ، ولأنى أريد أن أستبقيك عندى

— لتطردنى فى الغد ، أليس كذلك ؟ لا هـذا محال . قد فرّق قضاء الله سبيلينا فى الحياة فلا حيلة لاجتماعهما . انى إن بقيت على ماتزعم فرعا وجدتَ السبيل إلى احتقارى ، أما الآن فلا تستطيع السبيل إلا الى بغضى

فصرخت وقد انبعث فى قلبى كل الهوى واستيقظ غرامى بلمسى جسمها

— لا يا مرجريت ، لا ، سأنسى كل شىء ، وسنعود سعيدين كما منّينا نفسينا قديماً

فهزّت مرجريت رأسها تشكّكاً ، ثم قالت : انى جاريتك فافعل بى ما أنت فاعله ، خذنى فأنا لك

وقامت فنزعت عنها رداءها ، وخلعت قبعتها ، وقذفت بها على الكنبة ، ثم أخذت تحل أزرار ملابسها عن صدرها سريعاً لأن نوبة من نوبات دائها المعروفة انتابتها فأصعدت دماً من قلبها إلى رأسها فاختنقت به وتلا ذلك سعلة خشنة جافة ، فقالت لى

— قل لهم يصرفوا مركبتى . فنزلت بنفسى أصرفها

ولما عدت وجدت مرجريت منطرحة أمام النار تصطك أسنانها من البرد الذى تجد ، فأخذتها بين ذراعى ونزعت ملابسها عنها ثم حملتها مثلوجة إلى فراشى دون أن تبدى حراكاً

ثم جلست بجانبها وحاولت إدفائها بامرار كفىّ عليها بلطف فلم تنبس لى بكلمة ، وانما كانت تبسم لى

يا لها من ليلة غريبة فى الليالى ! لشدّ ما انبعث روح مرجريت كلها فى قبلها التى عمتنى بها ، ولشد ما أحببتها حتى لحدثت نفسى وأنا بين هائجات غرامها الحار أن أقتلها حتى لا تكون لأحد غيرى

ان شهراً فى حب جثمانىّ وقلبىّ كهذا الحب لا يغادر المرء إلا جثة هامدة لا حراك بها

وأشرق الصباح ولم تغمض لنا عين . وأصبحت مرجريت مكفهرّة اللون ، عليها مسحة كمسحة الأموات ، ولم تنطق بكلمة ، وانحدرت من عينها من آن لآن دمعات كبيرة وقفت على خديها تضىء ضياء ماسات متلألئة . وتراءى ذراعاها نحيلين ضعيفين ، فكلما رفعتهما لتضمّنى اليها سقطتا فى استرخاء الى جانبها

ومرّت سويعة حسبت فيها أنى استطيع أن أنسى ماجرى لى منذ رحلتى عن بوجيڤال فقلت لمرجريت

— أترين أن نرحل سوياً ونغادر باريس

فأجابتنى بفزع

— لا لا ، فلن يكون من هذا الا الشقاء الوبيل . انى لا أصلح بعد لسعادتك ، ولكنى سأكون طوع أمرك وعند مشيئة أهوائك ما جالت فى صدرى للحياة أنفاس . فاذا جاءك هواى فى ساعة من ساعات النهار أوساعة من الليل ، فاقدم الىّ فأكون لك ، ولكن لاتصل مستقبل أيامك بمستقبل أيامى فتشقى نفسك وتشقينى غاية الشقاء . انه لايزال لى بقية من جمال ستتخلف بعض حين ، فأمتع نفسك بهاماشئت ولا تسألنى وراء ذلك وراء .

وانصرفت مرجريت من عندى تاركة اياى من بيتى فى قفرموحش ومضت ساعتان بعد انصرافها وأنا لا أزال جالساً على السرير الذى غادرته أرعى أثر رأسها بيّناً من وسادته ، وأسائل نفسى ماذا خبأ الغيب لى من عراك دموىّ لابد واقع بين غيرتى وحبى

وفى الساعة الخامسة ذهبت الى شارع أنتين دون أن أعىَ ماذا أصنع هنالك ، فكانت نانين هى التى فتحت لى الباب ، فقالت لى مضطربة متحرجة

— ان سيدتى لاتستطيع استقبالك

— ولم ؟

لأن الكونت دى ن . . . هنا . وقد أفهمنى ألا أدخل أحداً

فقلت لها متمتما : هذا حق ، لقد نسيت

ورجعت الى داري أترنح كالسكران ، فهل تحزر ما صنعت في سكرتي وغيرتي

لقد قلت لنفسي ان هذه المرأة تسخر مني ، وتمثلتها في خلوتها التي لا تخترق حرمتها مع الكونت تردد على مسمعه ما رددته على مسمعي في الليلة الفائتة ، ثم تناولت ورقة بخمسمائة فرنك وبعثتها اليها مع الكلمة الآتية :

« لقد انصرفت سريعاً هذا الصباح من عندي فلم أتمكن من دفع أجرك اليك فهذا أجرك عن الليلة الماضية »

ولما ذهب الرسول بالكتاب والمال خرجت من داري وكأني خرجت لأروح عن نفسي أسفاً موقوتاً تولاها لهذه الفعلة الشائنة

وبلغت دار أولانب فوجدتها تختبر ثياباً جديدة ، ثم خلا بنا المكان فأخذت تغني لي من الفحش والخنا ما خالت أنه يذهب بما أجد

كانت هذه الفتاة مثلا صادقا للبغي بلا حياء ولا قلب ولا روح ، فيما رأيت أنا على الأقل ، فانها ربما كانت مثار أحلام لغيري كالتي أثارتها مرجريت عندي

وسألتني مالاً فأعطيتها ، وإذ أصبحتُ بعد هذا العطاء حراً في الانصراف عدت إلى داري . فلم أجد مرجريت أجابتني عن كتابي شيئاً .

لاحاجة بي الى وصف القلق الشديد والانزعاج الفادح اللذين توليّاني طول نهار الغد

وفى الساعة السادسة حمل الىّ رسول ظرفاً به كتابى والخمسمائة فرنك وليس به عدا هذين من كلمة واحدة ، فقلت للرسول

— من أعطاك هذا ؟

— سيدة رحلت مع وصيفتها فى بريد بولون ، وأوصتنى ألا أحمل لك هذا الظرف حتى تكون قد استقلّت بها عربة البريد[١] . فجريت الى دار مرجريت ، فقال لى البواب

— إن السيدة سافرت اليوم فى الساعة الثالثة قاصدة انجلترا

فلم يعد يحبسنى بعد ذلك فى باريس حب أو بغض ، وكانت قواى خارت بالمزعجات المتتاليات ، وكان صديق لى ذاهباً الى الشرق يَرُود نواحيه ، فذهبت أخبر والدى برغبتى فى صحبته ، فزوّدنى أبى بمال ووصايا الى معارفه ، وبعد ثمانية أيام أو عشرة أقلعت بنا السفينة من مرسيليا إلى الشرق

وفى الاسكندرية علمت من رجل من رجال السفارة الفرنسية كنت قابلته لدى مرجريت خبر مرض البائسة التعسة

فكتبت لها كتاباً كان رده الجواب الذى قرأتَ ، تسلمته فى فى طولون

فحضرت توّاً ، وما بقى من الخبر فأنت تعلمه

والآن لم يبق إلا أن تقرأ هذه الصحائف التى دفعتها الىّ جوليت دوبرا والتى لابد منها لتمام القصة التى رويت لك

---

(١) كان السفر فى تلك الأيام بعربات تحمل البريد أيضاً

الفصل الخامس والعشرون

جهد أرمان من طول قصته التي قطع عليه روايتها دموع له غزيرة كانت تأتيه أثناءها . وبعد أن فرغ منها أعطاني الصحائف التي خطتها يد مرجريت ، ثم وضع يديه على جبينه لينعم في الفكر أو يأخذ في النوم .

وبعد مدة يسيرة عرفت من زيادة أنفاسه أنه نام ولكن نوماً خفيفاً يطير به أيسر صوت

وأخذت أقرأ الصحائف ، وتلك هي برمتها لا أضيف اليها حرفاً ولا أحذف منها حرفاً :

اليوم الخامس عشر من ديسمبر

بدأتُ أتوجع منذ ثلاثة أيام أو أربعة ، ولزمت فراشي منذ هذا الصباح . أرى الجوّ أدكن كئيباً ، والوقت أغبر عصيباً ، وأراني أجد الحزن في قلبي ، ولا أحد الى جانبي ، وقد اتجه فكري صوبك يا أرمان ، فأين أنت يا عزيزي ساعة اخط هذه الأسطر ؟ يقولون لي إنك بعيد عن باريس مُمعن في النأي عنها ، ولعلك نسيت مرجريت . على كل حال لك الهناءة بما انت فيه من سعادة ، يا من اليك يرجع الفضل في سويعات سروري الوحيدة في الحياة

لم أستطع أن أغالب رغبتي في أن أفضي لك سر ما كان لي معك

من معاملة غريبة ومسالك عجيبة ، فكتبت اليك بذلك كتابا . ولكن كتاباً تكتبه فتاة مثلى ، لاوجه لتحقيقه ، ولا سبيل الى تصديقه ، إلا إذا جاءها الموت الهائل ، والقدر الغائل ، فنفض فوق أسطره من قداسته ، وخلع عليه من جلالته ، فصبّحه اعترافا مقدوراً ، لا كتاباً مسطوراً

انى مريضة ، ولعلى أقضى بهذا الداء ، فطالما أنبأنى منبىء من وراء الغيب انى سأموت فى ريعان الشباب وجِدَّة الاهاب . ولا غرابة فأمى ماتت بذات صدرها ، واسلوب الحياة التى جريت عليه إلى الآن لم يكن منه إلا نماء العلة فى صدرى ، تلك الارث الوحيد الذى خلفته لى أمى . واليوم لا أريد أن أموت دون أن اطلعك على حقيقة الأمر بينى وبينك فمن يدرى لعلك إذا عدت من سفرك ألفيت نفسك لاتزال قلقة مشتغلة بالفتاة التى شد ما أحببتها قبل رحيلك

فدونك ماتضمنه الكتاب الذى كنت كتبته اليك ، وانى لسعيدة بانشائه مرة أخرى ، لأنى فى استرجاعى معانيه أحس طمأنينة بال وإخراساً لألسنة ضمير يلذعنى بصنوف التأنيب

تذكر يا أرمان ما كان لقدوم والدك من الدهشة لدينا ونحن فى بوجيفال ، وتذكر الرعب الذى تولانى كرها من قدومه ، والمشهد الذى جرى بينك وبينه فحكيته لى فى المساء

فنى غد ذلك المساء لما كنت فى باريس تنتظر والدك فى دارك فلم يجىء ، جاءنى رجل ودفع الى كتاباً من السيد دوفال

فنى هذا الكتاب الذى أرفقه بهذه الصحائف رجانى والدك أن

أحتال أية حيلة أبعدك بها عني في الغد لاستقباله في كلام يريد أن يقوله لي ، ورجاني أكبر الرجاء أن لا أذكر لك من الأمر شيئاً

وتعلم بعد ذلك بأي الحاح نصحت لك لدى عودتك الى بوجيفال أن تعود من جديد الى باريس في الغد

وما برحتَ قاصداً باريس حتى مثَل أبوك أمامي بعد ساعة . حماك الله من الأثر الذي وجدت في قلبي من رؤية وجهه القاسي . فألفيت أباك مفعَماً مبادئ تقضي بأن الخطيئة كائن من الكائنات لا قلب له ولا عقل ، وأنها ماكينة عملها التقام الذهب ، وانها كماكينات الحديد متهيأة دائماً لتهرس اليد التي تمتد اليها بشيء لها ، وتمزّق الكف التي تحركها وتحييها بلا رحمة ولا تمييز

كتب اليّ والدك بادئ بدء كتاباً غاية في اللطف لأرضى باستقباله في بيتي ، فلما رضيت فاستقبلته لم أجد من هذا اللطف شيئاً ، وظهر عليّ بالعظمة والكبرياء ، وتوقّح وهدّدني في مقالته الأولى حتى اضطرني الى أن أذكّره بأني في داري ، وأنْ ليس ما يدفعني الى تقديم حساب له عن حياتي سوى ما بيني وبين ابنه من الحب الصادق

فهدأ السيد دوفال قليلاً على أثر ذلك ، إلا أنه أخذ يقول لي إنه لا يحتمل فوق ما احتمل أن يرى ابنه يفلس من جرّائي ، واني مهما كنت من الجمال فليس لي أن أتخذ من فتنة الحسن سبباً الى إضاعة مستقبل شاب بالزامه نفقات فادحة كالتي ألزمتها اياه

فلم يكن لي عندئذ غيرُ جواب واحد ، ذلك أن أثبت له بالشواهد أني منذ كنت صديقتك لم أقتصد في تضحية أضحي بها لأظل أمينة لك

فلا أفدحك بنفقة لا تطيقها ، فأريته وثائق مارهنت من المتاع فى دار « مونت دى بيتييه » ورجعات من أناس بعت لهم ما لم أستطع رهنه ، وأطلعت والدك على ماعزمت عليه من بيع أثاثى لسداد ديونى والعيش معك دون كبير كلفة تثقل عليك ، ورسمت له صورا خالبة من سعادتنا وكشفت له عما أوحى به حبك الىّ من الرغبة فى عيشة أهدأ من عيشتى الأولى وأكثر هناءة وسلاما . فانتهى الى الاذعان ومدّ الىّ يده سائلا اياى صفحا عن اسلوب مهين جرى عليه فى أول لقائى . ثم قال لى

— لا تعنيفَ الساعةَ ولا تهديدَ ياسيدتى ، انما بالرجاء أسألك ضحية أكبر من ضحياتك التى سلفت لولدى

فارتعدت لهذه الفاتحة الذى استهل بها خطابه

واقترب منى وأخذ يدىّ جميعا ، وانطلق يتكلم برقة حبيبة وصوت ودود

— بنيّتى ، لا تسيئى فهم ما أنا قائله لك ، واعلمى أن للحياة فى بعض الأوقات قساوات على القلب لامفرّ منها ولا بد من التسليم بها . انك طيبة برّة ، ولك مروءة وكرم ليسا لكثيرات غيرك ممن قد يحتقرنك ولا يساوينك فى القدر عند صادق الحساب . ولكن اذكرى أنه الى جانب الخليلة توجد الأسرة ، والى جانب الحب واجبات ، وأن عصر الأهواء الحادة والنزعات الشابة يليه عصر الرجولة وطور الكهولة ، حين لا احترام للرجل إلا بمركز جدّىّ فى الحياة يرتكز فيه بثبات ، ومنصب مهيب يتربع فيه برزانة ووقار . إن ولدى لامال له ، ومع هذا

أراه على أهبة النزول لك عن ارثه من أمه . انه اذا قبل منك التضحية التى أنت على وشك انفاذها له أوجب عليه شرفه ومروءته أن ينزل لك عن هذا الارث ليدرأ عنك فاقة مُدقعة لامناص لك منها . ألاَ إنه لا يستطيع أن يقبل منك هذه التضحية لأن الدنيا التى لاتعرف حقيقتك ستعزو هذا القبول الى سبب شائن يجب ألا يتلوث به اسمنا أبداً . سوف لا يعتبر الناس أن أرمان يحبك ، أو أنك تحبينه ، أو أن هذا الحب المتبادَل بينكما هنــاءة له وهدًى لك من ضلالة . وانما سوف يعتبرون أمراً واحداً لا شفَعَ له ، ذلك أن أرمان دوفال رضى أن تبيع سُرِّيّة — عفواً يا بنيتى عن كل ما تدفعنى الضرورة الى قوله — أن تبيع سرّية من أجله كل ما ملكت يداها . ثم يحيقكما بعد ذلك لامشاحة يوم الأسف والندم ، فتجدان نفسيكما مثقلين بأغلال لاتستطيعان صدعها . فماذا تصنعان يومئذ ؟ لا شيء . سيكون شبابك قد ولّى ، ويكون مستقبل ابنى قد فسد ، وأكون أنا الأب العاجز قد فقدت فى شيخوختى نصف ما أرجوه من ولدىّ عوضاً عن شبيبتى الذاهبة

انك صبية وجميلة وستزهو لك الحيــاة . وأنت كذلك نبيلة . وستجدين فى ذكرى عمل طيب من الغبطة ما يخلف عليك ما يفوتك من أشياء سلفت . إن أرمان منذ عرفك من ستة أشهر قد نسينى . وكتبت اليه أربع مرات فما ارتأى أن يجيبنى عن واحدة منها . وقد كان من المحتمل أن أموت ولا يعلم من خبر موتى شيئاً

إنك مهما اعتزمت حيــاة غير حياتك الاولى ، فلا أراني إخال أرمان يرضى بانزوائك لفقره فى زاوية خاملة من الدنيــا لم يُخلق مثل

حُسنك ليُحبَس على مثلها . وعندها من يدرى ماذا يصنع . إنه قامر ، وأعلمُ ذلك . ولم يخبرك بأنه قامر ، وأعلم ذلك أيضاً . فلِمَ لايقُوم فى ساعة سكرة من سكراته بفتق أمر أضطر أنا الى رتقه بفقد جانب مما جمعت من المال فى سنين عدة مهراً لابنتى ، وعدةً له فى حياته ، وضماناً لطمأنينتى فى آخر أيامى . وفضلا عن هذا ، أأنت على يقين من أن حياة نزعت عنها من أجله لن يستخفك وميضها ويستهويك بريقها يوماً ما ؟ أموقنةٌ ، وقد أحببته هذا الحب ، أنه لن يأتيك حبٌ غيره فتقبلين على زاه جديد ، وتدبرين عن عتيق طميس ؟ وهبي أن شيئاً من ذلك لم يكن فما يكون مبلغ آلامك وأوجاعك فى النهاية لو قامت صلتك به عقبة كؤوداً دون تقدمه فى سبيل الحياة ؛ فلم تستطيعى تعزيته عما افتقد بسببك ، فى سن تحلُّ فيها الآمال النوازعُ من رأسه محلَّ أحلام الغرام؟ فكّرى فى كل هذا يا سيدتى . انك تخلصين الحب لأرمان ، فأقيمى له على هذا الاخلاص البرهان الاخير الذى لم تَفرِى غيره ، فضحّى بحبك استبقاء لمستقبله عليه . انه لم يقع سوء للآن والحمد لله ، ولكنه سيقع ، وربما كان شراً مما أحزر ، فربما غار أرمان من رجل أحبك فأثاره الى الشجار فتقاتلا فقُتل أرمان ، فاذكرى ماذا يكون ألمك يومئذ أمام هذا الأب الشيخ اذا جاءك يسألك ماذا صنعت بابنه القتيل

وختاماً سأفضى لك يا بنيّتى بجملة الأمر ، فأنت لم تعلمى كل شىء : أتدرين لِمَ أتيت الى باريس ؟ ذكرت لك أن لى ابنة صبية جميلة نقية كالملائكة ، أحبّت وشادت من حبها هى أيضاً قصوراً من أحلام ، فكتبت بخبر ذلك الى أرمان ولكنه لاشتغاله بك لم يجبنى . وهى

ستتزوج ممن تحب وستدخل من بيته فى أسرة شريفة تود أن ترى كل شىء فى أسرتى شريفاً كذلك . وقد بلغ هذه الاسرة كيف يعيش أرمان فى باريس ، فأنذرتنى بأن تنقض عهدها فى خطبة ابنتى إذا لم يقلع أرمان عن حياته ، فمن ذلك تجدين أن بين يديك الآن مستقبل فتاة لم تؤذك فى شىء ، ولها الحق الطبيعى الذى لكل أحد فى أن تطلب لنفسها مستقبلا سعيداً ناضراً

أيجوز لك اذن ، بل ألا تزالين تجدين فى يديك قوة على حمل معول تهدمين به سعادة ابنتى هدماً ، وتستشعرين من نفسك جلداً على دك آمالها دكاً ؟ بحبك يامرجريت ، بقداسة توبتك الا ماحفظت على هناءة ابنتى

فبكيت يا صديقى بكاء صامتاً مراً لما قرعت سمعى تلك الخواطر التى كانت تمر ببالى كثيراً فلا تستقر طويلاً ، فجاءنى أبوك ينطق بها فزاد عندى حقيقة وجودها . لطالما قلت لنفسى ما لم يجسر أبوك أن يقوله لى بالرغم من صعوده الى شفتيه عشرين مرة . ذلك أنى لست على أية حال سوى فتاة سرية ، وأنه مهما كان من السبب الذى أوعز اليه صلتى بك فهذه الصلة لا تفتأ تلوح عليها مسحة حسابية مادية ، فيها مأخذ ومرد ، وان حياتى الماضية سلبتنى الحق فى أن أحلم حلماً لذيذاً كهذه الحلم عن حياتى المستقبلة ، وانى انهض بتبعة ليس فى حالى وسمعتى ما يشهد لى عن الناس بالنهوض بها ، ولا يضمن لهم أنى حقيقة باحتمال أعبائها . ان النغمة الأبوية التى ضرب عليها السيد دوفال فى كلامه ، والعواطف الشريفة التى أيقظها فى نفسى ، واحترام هذا الشيخ وولاءه لى على اثر نصرتى عليه فى الحجاج

عن نفسى ، واحترامك أنت الذى أيقنت أنه سيكون لى منك بعد حين ، كل ذلك أثار فى قلبى نزعات نبيلة رفعتنى فى عينى الصادقة ، وانطلقت فى نفسى ألسنة فخورة لم أعهدها من قبل ، تغرى بكل عمل قدسى ، وتحبب فى كل صنيع مبارك سماوى . وكنت كلما ذكرت أن هذا الشيخ الذى يتضرع الىّ الآن استخلاصاً لمستقبل ابنه من يدى الفاتكة سيدعو ابنته فيما بعد الى أن تمزج اسمى فى صلواتها بدعواتها الى الله ، وهى لا تعرف من أمرى سوى أنى صديقة لها لم ترها قط عينها ، كنت كلما ذكرت ذلك عدت الى نفسى فملأتها عجباً وفخاراً

لعل شدة تلك الساعة وحماستى عندها جعلانى أبالغ فى تقدير ما كنت أجد من آثار ذلك المشهد فى قلبى ، ولكن مهما يكن من حقيقة حالى عندئذ ، فقد أديتها لك على ما أحسست بها . وكان من الامر بعد ذلك أن تغلبت العواطف التى أولدها فىّ أبوك على وجدانى ، فأسكتت كل صوت أوحت به الىّ أيامى الماضية معك وذكرياتها السعيدة ، فقلت لأبيك وأنا أكفكف مدامعى

— والآن ياسيدى أترانى أحب ابنك ؟ فأجاب

— نعم

— حباً بلا غرض ؟

— نعم

— وهل ترانى اتخذت من هذا الحب حلماً لذيذاً أستمتع به فى حياتى ، وأملاً أنعم به فيها ، وكفارة عن أيامى الفائتة ؟

— أرى ذلك يقيناً

— اذن فقبّلني قبلة واحدة كالتي تقبلها ابنتك فأحلفُ لك أن هذه القبلة الطاهرة الوحيدة التي أعطيتها في عمري ستورثني قوة على حبي ، فلا تمضي ثمانية أيام حتى يعود ابنك الى جانبك بائساً كئيباً ولكن الى حين ، ثم يشفى بعد ذلك من وَجده الى الأبد

فقام اليّ والدك يقبّلني ويقول

— يا لكِ من فتاة شريفة تتخذين عند الله يداً يردّها عليك أضعافاً مضاعفة ، ولكني لا زلت أخشى انك لاتستطيعين صرف ابني من عندك

— اطمئن يا سيدي فسأدفعه الى مقتي

فوجب عندئذ أن أقيم بيننا سداً منيعاً يدفعني عنك اذا ما أردتك ، ويدفعك عني اذا أردتني . فكتبت الى پرودنس بأني أقبل ما اقترحه الكونت دي ن . . . وأنبتها عني في أن تخبره أني سأتعشى معه ومعها تلك الليلة

ثم طويت الكتاب وأخفيته عن أبيك ، ورجوته أن يحمله اذا أتى باريس الى العنوان المرقوم عليه . فسألني ماذا تضمّن ، فأجبته

— تضمّن سعادة ابنك

فقبّلني أبوك قبلة أخيرة أحسست عندها بدمعتين للشكر سقطتا منه على جبهتي ، كأنهما ماء التعميد يطهرني من خطاياي الماضية ، وشعرت بالعُجْب يملؤني في الساعة التي رضيت فيها بأن أُسلِم نفسي الى رجل آخر لما أدركت أني بهذه الخطيئة الجديدة سأستجلب خيراً كثيراً

ليس في ذلك غرابة يا أرمان . إنك كنت تقول لي إن أباك أطيب مخلوق يلقاه المرء في الدنيا

ثم ركب السيد دوڤال مركبته وارتحل

ولم أكن إلا امرأة ضعيفة ، فلم أتمالك أن بكيت لما رأيتك بعد ذلك ، ولكني تجلدت خشيةَ أن ألين بعد قسوة

فهل حسناً فعلت ؟

هذا ما أسائل نفسي فيه اليوم وقد ألزمني المرض فراشاً ربما لا أغادره حتى أموت

لقد شاهدتَ ما قاسيتُ بعدئذ في بوچيڤال حين كانت تقترب ساعة الفراق المحتوم بيني وبينك ، ولم يكن أبوك الى جانبي يثبتني ويقوّيني على ما قطعت فيه من الأمر ، فمرّت بي سُوَيعة كدت أبوح لك فيها بكل شيء وقد ملأني الفزع لما مرّ بخاطري انك عما قريب ستوسعني مقتاً واحتقاراً

لن تصدّق يا أرمان اني دعوت الله أن يمدني برَوح من عنده ، وقد أمدّني سبحانه فأراني بذلك أنه تعالى تقبل مني قرباناً تقربت به اليه

حتى في ساعة العَشاء مع الكونت كنت في حاجة الى ذي عونٍ كبير يذهب بعقلي فلا أدرك ما آتيه من الأمر ، وخشيت كل الخشية أن يخذلني جَلَدي ويخونني قواي

ألا من كان يدور بخَلَده أني أنا مرجريت جوتيه آلم هذا الألم كله لاستقبال محب جديد بعد آخر راحل

وعبّت الخمر عبا لأنسى ما كان ، وأغفل عما هو كائن . ولما استيقظت في الغد وجدتني في فراش الكونت

هذه الحقيقة برمتها ياصديق فاحكم واغفر لى كما غفرت لك ماآذيتنى منذ ذلك اليوم

الفصل السادس والعشرون

وما تلا هذه الليلة الويلة فتعلمه قدر ما أعلمه ، ولكن الشىء الذى لا تعرفه بل لا تستطيع أن تحدسه فذلك مقدار ما عانيت من الآلام بعد انقطاع الحبل بيننا

علمتُ أن أباك أخذك معه إلى بلدته ، ولكنى توقعت أنك لن تقوى على البعد عنى زمناً طويلا ، لذلك لما التقيت بك فجأة فى الشانزيليزيه لم أدهش وإنما تحركت لك كثيراً

وبدأت تتوالى علىّ عندئذ تلك الأيام التى لم يطلع علىّ يوم منها إلا بسبة جديدة يحملها إلىّ عنك فم جديد . فكنت أتلقى هذا السباب بالفرح ، لأنه أثبت لى أنك لا تفتأ تحبنى ، ولأنى كنت كلما زدتنى اضطهاداً خلت أنى سأزيد على مقدار ذلك فى عينيك رفعة وسمواً يوم تنجلى لك من الأمر كل خبيئة

لا تعجب من هذه المعذبة الفرحة يا أرمان ، فان حبك إياى بذر فى قلبى بذور الرضى عن كل شىء كريم ، وفجر فيه منابع لكل خير عميم

على أنى لم أقوَ على احتمال ما احتملت دفعة واحدة

قد كان بين إنفاذ التضحية التى ضحيّتها من أجلك وبين عودتك زمن طال علىّ أحسست فيه حاجة ماسة الى وسائل جثمانية تدرأ الجنون عنى ، وتذهب برأسى كى لا أدرك حقيقة الحياة التى دفعت اليها بنفسى ، وقد قالت لك برودنس فى هذه الفترة أنى أحضر كل المراقص وأشهد كل الحفلات وأفرط فى الأطعمة وأسرف فى الملذات

كان بى شبه أمل فى القضاء على نفسى سريعاً بحكم الافراط والاسراف فى كل شىء ، ولا إخال هذا الأمل يبعد طويلا ، فان صحتى انحطت بالطبع يوماً عن يوم ، وفى اليوم الذى أرسلتُ اليك فيه مدام دوفرنوا تسترحمك فقد جسمى كل طاقة ونفسى كل حول

لن أذكر لك يا أرمان ما جزيتنى به عن آخر برهان على حبى قدّمته اليك ، ولا صنوف الاهانة والتحقير التى طاردتَ بها من باريس المرأة التى لم تستطع وهى فى السبيل الى الموت أن لاتجيب الى صوتك لما دعاها الى ليلة حب ، وخالت برهة كالمعتوهة أن فى وسعها وصل ماضيها بالحاضر . لقد كان لك الحق فيما صنعت يا أرمان . نعم إن الناس لم تأجرنى عن ليالىّ دوما قدر ما أجرت أنت

عندئذ نزعتُ عن كل شىء ، واتخذتُ أولانب مكانى من السيد دى ن . . . واتخذتْ على عاتقها كما قيل لى أن تخبر الدوق بالدافع الذى دفع بى إلى الرحيل . وكان الكونت دى ج . . . فى لوندره ، وكان من الرجال الذين لايقدرون حبّ الفتيات أمثالى إلا بمقدار ما يكفل لهم ذلك طيبَ المقـام أيام وصالهن . وكان ممن يبقون على صداقتهن بعد

ذلك دون حقد أو بغض ، لأنهم لم يغاروا عليهن أبداً . وعلى كل حال كان الكونت من أولئك السادة الفخام الذين لا يفتحون لنا من قلوبهم إلا جانباً واحداً ، ويفتحون لنا من أكياس نقودهم كلا جانبيها . فهذا الرجل أول من ذهب اليه خاطري . فذهبت اليه فاستقبلني استقبالا باهراً مشكوراً ، ولكني وجدت له هناك حبيبة من كبريات النساء ، فخشي أن يظهر عندها بصحبتي ، فتقدم بتعريفي الى اصدقائه فدعوني الى العشاء ، ثم انصرفت بعده مع أحدهم

ماذا غير ذلك كنت تود أن أصنع يا صديقي ؟

أن أقتل نفسي ؟ فهذا كان يُعلق برأسك ذكراً أسيفاً وطيفاً مخيفاً لا يفتأ يتراءى لك كل حين ، فيكدر عليك صفاء عيشك الذي وجب عندي أن تكون به سعيداً . على أنه ما حاجة المرء الى قتل نفسه إذا كان على وشك أن يموت

وبعد ذلك صبحتُ جسدا بلا روح ، وقطعة من جماد لا إرادة لها ، وعشت زمناً عيشة الآلة الحديدية تدور وهي لا تدري لِمَ تدور ولا كيف تفعل . ثم رجعت الى باريس أسأل عنك فعلمت أنك سافرت لرحلة طويلة ، فلم يبق ما يذكّرني بك ، وعادت حياتي ووجودي الى ما كانا عليه قبل عرفاني اياك بعامين . فحاولت أن أسترجع الدوق ، ولكني كنت جرحته جروحاً بليغة قاسية ، والشيوخ لا صبر لهم ، وهذا لا شك لعلمهم أن حياتهم مؤذنة بالزوال وشيكا . وتزايد عليّ الداء وتنقّصني الوصب يوماً فيوماً ، فامتُقع لوني ، وهزل جسدي دون ما كان والرجال في سوق الحب يفحصون السلع قبل شرائها ، ويقلّبون البياعات

بطناً لظهر قبل اقتنائها . وكان فى باريس نسوة أصح منى جسما وأكثر شحما فنسينى الناس . هذه قصة ماجرى لى حتى أمس

واليوم أنا مريضة مُدنَفَة ، وقد نفد مالى ، وألحّ علىّ الدائنون باعلاناتهم بلا رحمة أو شفقة . وقد كتبت إلى الدوق أسأله مالا ، فهل يجيب ياترى ؟ ليتك فى باريس يا أرمان فتعودنى ، فتخفف عيادتك عنى هموماً كثيرة

٢٠ ديسمبر

الجو رهيب ، والسماء تثلج ، وأنا مُوحَدة فى دارى ، قد انتابتنى منذ ثلاثة أيام نوبة حمى شديدة أعجزتنى عن كتابة كلمة واحدة اليك . ليس عندى من خبر طريف ياصديقى ، وكل يوم يهل علىّ برجاء مبهم فى خاطرى أن سيجيئنى منك كتاب ، ولكنه لا يجىء شىء ، ولن يجىء لاشك إلى الأبد شىء . ان الرجال لهم وحدهم قوة الاصرار على أن لا يعفو . والدوق لم يجبنى للآن عن كتابى

استأنفت برودنس ترددها الى دار « مونت دى بييتيه » ترهن ما بقى من متاعى

لا أفتأ أبصق الدم . آه لو رأيتنى لألمت كثيراً . ما أسعدك الآن بالمقام تحت سماء حارة ، لا كمثلى أقاسى شتاء كثير الثلج يثقل على صدرى . نهضت اليوم قليلا فخطوت الى النافذة أرعى حياة باريس التى أظننى قد انقطع الآن ما بينى وبينها الى غير أجل ، فرأيت من خلف الستائر وجوها أعرفها تمر فى الطريق سريعة فرحة ، لاتقاسى غماً ، ولا تحمل

هماً ، ولا ترفع الى نوافذى عيناً . على أنى أجد نفراً من الشبان طرقوا داري ورقموا أسماءهم في دفتر الزائرين

لقد مرضت مرة سلفت فكنتَ تأتى تستفسر عن حالى كل يوم ، ولم تكن عرفتني ولا نلت شيئاً منى سوى قحة مبحة في الليلة التى رأيتك فيها أول مرة ، وهأنذا اليوم مرضت من جديد بعد أن قضينا ستة أشهر معاً ، وحملت لك فى قلبى من الحب قدر ما يتسع له قلب امرأة فى الوجود ، وأنت ذا بعيد عنى تلعننى ولا تجود لى بكلمة واحدة تروّح عنى . ولكن لا ، فبعدك لم يكن إلاّ عن قدَر ، وقضاء منتظر ، وأنت لو كنت فى باريس ونما اليك خبرى لما برحت تقيم فى غرفتى عند رأسى

٢٥ ديسمبر

حمانى الطبيب أن أكتب اليك كل يوم ، وله الرأى السديد ، فان ذكرياتى لدى الكتابة تزيد حرارة الحمى . بالأمس تسلمت كتاباً من أبيك كان على علتى برداً وسلاماً ، لا بما حمل الىّ من عطاءٍ فحسب ، بل فوق ذلك بما تضمنه من شمائل عالية وعواطف سامية . لذلك أجدنى اليوم أطيق الكتابة ، فدونك ما احتواه كتاب أبيك :

سيدتى

علمت الساعة أنك مريضة ، ولو كنت فى باريس لجئتك بنفسى أسأل عنك ، أو لو كان أرمان إلى جانبى لبعثته فى ذلك ، ولكنى لا أستطيع الآن أن أغادر بلدتى ، وأرمان على ستمائة فرسخ أو سبعمائة من هنا . فأذنى لى أن أستكفى بالكتابة اليك ، وأنبئك أنى تألمت كثيراً

لدائك، وأنى لاأفتأ أدعو الرحمن أحرّ الدعوات لعاجل شفائك

سيزورك صديق من أصدقائى الطيّبين هو السيد هـ . . . فأرجو استقباله ، وقد كلفته أداء أمر اليك انتظر بفارغ الصبر نتيجته

وفى الختام تقبّلى ياسيدتى أمنيتى الصادقة وعطفى الخالص

هذا هو الكتاب الذى جاءنى . ان أباك رجل شريف القلب طيبه فالزم محبته ياصديقى ، فلتجدنّ من رجال هذه الدنيا قليلا من يستحق المحبة استحقاقه . ان هذه الورقة المضاة باسمه صنعت لى من الخير مالم تصنعه لى تذكرات طبيبى النّطاسىّ الكبير

جاءنى هذا الصباح السيد هـ . . . وظهر لى فى حرَج من أداء المهمة الدقيقة التى كلفه السيد دوفال اياها ، فتقدّم الىّ ببساطة نيـة وسلامة طوية ودفع لى ألف ريال ، فأردت رفضها ، فقال لى ان هـذا الرفض يسيء السيد دوفال ، وانه كُلِّف دفعَ هذا المبلغ أولا ، ثم دفع كل شيء أحتاج اليه بعد ذلك . فقبلت المال ولم اعتبره صدقة . وكيف أعتبره كذلك وقد أتى من أبيك أنت ياأرمان . فبالله إذا مت فأدّ ما أكتب عن أبيك اليه ، واذكر له أن الفتاة التى تنزّل فكتب لها كتابه المريح المُسْلى سفكت دموعاً للشكر وهى تخط هذه الأسطر ودعت له الله بالخير

٤ يناير

مضى علىّ عدّة من أيام كثيرة الأوصاب ، شـديدة الأوجاع . لقد جهلت أن فى طاقة الجسم احتمالَ ما احتملت . آه وأف من حياتى

الماضية ، أنى أدفع عنها اليوم من الجزاء ضعفين

يسهر القوم الآن إلى جانبي كل ليلة ، فقد استعصى التنفس على وتقاسم الهذيان والسعال ما بقى من حياتى التعسة

الآن عندى فى غرفة المائدة شىء كثير من الملبّس وهدايا من كل صنف بعث بها الىّ أصدقائى . ولا شك يوجد من بينهم رجال يمنّون أنفسهم خُلُقّى بعد حين ، ولو أنهم رأوا ما صنع الداء بى لولّوا الأدبار هرباً وفزعاً

وتقوم برودنس الى هذه الهدايا فتفرّقها بين أصدقائها على أنها هدايا منها

سقطت حرارة الجو عن الصفر ، فقال لى الطبيب أنى أستطيع الخروج الى الطريق بعد بضعة أيام اذا بقيت حالة الجو جافة طيّبة

٨ يناير

خرجت بالأمس فى مركبتى ، وكان الجو غاية فى البهجة والحسن ، وكان الشانزيليزيه غاصاً بالناس رائحين وغادين مستبشرين فرحين ، حتى لَخلت الربيع قد تنفّس أول أنفاسه ، وكان كل شىء حولى يبسم عن غبطة وسرور ، وما حسبت الا البارحة أن شعاعة الشمس الواحدة بها من الفرح والحلاوة والراحة قدرَ ما وجدت فيها

والتقيت بالجمهور الأكبر ممن أعرف ، فوجدتهم فى بهجة دائمة ، وشمل بمفارحهم لا ينقطع . كم بالدنيا من سعيد لا يدرى أنه سعيد . ومرّت بى أولانب فى مركبة فاخرة أعطاها اياها السيد دى ن . . .

فأرادت أن تَسُبّني بنظرة من عينها . إنها لا تعلم على أى بُعدٍ أصبحتُ من المبالاة بهذه الأباطيل ، وتقدير هذه التُّرّهات والأضاليل . وجاءنى شاب عرفته من قديم فسألنى العَشاء معه ومع صديق له قال إنه يرغب فى التعرف إلىّ

فابتسمت ابتسامة مرة ومددت اليه يدى تحرقها الحمى

فلم أر وجهاً أكبر دهشة من وجهه عندئذ

وعدت الى دارى الساعة الرابعة ، فأكلت بشهية فائقة

لقد نالنى من هذا الخروج خير كبير

آه لو كنت أشفى

١٠ يناير

لم يكن رجائى فى شفائى الأمنية خلوبا ، وحلما مكذوبا ، فها أنذا فى الفراش تُغشّى جسمى لَصُوقات تحرقنى . ألا فاذهبى يامرجريت الآن فاعرضى على الناس هذا الجسم الذى أوجر بالامس أجراً كبيراً ، وانظرى كم يرتضون له اليوم أجراً

لا بد أنّا فعلنا شراً مستطيراً قبل الخروج إلى ظهر هذه الدنيا من بطون أمهاتنا ، أو لا بدّ أنا سنَلقى خيراً كبيراً بعد الخروج عن ظهرها إلى بطون قبورنا ، وإلا فكيف ساغ لله أن يأذن فينا بهذه الكفّارات الأليمة والمحن الشديدة

١٢ يناير

آلم كل ساعة

بعث الكونت دى ن . . . الىّ بالامس مالا فرفضته لانى لا أود أن تكون لى حاجة إلى هذا الرجل الذى سبب بعدك عنى

آه أين أيامنا الهنيئة ببوجيڤال

لو أُتيح لى الخروج عن هذه الحجرة لحججت الى البيت الذى سكنّاه سويّا ، ولكنى لن أخرج الا هالكة

من يدرى لعلّى لا أستطيع لك الكتابة فى الغد

٢٥ يناير

مضى لى احدى عشرة ليلة لا أطعم النوم ، وأسعل ، وأتوقع الموت فى كل دقة من دقات قلبى ، وقد أمر الطبيب أن لا أمسّ القلم ، الا أن جوليت دوبرا التى تمرضنى أذِنت لى أن أكتب لك بضعة أسطر . والآن أحقا أنك لن تأتى قبل أن أموت ؟ وهل انقضى ما بيننا الى الأبد ؟ يُخيّل لى أنك ان أتيت شُفيت ، ولكنك إن لا تفعل فما نفع الشفاء ؟

٢٨ يناير

استيقظت هذا الصباح على ضجة كبيرة فرأيت جوليت ، وهى تنام كل ليلة الى جانبى ، قد أسرعت فزعة الى غرفة المائدة ، وسمعت صوتها يعترض أصوات قوم عبثاً . ثم عادت الىّ تبكى

أتى القوم يوقعون الحجز على أمتعتى ، فسألتها أن تدعهم يفعلون ما توجبه التى يُسمّونها العدالة . ودخل علىّ رسول القضاء وقبعته على رأسه ، فأخذ يفتح الأدراج ويقيّد ما يجد ، ولم يَلُح عليه أنه أدرك أن فى الحجرة

امرأة تنزع فى فراشها الذى أرادت مشيئة القانون أن تُعفيه لها كرماً

ولما عزم الرسول أن ينصرف نزل عن قدره فأخبرنى أنى أستطيع المعارضة فى الحجز قبل فوات تسعة أيام ، ولـكنه خلف على المتاع حارساً . رباه ، ماذا يُراد بى . لقـــد زاد هذا المشهد دائى ، وفتّ فى أعضائى . وأرادت رودنس أن تسأل صديق أبيك مالا فأبيت

تسلمت كتابك هذا الصباح ، وكانت بى حاجة شديدة اليه ، فهل يا تُرى يصلك جوابى عنه قبل فوات الحين ؟ وهل قُدّر لك أن ترانى ؟ أنظرْ فهذا نهارٌ سعيد أنسانى إخوتَه التى مرت علىّ فى الستة الاسابيع الماضية . يظهر لى انى آخذة فى الشفاء بالرغم من نمة الحزن التى ضربت عليها عند اجابتى اياك

على كل حال لا يجب أن يكون المرء شقياً حزيناً كل حين

انى كلما ذكرت أنه قد يصلك جوابى ، وقد لا أموت ، وقد تعود الىّ ، وقد أستنشق نسائم الربيع ، وقد ترجع الى حبى ، وقد نبدأ نعيش معاً مثلَ عيشنا فى العام الفائت . . . .

ما أجننى ! أسطرّ ما أسطر من أحلام خَرِفة وأنا لا أستطيع أن أجر شبا قلمى على القرطاس . ولـكن مهما يكن من الأمر فقد أحببتك يا أرمان حباً لولاه ولولا أملٌ مُبهمٌ عنـدى فى لقائك لقضيت من أمد بعيد

٤ فبراير

جاءنى الـكونت دى ج . . . وقص علىّ أن خليلته خانته ، وهو

حزين من أجلها ، ذاهبةٌ نفسه حسراتٍ عليها . فقد كان يحبها ، وقد أصبح الفتى المسكين فى عسر لم يمنعه أن يدفع ما دفع الى رسول المحكمة ويصرف الحارس عنى

قد حدّثته عنك ، فوعدنى أن يحدثك عنى . ما كان أنسانى لدى حضوره عندى انى كنت خليلته يوماً ، وما كان أحرصه على إنسائى ذلك أيضاً . إنه رجل ذو قلب كريم

وبعث الدوق بالأمس يسأل عنى ، وحضر هذا الصباح . لاأدرى ما الذى يُطيل فى أجل هذا الشيخ . انه جلس إلى جانبى ثلاث ساعات لم ينطق أثناءها بعشرين كلمة ، ولما رآنى ممْعِنةً فى الشحوب فاضت من عينيه دمعتان كبيرتان أفاضتهما لامشاحة ذكرى ابنته إذ تموت . لقد قُدّر عليه أن يراها فى شخصى تموت للمرة الثانية . أرى ظهره احدودب ورأسه انحنى إلى الأرض ، وشفته تهدّلت ، ونور بصره انطمس ، وأناخ الكِبَر والهمّ بكَلْكَلَيهما على جسده البالى . أتانى فما عتبَنى فى شىء ، ولعله ابتهج فى سريرته بما عاث الداء فى جسدى ، وكأنه كان يلوح عليه العُجب بأنه وهو الشيخ قائم على ساقيه ، فى حين انى فى ريعان الصبا ونضرة الأيام لا أستطيع على ساقىّ قياماً

عاد الوقت السوء ، وجاء الزمن العصيب ، وأصبحتُ لا يعودنى من الناس أحد ، وتقيم جوليت إلى جانبى قدر ماتطيق ، أما برودنس فتعتذر بكثرة أشغالها الآن لما لم أستطع أن أبذل لها من المال مثل ما كنت أبذل لها من قبل

أصبحت أقرع باب الموت بالرغم مما يقول أطبائى العديدون ،

فأصبحت آسف أو أكاد لاستماعي لقول أبيك . لو كنتُ عرفت أنه لم يبق لى من الحياة غير عام واحد لما تردّدت فى استراق عام من مستقبلك نقضـــيه فى العيش معا ، حتى اذا متّ وكفى فى كف صديق . على أنه لو كان تم لنا ذلك لما مت هكذا سريعاً

لتكنْ مشيئة الله

٥ فبراير

تعال تعال الىّ يا أرمان . أوّآه من ألم الوجيعة . سأموت يا الله

كنت بالأمس حزينة فوددّت أن أقضى المساء فى غير منزلى ، وقد أسفرت الطلائع عن ليل يطول . وفى الصباح جاءنى الدوق . يظهر لى أن رؤيتى هذا الشيخ الذى نسيه الموت تستعجل هلاكى

فلبست وذهبت إلى الفودفيل بالرغم من الحمى التى كانت تحرقنى ، وصبغت جوليت بالحمرة وجنتىّ قبل بروزى من البيت لتستر عن وجهى مسحة الأموات ، واتخذت مكانى من اللوج الذى ضربت لك فيه أول موعد بيننا ، وكنت طول وقتى لا أرفع بصرى عن المقعد الذى كنت جلست فيه يومذاك وكان يشغله بالأمس رجل فظ غليظ ظل يقهقه عالياً طول جلستنا لكل ما ينطق به الممثلون من هُراء ، ثم حُملت بين الموت والحياة الى دارى ، فظللت أسعل وأبصق الدم طول ليلى ، وأصبحت اليوم لا أســتطيع الكلام ، ولا أكاد أحرّك ذراعىّ إلا بصعوبة كبيرة . رباه ، رباه ، انى سأموت . لقد توقعت الموت ولكنى لا أطيق أن احتمل عذاباً أشد مما قاتـ ولو . . .

وبعد هذه الكلمة لم استطع قراءة بقيـة من أحرف جاهدت مرجريت أن تخطها واضحة فلم تفلح ، وقامت جوليت دوبرا تتم ماعجزت عن اتمامه

١٨ فبراير

سيدى أرمان

منذ اليوم الذى ذهبت مرجريت فيه الى المسرح انحط حالها انحطاطا كبيراً ، ففقدت صوتها فقداناً تاما ، وضعفت عن تحريك أعضائها ، والذى تعانيه المسكينة لا يوصف ، ولم تكن لى دُربةٌ سابقة برؤية هذه المحزنات فتراني فى رعب دائم

ليتك بجانبنا . انها لا تكاد تصحو من سكراتها إلا نادراً ، وسواء فى سكرة كانت أم فى صحوة فهى تلفظ اسمك ما وجدت إلى اللفظ سبيلا

قال لى الطبيب إنها لن تعيش طويلا ، ومنذ زاد الحال عليها انقطع الدوق عن زيارتها وقال للطبيب إن مشهدها يورثه سوءاً كبيراً

أما مدام دوفرنوا فساء ماسلكت . اعتقدت هذه المرأة التى عاشت على نفقة مرجريت دهراً طويلا أنها تستطيع أن تأخذ منها مالا كل حين ، واعتمدت على هـذا الاعتقاد فأوقعت نفسها فى ورطة مالية ، ونظرت إلى جارتها فوجدت أنها لا تستطيع انجادها فتولت عنها ولم تمنّ حتى بزيارة واحدة تزورها اياها . لقد هجر مرجريت كل الناس ، والسيد دى ج . . . ركبه الدين فاضطر إلى مغادرة باريس إلى لوندره

وعند رحيله بعث الينا بشيء من مال . صنع الفتى كل ما قدر عليه ، ولكن رسلُ القضاء عادوا لتوقيع الحجز ، ويترقب الدائنون الوفاة بفارغ صبر ليبيعوا المتاع

وقد أردت أن أدفع آخر ما عندي لأرفع الحجز ، ولكن الرسول قال لي إنه من العبث أن أحاول رفعه وعنده غيرُ هذا الحكم أحكام يراد انفاذها . وقال ان مرجريت مائتة لا محالة فالخير في ترك الاثاث يباع لا في استخلاصه ليرثه من بعدها أهل لها لم يُعنَوا برؤيتها ولا محبتها يوماً ما . يا سيدي لا تستطيع أن تتصور في أي بؤس خدّاع بريقه تموت البنيّة المسكينة . بالامس لم يكن لدينا من المال فلس واحد ، وأداة المائدة والحليّ جميعاً وملاحف الكشمير مرهونة ، وما بقي فبيع أو محجوز ، ولا تزال مرجريت تشعر بما يجري حولها فتُفيض من عينها دموعاً كبيرة تجري منها على خدين ناحلين شاحبين في وجه لو أطقت أن تراه لأنكرت أنه الوجه الذي استهواك استهواء كبيراً . انها استحلفتني أن أكتب اليك اذا عجزتْ عن الكتابة ، فها نذا أكتب أمام سريرها . انها ترفع عينها نحوي ولكنها لا ترى شيئاً ، فالموت المقبل القريب قد غشّى بصرها . انها مع هذا تبسم ولا شك أن روحها وفكرتها لا تعدوانك

وفي كل مرة يفتح الباب يبرق ناظراها اعتقاداً منها أنك أنت القادم ، فاذا علمت أنك لست إياه عاد وجهها فارتسمت عليه علائم الألم وتندّى بعرق بارد ، وازرقت وجنتاها ازرقاقاً

١٩ فبراير

ما كان أسود نهارنا يا سيدى البائس أرمان ! اختنقت مرجريت هذا الصباح ففصدها الطبيب فعاد اليها بعضُ صوتها ، ونصح لها أن تستدعى قسيساً فأجابته الى ذلك ، فذهب بنفسه فى طلب قسيس من كنيسة القديس رُكْ

وفى هذه الاثناء دعتنى مرجريت الى جنب فراشها ، وسألتنى أن أفتح خزانة ملابسها ، فأشارت الىَّ أن أُخرج قلنسوة وقيصا طويلاً وهمست الى بصوت خافت

— سأموت بعد اعترافى للقسيس ، فألبسينى بعد موتى هذين ، ولا تعجبى لراحلة عن الدنيا أن تتظرّف فى اختيار أكفانها . إنها أناقةٌ محتضرة

فقبلتنى وهى تبكى ، ثم عقّبت تقول

— انى أستطيع الكلام ، ولكنى أختنق عند ما أتكلم ، انى أختنق ! الهواء ! الهواء !

فغرقتُ فى مدامعى ، وفتحت النافذة ، وبعد قليل حضر القسيس فتقدّمته فى الطريق ، ولما علم فى دار مَن هو ، ظهرت عليه خشيةُ أن لا يُحسن استقباله ، فقلت له

— تقدّم يا أبى ولا توجس

ولم يلبث فى غرفة المريضة الا يسيراً من الزمن ، ثم خرج وهو يقول لى

— انها عاشت عيشة الخاطئة ، ولكنها ستموت موتة المؤمنة

وبعد قليل عاد يصحبه ولد من أولاد الكنيسة يحمل صليباً، يتقدمها مبكراً ستانى يدق أمامها ناقوساً إيذاناً بأن الله قادم الى المحتضرة

ودخل الجميع غرفة النوم التى انطلق بها قديماً من غرائب الكلم ما انطلق فأصبحت الساعة بيتاً قدسياً مباركا

فسقطتُ على ركبتىّ

لا أدرى الى متى يبقى أثر هذا المشهد فى نفسى ، ولكنى لا أظن أن شيئاً انسانياً مهما كان يستطيع أن يورثنى هذا الأثر الى أن أشهد مثله فى فراش موتى

ودهن القسيس بالزيت من المحتضرة رجليها ويديها وجبينها، وتلا دعوات يسيرة تأهلت مرجريت على أثرها للدخول الى السماء حيث تدخل الجنة لا محالة بما قاست من عذاب أليم ، وبما أُجرِىَ عليها من مراسم القداسة

وبعد تلك الساعة لم تنبس مرجريت بكلمة ولم تتحرك حركة واحدة حتى خلتها عشرين مرة قد ماتت لولا تسمّعى أنفاسها الضعيفة

٢٠ فبراير الساعة الخامسة مساء

قضى الأمر

دخلت مرجريت فى النزع هذه الليلة فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . لم يتعذب أحد من الشهداء مثل عذابها قط ، اذا حكمنا على ذلك من صرخاتها الأليمة . لقد انتفضت قائمة مرتين أو ثلاثاً فى فراشها كأنما

كانت تتشبث بروحها الصاعدة الى السماء

ونطقت باسمك مرتين أو ثلاثاً كذلك ، ثم سكنت ، وارتمت منهوكة القوى على فراشها ، وأخذت قطرات من الدمع تفيض من عينيها فى هدوء . ثم فاضت روحها

فاقتربت عندئذ منها وناديتها فلم تجبنى . أسبلت جفنيها وقبلتها قبلة فى جبينها . واهاً لك يا عزيزتى مرجريت ؟ وددت لو كنت قديسة لتشفع لك قبلتى هذه عند الله . ثم ألبستها ما أوصتنى به ، وذهبت أطلب قساً من كنيسة القديس رك ، وأشعلت لها شموعاً وصليت فى الكنيسة ساعة ، وتصدقت على الفقراء ببقية من مال كانت لى منها

انى لا أعرف من الدين كثيراً ، ولكنى أعتقد أن الله يرى صدق عبرتى ، واخلاصى فى دعوتى ، وأنى لم أتوجه لغير وجهه بصدقتى ، فهو لا شك راحم تلك التى ماتت فى ريعان صباها وزهو جمالها فلم تجد الى جانبها أحداً سواى يسبل لها عينيها ويواريها التراب

٢٢ فبراير

دفنت الجثة اليوم ، وأتى كثير من أصدقاء مرجريت الى الكنيسة وبكى بعضهم بكاء مراً . ولما اتخذت الجنازة الطريق الى مقبرة «منمارت» لم يكن وراءها غير رجلين ، الكونت دى ج . . . الذى قدم من لوندره لما أتاه نعيها ، والدوق وكان يمشى متسانداً على خادمين

أنا أكتب لك هذه التفصيلات فى بيت مرجريت بين دموعى المسبلة ، وعبراتى المتدفقة ، على ضوء مصباح حزين ، على إثر عشاء لم

أمس منه لقمة أكرهتني نانين على طلبه ، لأني لم أذق الزاد من أكثر من أربعة وعشرين ساعة

ان نفسى لن تحتفظ بهذه الآثار المحزنة طويلا الا بمقـــدار ما احتفظت مرجريت بحياتها ، لذلك ترانى أكتبها سريعاً فى نفس المكان الذى وقعت فيه خشية أن يطول الزمن بين هذه الوقائع و بين عودتك فلا أستطيع أن أؤدى لك عندئذ صورة جلية صادقة منها

الفصل السابع والعشرون

فقال لى أرمان لما فرغت من قراءة هذه الصحائف

— أفرغت منها

— نعم، والآن أفهم مبلغ آلامك ياصديقى إن كان كل ماقرأته حقاً

— إن أبى عزز لى صدق مافيها بكتاب بعثه الىّ

ثم أخذنا نتحادث عن خاتمة السوء التى ختم القدر بها حياة مرجريت. ثم ذهبت إلى دارى استريح

ولزم الحزن أرمان ، وخفف عنه قليلا قراءة هذه القصة فشفى سريعاً وذهبنا معاً نزور بردونس وجوليت دوبرا

فوجدنا بردونس أفلست ، فقالت لنا إن مرجريت أفلستها لأنها أقرضتها أثناء مرضها مالا كثيراً اقترضته من أناس بوثائق عجزت عن

سدادها ، وإن مرجريت ماتت ولم تخلف لها رُجحات بما عليها من الدين فتستطيع بها أن تندمج فى زمرة الدائنين

وأذاعت پرودنس هـذه الخرافة تذكرها فى كل مجلس ومكان لتعتذر بها عما أصابها من الافلاس ، وبهذه الخرافة أخذت من أرمان ورقة بألف فرنك ، وما ذلك لأن أرمان آمن بما تقول ، وإنما شاء أن يدعى الايمان تقديساً لكل شيء يتصل بصاحبته

ثم وصلنا بعد ذلك إلى جوليت دوپرا ، فقصت لنا الحوادث الأسيفة التى شهدتها وبكت بكاء صادقا حاراً لذكرى صديقتها . وأخيراً أتينا قبر مرجريت فوجدنا شمس الربيع تسقط عليه شعاعاتها الأولى فتفتق زهراته الوليدة

وبقى على أرمان أن يذهب إلى أبيه فأراد أن أصحبه فى هذه أيضاً

فوصلنا إلى بلدة ك . . . فرأيت السيد دوڤال كما وصفه لى أرمان طويلا وقوراً خيّراً

فاستقبل ابنه بدموع الفرح ، وصافحنى مصافحة وداد كبير

ورأيت اخت ارمان واسمها بلانش ؛ فوجدت لها تلك العين الصافية والنظرة الخالصة والفم الرائق ، يدل جميعها على ان الروح لا تشتغل إلا بخواطر طاهرة ، وأن الشفاه لا تنفتح إلا عن أحاديث صالحة . فأخذت هذه الصبية الساذجة العفيفة تبتسم فرحة لمقدم أخيها جاهلة أنه فى أرض بعيدة عنها ضحت بغىّ بسعادتها من أجل هناءتها عند ذكر اسمها فحسب

وبقيت فى هذه الأسرة السعيدة زمناً مشتغلا بذلك الذى جبر

بانجبار قلبه الصديع قلوباً حوله صديعة

وعدت إلى باريس حيث أكتب هذه القصة على ما سمعت وشهدت . ولهذه القصة ميزة على سواها قد يمارى الناس فيها ، تلك انها واقعة صدق

لا أريد أن استنتج منها أن كل الفتيات اللاتى كمرجريت يقدرن أن يفعلن مثل مافعلت ، بل أنا على النقيض أبعد ما أكون من ذلك وانما عرفت أن إحداهن أحبت فى حياتهـا حباً صادقاً تعذبت فيـه وماتت ، فرأيت من واجبى أن أقص على القارىء ماعرفت

لست رسول الرذيلة إلى الناس ، وانما أنا صدى لكل شقاء نبيل وبؤس كريم

وختاما أكرر أن حادثة مرجريت حادثة فى الحوادث شاذة ولو لم تكن كذلك ما اهتممت بتحبيرها

انتهى

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

بشارع المبتديان رقم ٣٨ بعابدين بمصر

تليفون ٩٢ — ٢٩ بستان

كشف بمطبوعات اللجنة

تطلب جميعها من مركز اللجنة ومن المكاتب الشهيرة

تتكون لجنة التأليف والترجمة والنشر من جماعة من خيرة رجال الأدب والعلم والقانون الممتازين بمؤلفاتهم ومقدرتهم العلمية واللجنة تتحرى دائماً قصداً واحداً وهو خدمة الوطن بالعمل على تنوير العقول وتهذيب النفوس بما تخرجه للناس من المؤلفات القيمة في مختلف الميادين والمستويات فالاقبال على اقتناء كتبها انما هو خدمة للبلاد

	ص
١ — مبادىء الكيمياء الجزء الأول : — للسنة الثالثة الثانوية	١٣
٢ — « « الجزء الثاني : — للسنة الرابعة الثانوية تأليف الدكتورين احمد زكى الدكتور في العلوم والاخصائي في الكيمياء من جامعة لندن ، والدكتور احمد عبد السلام الكرداني الدكتور في الفلسفة	١٥

ويمتاز هذان الجزءان بالدقة العلمية المصحوبة بالتبسط والجلاء ، وبهما الأشكال الكثيرة التي توضح جميع موضوعاتهما

٣ — سلسلة الجغرافية الحديثة : — خمسة أجزاء تتناول برامج السنوات الخمسة في التعليم الثانوي ، قامت بتأليفها شعبة الجغرافيا باللجنة وهي مؤلفة من خمسة من أكبر أساتذة الجغرافيا المعروفين بالمدارس الثانوية . وقد ظهر فضل هذه السلسلة لما تحلى بها من الوضوح وحسن الأسلوب ودقة المعلومات ووفائها ، وهي تفيد الطالب أكبر فائدة بصفتها مرجعاً وهادياً في موضوع الجغرافيا الجزء الأول ١٦ قرشا والثاني ١٨ قرشا والثالث ٢٠ قرشا والرابع ٢٠ قرشا والخامس ٢٠ قرشا ٩٤

٤ — تاريخ الأدب العربي : — الطبعة الرابعة في مقرر البكالوريا وهو تأليف الأستاذ المعروف احمد افندي حسن الزيات مدير التعليم العربي بالجامعة الأمريكية ويمتاز بطريقة بحثه العلمي وعلو أسلوبه وطريقته في المقارنة والموازنة على الأسلوب التحليلي الأدبي . فليس مقصوراً على أنه كتاب مدرسي بل هو كتاب نافع في الثقافة الأدبية العامة للبلاد العربية قاطبة ٢٠

٥ — تاريخ القرن التاسع عشر : — في مقرر البكالوريا تأليف الدكتور حسين حسنى والاستاذ محمد افندي قاسم الاستاذ بمدرسة المعلمين العليا . وهو يتناول تاريخ القرن التاسع عشر في أوربا والشرق بالبحث الدقيق والتحليل العلمي في أسلوب جميل مشوق يجدر بكل مطلع أن يجعله في مكتبته ٢٥

م

٦ — أصول التربية : — لمدارس المعلمين تأليف الاستاذ أمين مرسى قنديل الأستاذ بمدرسة المعلمين العليا وهو بحث مستفيض فى أصول التربية لا يستغنى عنه مشتغل بالتعليم وهو خير ما ظهر فى اللغة العربية فى ذلك الموضوع الجليل ٢٠

٧ — شرح قانون العقوبات : — لمدرسة الحقوق ، يتناول الجرائم المختلفة ويبين كل ما يختص بها بطريق تحليلى دقيق ، وقد صار اليوم أكبر مرجع فى اللغة العربية فى ذلك الموضوع لرجال القضاء والمحاماة ، ويكفى للثقة به أنه تأليف الاستاذ الكبير احمد بك أمين المستشار الملكى ١٠٠

٨ — مشاهد الطبيعة (جزءان) : — كتاب فى الجغرافيا للاطفال فى السنتين الاولى والثانية الابتدائيتين جعل فيه كثير من الصور المختارة لبيان الموضوع واضحاً ماثلا أمام عين الطفل ولغته سهلة لا يعسر على التلميذ الصغير فهمها وهو مطبوع طبعا واضحا بحرف كبير لتسهيل قراءته . وقد دل اقبال المدارس عليه على أنه سد فراغا فى التعليم ، وهو تأليف الاستاذين المعروفين محمد افندى فؤاد حسن مفتش مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، محمد افندى فريد أبو حديد الاستاذ بمدرسة الأمير فاروق الثانوية ثمن الجزء ٦

٩ — سمير الاطفال (ستة أجزاء) : — للمدارس الابتدائية ثلاثة أجزاء للبنين ومثلها للبنات للسنوات الاولى والثانية والثالثة الابتدائية تأليف الاستاذ محمد افندى الهراوى ، ومطبوع بالشكل الكامل ومحلى بالصور البديعة وهو كتاب محبوب عند الاطفال يترنمون بأشعاره العذبة التى يفهمونها وتربى فيهم ملكة الخيال والذوق الادبى والاخلاق الكريمة وقد قررته وزارة المعارف ومجالس المديريات وادارات التعليم الخصوصية والاهلية ثمن الجزء ٤

١٠ — المسألة المصرية : — ترجمه الكتاب الجليل (Egypt's Ruin) تأليف الاستاذ روتستين وترجمه الاستاذان عبد الحميد العبادى المدرس بالجامعة المصرية ، محمد بدران المدرس بالمدرسة الملكية الثانوية فى لغة عربية تجمع بين متانة الاسلوب والدقة والكتاب يشرح أصل المسألة المصرية وتطورها من وجهة نظر غير انجليزية وهو بذلك يمتاز بتحرى وجوه الحقيقة التاريخية ٢٥

١١ — آلام فرتر : — القصة العالمية لشاعر الالمانى العظيم جوت وهى تعتبر من المخلفات الخالدة فى الادب فى جميع بلاد العالم وقد ترجمها بقلمه البديع الاستاذ احمد حسن الزيات . . . ١٥

١٢ — علم الاخلاق (الى نيقوماخوس) : — تأليف الفيلسوف الاعظم ارسطاطاليس ويكفى بذلك تنويها بالكتاب ، وقد ترجمه الى الفرنسية مع مقدمة بديعة فى تاريخ علم الاخلاق العلامة الفرنسى (سنت هيلير) وعربه وصدره بمقدمة ممتعة حضرة الاستاذ الكبير صاحب المعالى احمد لطفى السيد بك وزير المعارف الحالى (١٩٢٨) وهذه الحقائق فى ذاتها خير ما يقدم به الكتاب الى جمهور المتأدبين وأولى الثقافة ١٠٠

١٣ — كتاب الأخلاق : — تأليف الكاتب الانجليزى المشهور (سمايلز) وتعريب

مـ

٦ — أصول التربية : — لمدارس المعلمين تأليف الاستاذ أمين مرسى قنديل الأستاذ بمدرسة المعلمين العليا وهو بحث مستفيض فى أصول التربية لا يستغنى عنه مشتغل بالتعليم وهو خير ما ظهر فى اللغة العربية فى ذلك الموضوع الجليل ٢٠

٧ — شرح قانون العقوبات : — لمدرسة الحقوق ، يتناول الجرائم المختلفة ويبين كل ما يختص بها بطريق تحليلى دقيق ، وقد صار اليوم أكبر مرجع فى اللغة العربية فى ذلك الموضوع لرجال القضاء والمحاماة ، ويكفى للثقة به أنه تأليف الاستاذ الكبير احمد بك أمين المستشار الملكى ١٠٠

٨ — مشاهد الطبيعة (جزءان) : — كتاب فى الجغرافيا للاطفال فى السنتين الاولى والثانية الابتدائيتين جعل فيه كثير من الصور المختارة لبيان الموضوع واضحاً ماثلا أمام عين الطفل ولغته سهلة لا يعسر على التلميذ الصغير فهمها وهو مطبوع طبعا واضحا بحرف كبير لتسهيل قراءته . وقد دل اقبال المدارس عليه على أنه سد فراغا فى التعليم ، وهو تأليف الاستاذين المعروفين محمد افندى فؤاد حسن مفتش مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، محمد افندى فريد أبو حديد الاستاذ بمدرسة الأمير فاروق الثانوية ثمن الجزء ٦

٩ — سمير الاطفال (ستة أجزاء) : — للمدارس الابتدائية ثلاثة أجزاء للبنين ومثلها للبنات للسنوات الاولى والثانية والثالثة الابتدائية تأليف الاستاذ محمد افندى الهراوى ، ومطبوع بالشكل الكامل ومحلى بالصور البديعة وهو كتاب محبوب عند الاطفال يترنمون بأشعاره العذبة التى يفهمونها وتربى فيهم ملكة الخيال والذوق الادبى والاخلاق الكريمة وقد قررته وزارة المعارف ومجالس المديريات وادارات التعليم الخصوصية والاهلية ثمن الجزء ٤

١٠ — المسألة المصرية : — ترجمة الكتاب الجليل (Egypt's Ruin) تأليف الاستاذ روتستين وترجمة الاستاذان عبد الحميد العبادى المدرس بالجامعة المصرية ، محمد بدران المدرس بالمدرسة الملكية الثانوية فى لغة عربية تجمع بين متانة الاسلوب والدقة والكتاب يشرح أصل المسألة المصرية وتطورها من وجهة نظر غير انجليزية وهو بذلك يمتاز بتحرى وجوه الحقيقة التاريخية ٢٥

١١ — آلام فرتر : — القصة العالمية للشاعر الالمانى العظيم جوت وهى تعتبر من الخالدات الخالدة فى الادب فى جميع بلاد العالم وقد ترجمها بقلمه البديع الاستاذ احمد حسن الزيات . . . ١٥

١٢ — علم الاخلاق (الى نيقوماخوس) : — تأليف الفيلسوف الاعظم ارسطاطاليس ويكفى بذلك تنويها بالكتاب ، وقد ترجمه الى الفرنسية مع مقدمة بديعة فى تاريخ علم الاخلاق العلامة الفرنسى (سنت هيلير) وعربه وصدره بمقدمة ممتعة حضرة الاستاذ الكبير صاحب المعالى احمد لطفى السيد بك وزير المعارف الحالى (١٩٢٨) وهذه الحقائق فى ذاتها خير ما يقدم به الكتاب الى جمهور المتأدبين وأولى الثقافة ١٠٠

١٣ — كتاب الأخلاق : — تأليف الكاتب الانجليزى المشهور (سميلز) وتعريب

قرش

الاستاذ محمد الصادق حسين بك ، ويمتاز الكتاب فى أصله بسعة اطلاع الكاتب واختلاف ميادين تجاربه وعلمه . والترجمة بديعة وشيقة الاسلوب لا يملها القارئ بل يسره منها الاستزادة ، ولهذا كان كتاباً قيماً للتسلية والاطلاع والفائدة والادب ٢٠

١٤ — كتاب الاخلاق : — تأليف الاستاذ احمد أمين المدرس بالجامعة المصرية ، وهو مبوب تبويبا علمياً بسط فيه الاستاذ مباحث علم الاخلاق بسطاً وافياً مع وضوح القصد وسهولة المنهج . وهو يفيد محب الاطلاع والتأدب كما أن فيه موضوعات برنامج علم الاخلاق بالمدارس الثانوية المقرر على طلبة السنة الثالثة ٢٠

١٥ — مبادئ الفلسفة : — تأليف الدكتور (رابوبورت) ألفه ليكون مقدمة لمن يدرس الفلسفة من طلبة المدارس ومن عائلهم ، وعربه الاستاذ احمد أمين المدرس بالجامعة المصرية وهو خير ما يقرؤه من يريد الالمام بمبادئ علم الفلسفة ومباحثها ٨

١٦ — كتاب الانتصار : — يتضمن رد ابن الخياط على فضائح المعتزلة لابن الراوندى صححه وصدره بمقدمة بديعة فى تاريخ المعتزلة المستشرق الدكتور نيبرج الاستاذ بجامعة ابسالا بالسويد وطبع فى مطبعة دار الكتب المصرية ١٥

١٧ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية : — بحث فيها ونقد لها ومقارنتها بالفلسفة الاجتماعية فى الوقت الحاضر تأليف الدكتور طه حسين الاستاذ بالجامعة المصرية . . . ١٥

١٨ — بسائط الطيران : — رسالة تتناول ماضيه وحاضره ومستقبله وتتضمن شرح أجزاء الطيارات والمناطيد والمحركات ونظرية عملها ، يحتوى على ثمانين صورة تأليف الدكتور احمد عبد السلام الكرداني مهندس الطيران ١٦

١٩ — كتاب الحرية والدولة : — يتناول المباحث الاجتماعية كالدولة والسلطان وحقيقة معنى الحرية وعلاقة الفرد بالجماعة والحكومة ونشأتها الى غير ذلك مما لا بد أن يلم به كل مدنى وقلم الكتاب سهل جميل يحمل القارئ على الاستزادة ١٠

٢٠ — كتاب رفائيل : — هى القصة الخالدة الكبرى التى دبجها يراع الشاعر الفرنسى العبقرى لامارتين ، وحسب القصة أنها من تأليفه ، وتعريب الاستاذ احمد حسن الزيات المعروف بمقدرته النابغة فى الادب واللغة العربية ١٥

٢١ — القضاء الجنائى : — مجموعة قيمة من الاحكام ، الجزء الاول لشرح قانون العقوبات والجزء الثانى لشرح قانون تحقيق الجنايات تأليف الاستاذ الكبير على زكى العرابى بك رئيس نيابة استئناف مصر وفى ذلك وحده ما يدل على أن الكتاب نتيجة تجربة طويلة وعلم غزير كل جزء ٧٥

٢٢ — الثورة الفرنسية : — رسالة تبسط حوادث الثورة الفرنسية الكبرى وتتضمن نظرات عميقة فى معانيها ومبادئها ، وقد كتبها المؤلف الاستاذ حسن جلال رئيس مكتب معالى وزير الحربية بقلمه السهل الممتع فكانت بحثاً يجمع بين الدقة والسهولة ٨

ص

٢٣ — صلاح الدين وعصره : — رسالة فى تاريخ بطل الاسلام الكبير صلاح الدين الايوبى. تتناول وصف الدول التى كانت فى وقته فى الشرق والغرب وبيان أحوالها الاجتماعية. وتبين كيف نشأ ذلك البطل وكيف نمت دولته الكبيرة وتابع نضاله العالمى المشهور . وفى خاتمة الكتاب فصل شيق فى تحليل شخصية ذلك الرجل العظيم ، وكل ذلك فى أسلوب سهل جميل من قلم مؤلفه الاستاذ المعروف محمد فريد أبو حديد ٨

٢٤ — الأدب الجاهلى : بحث قيم فى الادب الجاهلى يتناول طريقة جديدة فى النقد الادبى وتطبيقها على الادب العربى وهو يفتح ميداناً فسيحاً أمام الباحث فى المخلفات الادبية العربيـة ، فالكتاب أسلوب طريف فى الادب العربى زيادة على ما له من القيمة العظيمة فى النقد والبحث الانشائى معاقاً على الشعراء وأصحاب النثر الجاهليين وهو من تأليف الاستاذ الكبير الدكتور طه حسين ٣٥

٢٥ — تاريخ اليهود فى بلاد العرب : بحث علمى جديد فى موضوع لم يسبق مثله فى اللغة العربية ، وهو يبين علاقة اليهود ببلاد العرب منذ بدئها ويبين تطورها فى مختلف العصور . ألفه الاستاذ الدكتور (اسرائيل ولفنسون) ١٥

٢٦ — الكيمياء الحديثة : فى مقرر السنة الخامسة الثانوية تأليف الاستاذ أمين ابراهيم كحيل المدرس بالجامعة المصرية وهو يمتاز بدقته ووفاء ابحاثه ١٢

كتب تحت الطبع

لا تزال اللجنة جادة فى اصدار الكتب القيمة من مؤلفات ومترجمات ، وسيظهر قريباً ثلاثة كتب عظيمة. . . . .

١ — فجر الاسلام : فى ثلاثة أجزاء يشمل تاريخ الدول الاسلامية فى العصر الاول مدة الخلفاء الراشدين والدولة الاموية ، ويتناول مباحثه جميع الوجهات من التاريخ السياسى والتاريخ الاجتماعى والحالة العقلية وسيكون بذلك مرجعاً حجة فى تاريخ هـذا العصر ، ألفه الاساتذة « الدكتور طه حسين » أستاذ آداب اللغة بالجامعة المصرية ، والاستاذ « احمد امين » والاستاذ « عبد الحميد العبادى » المدرسان بالجامعة المصرية . . . .

٢ — الشاهنامه : ترجمة القصة الكبرى الفارسية تأليف الشاعر الفارسى العظيم الفردوسى وتعريب الاديب القـديم (البندارى) وقد قام على مراجعته وضبطه وتصحيحه الاستاذ « عبد الوهاب عزام » المدرس بالجامعة المصرية . . . .

٣ — الامتيازات الأجنبية : بحث تاريخى علمى فى أصل الامتيازات الاجنبيـة بمصر ومناقشتها من الوجهتين القانونية والاجتماعية تأليف الاستاذ « محمد عبد البارى » مؤلف كتاب الحرية والدولة . . . .

٦١